في ظلال

العقيدة والأخلاق

محاضرات السيد كمال الحيدري

بسم الله الرحمن الرحيم

١. مقدّمة في علم الأخلاق.

٢. مناهج بحث الإمامة بين النظرية والتطبيق.

٣ . التوبة.. دراسة في شروطها وآثارها.

٤ . مفهوم الشفاعة في القرآن.

مقدمة في

علم الأخلاق

تمهيد:

أهمّيّة العنصر الأخلاقي في القرآن

اهتمّ القرآن الكريم بمكارم الأخلاق وذمّ مساوئها في آياته المتكرّرة وسوره المتتالية بحيث بلغت مجموع الآيات التي تحدّثت عن الأخلاق صراحة أو إشارة، أمراً أو نهياً، ما يقرب من ربع العدد الإجمالي لآيات القرآن الكريم.

ولعلّ السرّ في عناية القرآن الكريم بهذا الأصل، هو ما ذكره في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَة مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[1].

«قال الواحدي: الفظّ: الغليظ الجانب السيّئ الخُلُق، وأصله فظظ. وأمّا الفضّ بالضاد فهو تفريق الشيء، وانفضّ القوم تفرّقوا؛ قال تعالى: ﴿وَإذا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إلَيْهَا﴾[2]، ومنه فضضت الكتاب، ومنه

---

(١) آل عمران: ١٥٩.

(٢) الجمعة: ١١.

يقال: لا يفضض الله فاك.

فإن قيل: ما الفرق بين الفظّ وبين غليظ القلب؟

قلنا: الفظّ الذي يكون سيّئ الخُلُق، وغليظ القلب هو الذي لا يتأثّر قلبه عن شيء، فقد لا يكون الإنسان سيّئ الخُلُق ولا يؤذي أحداً، ولكنّه لا يرقّ لهم ولا يرحمهم، فظهر الفرق من هذا الوجه.

أمّا ما هي العلاقة بين الفظّ الغليظ القلب وبين التفرّق وعدم الاجتماع حوله صلى الله عليه وآله فقد أُجيب عنه: «أنّ المقصود من البعثة أن يبلّغ الرسول تكاليف الله إلى الخلق، وهذا المقصود لا يتمّ إلاّ إذا مالت قلوبهم إليه، وسكنت نفوسهم لديه، وهذا المقصود لا يتمّ إلاّ إذا كان رحيماً كريماً، يتجاوز عن ذنبهم، ويعفو عن إساءتهم، ويخصّهم بوجوه البرّ والمكرمة والشفقة، فلهذه الأسباب وجب أن يكون الرسول مبرأً عن سوء الخُلُق، وكما يكون كذلك وجب أن يكون غير غليظ القلب، بل يكون كثير الميل إلى إعانة الضعفاء، كثير القيام بإعانة الفقراء، كثير الصفح عن زلاّتهم، فلهذا المعنى قال: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ ولو انفضّوا من حوله فات المقصود من البعثة والرسالة»[1] لذا أمره تعالى في ذيل الآية بأن يعفو عنهم فيما يختصّ بحقّه صلى الله عليه وآله وأن يستغفر لهم فيما

---

(١) **التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب**: للإمام فخر الدين الرازي الشافعي: ج٩ ص٥٢، منشورات: محمّد علي بيضون لنشر كتب السنّة والجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان.

يتعلّق بحقّ الله تعالى، كما ذكره الزمخشري في الكشّاف[1].

والآية دالّة على وجوب العفو عنهم؛ لقوله: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ ولكن لمّا آل الأمر إلى الأمّة لم يوجبه عليهم، بل ندبهم إليه، فقال تعالى: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾[2] ليعلم أنّ حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين.

وكيفما كان فهذه الآية المباركة تدلّ دلالة واضحة أنّ من أهمّ قواعد وأُصول تبليغ هذا الدين القيّم، هو التحلّي بهذا الخُلُق الإلهي الرفيع، لأنّ الناس في حاجة إلى كنف رحيم، وإلى رعاية فائقة، وإلى بشاشة سمحة، وإلى ودّ يسعهم، وحلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم ونقصهم، في حاجة إلى قلب كبير يعطيهم ولا يحتاج منهم إلى عطاء، ويحمل همومهم ولا يعنيهم بهمّه، ويجدون عنده دائماً الاهتمام والرعاية والعطف والسماحة والودّ والرضاء....

وهكذا كان قلب رسول الله، وهكذا كانت حياته مع الناس، ما غضب لنفسه قطّ، ولا ضاق صدره لضعفهم البشري، ولا احتجز لنفسه شيئاً من أعراض هذه الحياة، بل أعطاهم كلّ ما ملكت يداه في سماحة ندية، ووسعهم حلمه وبرّه وعطفه وودّه الكريم.

---

(١) **الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل** وهو تفسير القرآن الكريم للإمام جار الله محمود بن عمر الزمخشري، المتوفّى سنة ٥٢٨ هـ ج١ ص٤٣١.

(٢) آل عمران : ١٣٤.

وإنَّك لعَلى خُلق عَظيم

من هنا يتّضح أهميّة ما أثنى به القرآن الكريم على سيّد الأنبياء والمرسلين محمّد المصطفى صلى الله عليه وآله حيث قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُق عَظِيم﴾(١).

«والخلق العظيم: هو الخُلُق الأكرم في نوع الأخلاق، وهو البالغ أشدّ الكمال المحمود في طبع الإنسان... فهو أرفع من مطلق الخُلُق الحسن»(٢).

قال الرازي: «إنّما وصف خلقه بأنّه عظيم وذلك لأنّه تعالى قال له: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِه﴾(٣).

وهذا الهدى الذي أمر الله محمّداً بالاقتداء به، ليس هو معرفة الله، لأنّ ذلك تقليد وهو غير لائق بالرسول، وليس هو الشرائع لأنّ شريعته مخالفة لشرائعهم، فتعيّن أن يكون المراد منه أمره عليه الصلاة والسلام بأن يقتدي بكلّ واحد من الأنبياء المتقدّمين، فيما اختصّ به من الخُلُق الكريم، فكأنّ كلّ واحد منهم كان مختصّاً بنوع واحد، فلمّا أُمر محمّد عليه الصلاة والسلام بأن يقتدي بالكلّ فكأنّه أمر بمجموع ما كان

(١) القلم: ٤.
(٢) **التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور التونسي**، تأليف: سماحة الأستاذ الإمام الشيخ محمّد الطاهر ابن عاشور: ج٢٩ ص٦٠ مؤسّسة التاريخ، الطبعة الأولى.
(٣) الأنعام: ٩٠.

متفرّقاً فيهم، ولمّا كان ذلك درجة عالية لم تتيسّر لأحد من الأنبياء قبله، لا جرم وصف الله خلقه بأنّه عظيم، وفيه دقيقة أُخرى وهي قوله ﴿لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ وكلمة «على» للاستعلاء، فدلّ اللفظ على أنّه مستعلٍ على هذه الأخلاق ومستولٍ عليها، وأنّه بالنسبة إلى هذه الأخلاق الجميلة كالمولى بالنسبة إلى العبد وكالأمير بالنسبة إلى المأمور»[١].

وقد تكرّر مثل هذا الأسلوب الاستعلائي في كلامه سبحانه في مقامات مختلفة، حيث قال في حقّه صلى الله عليه وآله: ﴿إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ﴾[٢]، وقال: ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾[٣]، وقال: ﴿إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[٤].

لذا قيل في وصف خلقه صلى الله عليه وآله: «ويعجز كلّ قلم، ويعجز كلّ تصوّر عن وصف قيمة هذه الكلمة العظيمة من ربّ الوجود، وهي شهادة من الله، في ميزان الله، لعبد الله، يقول له فيها: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ ومدلول الخُلق العظيم، هو ما هو عند الله ممّا لا يبلغ إلى إدراك مداه أحد من العالمين!

ودلالة هذه الكلمة العظيمة على عظمة محمّد صلى الله عليه وآله

---

(١) **التفسير الكبير** أو مفاتيح الغيب: ج٢٩ ص٧١.

(٢) الحج: ٦٧.

(٣) النمل: ٧٩.

(٤) الزخرف: ٤٣.

تبرز من نواحٍ شتّى:

• تبرز من كونها كلمة من الله الكبير المتعال: يسجّلها ضمير الكون، وتثبت في كيانه، وتتردّد في الملأ الأعلى إلى ما شاء الله.

• وتبرز من جانب آخر، من جانب إطاقة محمّد ﷺ لتلقّيها، وهو يعلم مَن ربّه هذا، قائل هذه الكلمة، ما هو؟ ما عظمته؟ ما دلالة كلماته، ما مداها؟ ما صداها؟ ويعلم من هو إلى جانب هذه العظمة المطلقة، التي يدرك هو منها ما لا يدركه أحد من العالمين»[(١)].

ويمكن أن يذكر وجه آخر لبيان توصيف خُلقه صلى الله عليه وآله بأنّه عظيم، أنّه ورد عن عائشة أنّها سئلت عن خلق رسول الله صلى الله عليه وآله فقالت: «إنّ خلقه كان القرآن»[(٢)]. ولمّا كان القرآن عظيماً كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾[(٣)] يثبت أنّه صلى الله عليه وآله كان على خلق

---

(١) **في ظلال القرآن**، سيّد قطب: ج٨ ص٢٢٠، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، الطبعة السابعة: ١٣٩١ هـ.

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض، برقم ٧٤٦ وأخرجه أبو داود في الصلاة، باب صلاة الليل برقم ١٣٤٢، والنسائي في قيام الليل، والدارمي في الصلاة باب صفة صلاة رسول الله، وأحمد في المسند، وكذلك الحاكم في المستدرك ج٢ ص٤٩٩، وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي والبيهقي في دلائل النبوّة، وغيرهم كثير. نقلاً عن كتاب **أخلاق النبي في القرآن والسنّة**: ج١ ص٦٣، الحاشية.

(٣) الحجر: ٨٧.

عظيم، كما أكّدت ذلك آية سورة القلم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُق عَظِيم﴾ بمؤكّدات عديدة هي:

- وقوعه في جواب القسم.
- «إنّ» المؤكّدة.
- إبراز كاف الخطاب تشريفاً وتنويهاً بشأنه.
- اللام المؤكّدة التي هي في موضع القسم عوضاً عن المزحلقة.

وكيفما كان فإذا ضممنا إلى ذلك ما حثّ عليه القرآن من وجوب الاتّباع لهذا النبي العظيم: ﴿قُلْ إنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(١) واتّخاذه أُسوة وقدوة: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُول اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً﴾(٢) يتّضح لنا أهميّة العنصر الأخلاقي في النظرية القرآنية وأصالته في العقيدة الإسلامية. لذا نجد أنّ هذا العنصر له دور أصيل في جميع ما أسّسه الشارع في أُصوله التشريعية والتهذيبية فإنّ «القوانين والسنن التي سنّها الشارع وإن كانت عادلة في حدود مفاهيمها، وأحكام الجزاء وإن كانت بالغة في شدّتها، لا تجري على رسلها في المجتمع، ولا تسدّ باب الخلاف وطريق التخلّف، إلاّ بأخلاق فاضلة إنسانية، تقطع دابر الظلم والفساد، كملكة اتباع الحقّ

(١) آل عمران: ٣١.
(٢) الأحزاب: ٢١.

واحترام الإنسانية والعدالة والكرامة والحياة ونشر الرحمة ونظائرها. وبالجملة السنن والقوانين لا تأمن التخلّف إلاّ إذا تأسّست على أخلاق كريمة إنسانية واستظهرت بها.

نعم الأخلاق بمفردها لا تفي بإسعاد المجتمع، ولا تسوق الإنسان إلى العمل الصالح، إلاّ إذا اعتمدت على التوحيد، وهو الإيمان بأنّ للعالم ومنه الإنسان ، إلهاً واحداً سرمدياً لا يعزب عن علمه شيء، ولا يُغلب في قدرته عن أحد، خلق الأشياء على أكمل نظام، لا لحاجة منه إليها، وسيعيدهم إليه فيحاسبهم، فيجزي المحسن بإحسانه، ويعاقب المسيء بإساءته، ثمّ يخلدون منعّمين أو معذّبين»[1].

قد أفلحَ مَن زَكَّاهَا

وبهذا يتأسّس ما أكّده القرآن الكريم، من ضرورة التحلّي بالأخلاق الإلهية والتخلّي عن رذائل الأخلاق وذمائمها.

ولعلّ من أهمّ المشاهد القرآنية التي حثّت على الأخلاق الحسنة وحذّرت من الأخلاق السيئة ما جاء في أوّل سورة الشمس؛ قال تعالى:

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاَهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا * وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا *

(١) **الميزان في تفسير القرآن**، للعلامة السيد محمد حسين الطباطبائي: ج١١ ص١٥٦، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت – لبنان، الطبعة الثانية.

وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْس وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾[1].

هذه الآيات القصيرة «ذات القافية الواحدة، والإيقاع الموسيقي الموحّد، تتضمّن عدّة لمسات وجدانية، تنبثق من مشاهد الكون وظواهره التي تبدأ بها السورة، والتي تظهر كأنّها إطار للحقيقة الكبيرة التي تتضمّنها السورة، حقيقة النفس الإنسانية، واستعداداتها الفطرية، ودور الإنسان في شأن نفسه، وتبعته في مصيرها، هذه الحقيقة التي يربطها سياق السورة بحقائق الكون ومشاهده الثابتة.

يقسم الله سبحانه بهذه الخلائق والمشاهد الكونية، كما يقسم بالنفس وتسويتها وإلهامها، ومن شأن هذا القسم أن يخلع على هذه الخلائق قيمة كبرى، وأن يوجّه إليها القلوب تتملاّها، وتتدبّر ماذا لها من قيمة، وماذا بها من دلالة، حتّى استحقّت أن يقسم بها الجليل العظيم...

وهنا نجد القسم الموحي بالشمس وضحاها.. بالشمس عامّة وحين تضحى وترتفع عن الأفق بصفة خاصّة، وهي أروع ما تكون في هذه الفترة وأحلى.

وبالقمر إذا تلاها، إذا تلا الشمس بنوره اللطيف الشفيف الرائق الصافي.

---

(١) الشمس: ١ ـ ٩.

ويقسم بالنهار إذا جلاّها، ممّا يوحي بأنّ المقصود بالضحى هو الفترة الخاصّة لا كلّ النهار. ومثله (والليل إذا يغشاها) والتغشية هي مقابل التجلية، والليل غشاء يضمّ كلّ شيء ويخفيه، وهو مشهد له في النفس وقع، وفي حياة الإنسان أثر كالنهار سواء.

ثمّ يقسم بالسماء وبنائها (والسماء وما بناها) ولفظ السماء حين يذكر يسبق إلى الذهن هذا الذي نراه فوقنا كالقبّة حيثما اتّجهنا، تتناثر فيه النجوم والكواكب السابحة في أفلاكها ومداراتها.

كذلك يقسم بالأرض وطحوها (والأرض وما طحاها) والطحو كالدحو: البسط والتمهيد للحياة، وهي حقيقة قائمة تتوقّف على وجودها حياة الجنس البشري وسائر الأجناس الحيّة.

ثمّ تجيء الحقيقة الكبرى عن النفس البشرية في سياق هذا القسم، مرتبطة بالكون ومشاهده وظواهره، وهي إحدى الآيات الكبرى في هذا الوجود المترابط المتناسق»[١].

هذه إطلالة سريعة على مجمل مضمون هذه الآيات المباركة، إلاّ أنّ هناك مجموعة من النكات التي تستحقّ الوقوف عندها قليلاً:

الأولى: من النوادر القرآنية أن يقدّم لجواب القسم بعدد كبير من الأقسام، وقد قدّم لجواب القسم هنا، أي قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ بسبعة أقسام، الأمر الذي يوضّح مدى

---

(١) **في ظلال القرآن**: ج٨ ص٥٨٧ ـ ٥٩٠.

اهتمام القرآن الكريم بجواب القسم هذا، والذي يتضمّن دعوة الإنسان إلى الالتزام بالأخلاق الحسنة، وتجنّب السيّئ منها، وحثّه إلى تزكية نفسه وتحذيره من دسّها.

الثانية: أقسم الله سبحانه في هذه الآيات الشريفة بالشمس والقمر والنهار والليل والسماء والأرض، حتّى شمل كلّ عالم المادّة ـ هذا العالم المشهود ـ بقسمه عزّ وجلّ، ولم يبق فيه شيء إلاّ وأقسم به، وكأنّ هذه الآيات تريد أن تقول ـ والله العالم ـ إنّ كلّ عالم الشهادة هو لأجل خلق الإنسان، وإنّه هو المقصود من خلق هذه الأشياء كلّها.

قال تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأنهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَات لِقَوْم يَتَفَكَّرُونَ﴾(٢).

الثالثة: أنّ المراد من «النفس» في الآية المباركة هي النفس الإنسانية؛ بقرينة قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾

---

(١) إبراهيم: ٣٢ ـ ٣٤.

(٢) الجاثية: ١٣.

فليس المقصود هو مطلق النفس ولو كان نباتاً أو حيواناً، بل الإنسان وهو المكلّف الذي يترتّب على عمله الثواب والعقاب، ونفوس الجن على ما يظهر من الكتاب العزيز من كونهم مكلّفين بالإيمان والعمل الصالح: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإنسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾(١).

الرابعة: أنّ مفردات «الشمس» و «القمر» و «النهار» و «الليل» و «السماء» و «الأرض» في الآيات المتقدّمة كلّها معرفة، غير أنّ مفردة «نفس» نكرة، إذ قال تعالى: ﴿وَنَفْس وَمَا سَوَّاهَا﴾ ولم يقل «والنفس وما سوّاها».

ولبيان سبب التنكير، ذكرت عدّة وجوه، لعلّ أفضلها هو ما أشار إليه الطباطبائي في تفسيره، من أنّه جعل النفس نكرة لبيان عظمتها وفخامتها، فكأنّه سبحانه يقول: يا أيّها الإنسان اعرف نفسك، لأنّك وإن كنت تعرف كثيراً من الأشياء من حولك، ولكنّك لا تعرف أقرب الأشياء إليك وهي نفسك، واعلم أنّك بهذه النفس التي خلقتُها بيديَّ ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾(٢) قد أصبحتَ سيّد عالم الإمكان ومحوره وثمرته، بشرط أن تقوم بما يجب عليك القيام به وأن تزكّي نفسك.

والخلاصة أنّ عالم الإمكان شجرة إلهية، والإنسان ثمرتها، وأنّ هذا العالم يدور حول محور الإنسان الكامل، وفي كلّ هذه المعاني -

---

(١) الذاريات: ٥٦.

(٢) ص: ٧٥.

وما سبقها - إشارة إلى عظمة النفس الإنسانية وفخامتها.

الخامسة: أنّ الآيات المباركة قد تسلسلت في طرح الأفكار، إذ ورد فيها قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ ومن بعده ورد قوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ إذ الظاهر أنّ هذه التسوية هي المنشأ لقبول النفس إلهام التقوى والفجور ، وإلاّ فإنّها بدون ذلك ليست قابلة لأيّ من الإلهامين. ولعلّ هذا هو المراد من التسوية في قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾(١) بناءً على أنّ المراد من الخلق هو خصوص الإنسان، فيكون المراد من التسوية ما ذُكر هنا في قوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾.

السادسة: أنّ القرآن الكريم حين حثّ الإنسان على تزكية النفس فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾، زوّده بالمعدّات والوسائل التي يستطيع من خلالها تحقيق ذلك، فمن جهة زوّده بالحجّة الباطنة وهي العقل أو الفطرة الموجودة مع الإنسان منذ بداية خلقه ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(٢)، ﴿صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً﴾(٣) ثمّ بيّن له من خلال ذلك ما هو العمل الحسن وما هو العمل القبيح، كما ألهمه في فطرته ما هي التقوى وما هو الفجور.

---

(١) الأعلى: ٢.
(٢) الروم: ٣٠.
(٣) البقرة: ١٣٨.

قال في الميزان في ذيل قوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾: «وتعليق الإلهام على عنواني فجور النفس وتقواها، للدلالة على أنّ المراد تعريفه تعالى للإنسان صفة فعله من تقوى وفجور، وراء تعريفه متن الفعل بعنوانه الأوّلي المشترك بين التقوى والفجور، كأكل المال مثلاً المشترك بين أكل مال اليتيم الذي هو فجور، وبين أكل مال نفسه الذي هو من التقوى... وبالجملة المراد أنّه تعالى عرّف الإنسان كون ما يأتي به من فعل فجوراً أو تقوى، وميّز له ما هو تقوى مما هو فجور»[1].

كما زوّده أيضاً بالحجّة الظاهرة، وهي الرسل والأنبياء والأئمّة والعلماء الصالحون، قال الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام: «**يا هشام إنّ لله حجّتين، حجّة ظاهرة وحجّة باطنة، فأمّا الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمّة، وأمّا الباطنة فالعقول**»[2]. وقال الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليهما السلام: «**حجّة الله على العباد النبي، والحجّة بين العباد وبين الله العقل**»[3].

كلّ ذلك من أجل أن تكون «الحجّة لله على الناس» لا «الحجّة للناس على الله» يوم القيامة، ولكي يقطع على الإنسان أي عذر له في

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**: ج٢٠ ص٢٩٨.

(٢) **الأصول من الكافي**، لثقة الإسلام أبي جعفر محمّد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، ج١ ص١٦، باب العقل والجهل، دار صعب، دار التعارف للمطبوعات.

(٣) المصدر السابق: ج١ ص٢٥، الحديث: ٢٢.

ذلك اليوم؛ قال تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[١]. وقال تعالى: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾[٢].

السابعة: دلالة الآية أنّ الأخلاق الحسنة والتقوى منسجمة تمام الانسجام مع الفطرة الإنسانية، بخلاف الفجور فإنّه على خلاف طبيعتها وفطرتها. لعلّ «التعبير بالتزكية والتدسّي عن إصلاح النفس، وإفسادها، مبتنٍ على ما يدلّ عليه قوله ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ على أنّ كمال النفس الإنسانية أنّها ملهمة مميّزة ـ بحسب فطرتها ـ للفجور من التقوى، أي أنّ الدين وهو الإسلام لله فيما يريده فطري للنفس، فتحلية النفس بالتقوى، تزكية وإنماء صالح وتزويد لها بما يمدّها في بقائها؛ قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾[٣]، وأمرها في الفجور على خلاف التقوى، لأنّ التدسّي هو إدخال الشيء في الشيء بضرب من الإخفاء، والمراد بها بقرينة التزكية، الإنماء على خلاف ما يقتضيها طبعها وركّبت عليه نفسها»[٤].

الثامنة: من أهمّ النكات التي تعرّضت لها الآية، أنّها قدّمت القسم بالمخلوق وهو النفس ﴿ونفس﴾ على القسم بالخالق ﴿وما سوّاها﴾ فإنّ

---

(١) الأنعام: ١٤٩.

(٢) النساء: ١٦٥.

(٣) البقرة: ١٩٧.

(٤) **الميزان في تفسير القرآن**: ج٢٠ ص٢٩٨.

الذي سوّى النفس هو الله سبحانه وتعالى ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾(١).

ولعلّنا لا نجد مورداً آخر مشابهاً لهذه الآية في تقديم القسم بالمخلوق على القسم بالخالق، من هنا قد يُفهم منه ــ والله العالم ـ أنّ من أفضل الطرق لمعرفة الله سبحانه، يمرّ من خلال معرفة النفس، وهذا ما أكّدته الروايات الكثيرة الواردة عن النبي الأكرم وأئمّة أهل البيت عليهم السلام.

والحاصل أنّ آيات هذا المقطع من سورة الشمس المباركة، أكّدت أهميّة الأخلاق والتقوى، بما لا نجده في آيات أُخرى من القرآن الكريم، حيث قرّرت أنّ هذا العالم، إنّما خلق لأجل الإنسان، وخلق الإنسان لأجل الأخلاق الإلهية والتخلّق بها ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ وبذلك يتسامى ويتكامل في مسيرته نحو الحقّ عزّ وجلّ، حتّى يصل إلى مقام يكون فيه مظهراً لجميع الأسماء والصفات الإلهية، فيكون مؤهّلاً لحمل الأمانة التي عرضت على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ﴾(٢).

---

(١) الأعلى: ٢ ـ ٣.

(٢) الأحزاب: ٧٢.

الروايات الحاثّة على الأخلاق الحسنة

الروايات الصادرة عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله والتي تحثّ على الأخلاق الحسنة كثيرة جدّاً، نشير إلى بعضها:

• قصرت مجموعة من الروايات الواردة عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله هدف البعثة النبوية، على إتمام مكارم الأخلاق، من خلال ألسنة متعدّدة وبيانات مختلفة .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إنّما بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق**» وفي رواية «**إنّما بعثت لأُتمّم صالح الأخلاق**» وفي ثالثة «**إنّ بعثتي بتمام مكارم الأخلاق وكمال محاسن الأفعال**» وفي رابعة «**بعثت لأُتمّم حسن الأخلاق**» وفي خامسة «**إنّما بعثت بمحاسن الأخلاق**»(١).

وقد أكّد القرآن الكريم هذه الحقيقة في بيان فلسفة البعثة؛ قال تعالى:﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾(٢).

---

(١) **مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل**، تأليف: خاتمة المحدّثين الحاج ميرزا حسين النوري الطبرسي، المتوفى سنة ١٣٢٠هـ : ج١١ ص١٨٧، برقم ١٢٧٠١، تحقيق مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث؛ **المحجّة البيضاء في تهذيب الأحياء** للمحقّق العظيم والمحدّث الكبير الحكيم المتألّه محمّد بن المرتضى المدعوّ بالمولى محسن الكاشاني: ج٥ ص٨٩ دفتر انتشارات إسلامي؛ **أخلاق النبي الأكرم في القرآن والسنّة**: ج١ ص٤٤، الحاشية٣ وص٤٥، الحاشية: ١- ٣.

(٢) البقرة: ١٥١.

وقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(١).

وقال أيضاً: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(٢).

فأخبر في هذه الآيات أنه بعث خاتم الأنبياء والمرسلين ليزكّي عباده، قال الراغب الإصفهاني في «المفردات»: «أصل الزكاة النموّ الحاصل عن بركة الله تعالى، ويعتبر ذلك بالأُمور الدنيوية والأُخروية، يقال: زكا الزرع يزكو، إذا حصل منه نموّ وبركة. وتزكية النفس تنميتها بالخيرات والبركات أو لهما جميعاً، فإنّ الخيرين موجودان فيها. وبزكاء النفس وطهارتها يصير الإنسان بحيث يستحقّ في الدنيا الأوصاف المحمودة وفي الآخرة الأجر والمثوبة. وينسب تارةً إلى العبد لكونه مكتسباً لذلك نحو ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ وتارةً ينسب إلى الله تعالى لكونه فاعلاً لذلك في الحقيقة نحو: ﴿بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ وتارةً إلى النبي لكونه واسطة في وصول ذلك إليهم نحو: ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ وتارةً إلى العبادة التي هي آلة في ذلك نحو: ﴿وَحَنَاناً

---

(١) آل عمران: ١٦٤.

(٢) الجمعة: ٢.

مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً﴾»(١).

وحيث إنّ الهدف العامّ من نزول القرآن الكريم هو إيصال الإنسان إلى الفلاح؛ قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُوْلَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٢).

ولا طريق للفلاح إلاّ بالتزكية؛ قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾.

ولا طريق للتزكية إلاّ باتّباع تعاليم الإسلام المتجسّدة في اتّباع الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(٣).

ولا يتحقّق هذا الاتّباع إلاّ بالأخذ بكلّ ما جاءنا عنه صلى الله عليه وآله؛ قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾(٤) وذلك لما جاء عن أبي حمزة الثمالي عن الإمام محمد الباقر عليه السلام قال: خطب رسول الله صلى الله عليه وآله في حجّة الوداع

---

(١) **المفردات في غريب القرآن**، تأليف: أبي القاسم الحسين بن محمّد المعروف بالراغب الإصفهاني (٥٠٢هـ) : ص٢١٣، مادّة «زكا»، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان.

(٢) البقرة: ٢ ـ ٥.

(٣) آل عمران: ٣٠.

(٤) الحشر: ٧.

فقال: «أيّها الناس والله ما من شيء يقرّبكم من الجنّة ويباعدكم من النار، إلاّ وقد أمرتكم به، وما من شيء يقرّبكم من النار ويباعدكم من الجنّة إلاّ وقد نهيتكم عنه»(١).

ثمّ حدّد صلى الله عليه وآله كيفية اتّباعه بقوله: «إنّي تركت فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا بعدي، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»(٢).

قال في «نفحات الأزهار»: «إنّ هذا الحديث رواه عن النبي صلى الله عليه وآله أكثر من ثلاثين صحابياً، وما لا يقلّ عن (٣٠٠) عالم من كبار علماء السنّة، في مختلف العلوم والفنون، في جميع الأعصار والقرون، بألفاظ مختلفة وأسانيد متعدّدة، وفيهم الصحاح والمسانيد وأئمّة الحديث والتفسير والتاريخ، فهو حديث صحيح متواتر بين المسلمين»(٣).

فتحصّل أنّ الهدف الأساس من البعثة النبوية، هو التحلّي بمكارم الأخلاق، وهذا معناه أنّ الشريعة الخاتمة التي جاء بها سيّد الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وآله ذات أُسس أخلاقية عليها تقوم، وبها

---

(١) **الأصول من الكافي**: ج١ ص٧٤، كتاب الإيمان والكفر، باب الطاعة والتقوى.

(٢) **سنن الترمذي**: ج٥ ص٦٦٤، الحديث: ٣٧٨٦.

(٣) **نفحات الأزهار في خلاصة عبقات الأنوار في الردّ على التحفة الاثني عشرية**، حديث الثقلين: ج١ ص١٨٥، تأليف السيّد علي الحسيني الميلاني.

تنفَّذ في كلّ جوانبها الإيمانية، والتعبّدية، والتعاملية، فلا يزكو إيمان ولا عبادة ولا عمل، ما لم يكن مصبوغاً بالصبغة الأخلاقية الفاضلة، إذ ليس من خُلق كريم ولا فعل جميل إلاّ وقد وصله الله بالدين»(١).

وبهذا يتّضح وجه ما ذكره ابن عباس في ذيل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ «أي على دين كريم شريف»(٢) فسمّى الدين كلّه خُلقاً؛ لذا ورد أنه جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلّم من بين يديه فقال: يا رسول الله ما الدين؟ قال: **حسن الخُلُق**، فأتاه من قبل يمينه فقال: يا رسول الله ما الدين؟ قال: **حسن الخُلُق**، ثمّ أتاه من قبل شماله فقال: ما الدين؟ فقال: «**حسن الخُلُق**»(٣).

• وقال أبو الدرداء: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: **أفضل ما يوضع في الميزان حسن الخلق والسخاء، ولمّا خلق الله الإيمان قال: اللهمّ قوّني، فقوّاه بحسن الخلق والسخاء، ولمّا خلق الله الكفر، قال: اللهمّ قوّني، فقوّاه بالبخل وسوء الخلق**»(٤).

• وعنه صلى الله عليه وآله: «**أثقل ما يوضع في الميزان تقوى الله والخُلُق الحسن**»(٥).

---

(١) **أخلاق النبي في القرآن والسنّة**: ج١ ص٤٦.

(٢) **تنوير المقباس من تفسير ابن عباس**: ص٤٨٠، انتشارات استقلال، طهران ـ إيران.

(٣) **إحياء علوم الدين**، تصنيف: الإمام أبي حامد محمّد بن محمّد الغزالي، المتوفّى سنة ٥٠٥هـ: ج٣ ص٤٩، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان.

(٤) **إحياء علوم الدين**: ج٣ ص٥٠.

(٥) **المحجّة البيضاء**: ج٥ ص٨٩.

● وعنه صلى الله عليه وآله: «**إنّ من أحبّكم إليّ وأقربكم منّي مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً**»[١].

● وقال أنس: قال النبي صلى الله عليه وآله: «**إنّ العبد ليبلغ بحسن خُلُقه عظيم درجات الآخرة، وشرف المنازل، وإنّه لضعيف العبادة**»[٢].

● وعنه صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**إنّكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخُلُق**»[٣].

● وعن أُسامة بن شريك، قال شهدت الأعاريب يسألون النبي صلى الله عليه وآله يقولون : ما خير ما أُعطي العبد؟ قال: **حسن الخُلُق**»[٤].

● وقال صلى الله عليه وآله لأبي ذرّ: «**يا أبا ذرّ لا عقل كالتدبير ولا حسب كحسن الخُلُق**»[٥].

● وعنه صلى الله عليه وآله: «**إنّ المسلم المسدّد ليدرك درجة**

---

(١) أخرجه الترمذي في البرّ والصلة، باب ما جاء في معالي الأخلاق، برقم ٢٠١٨ من حديث جابر، وأحمد في المسند ج٢ ص١٨٩، نقلاً عن كتاب **أخلاق النبي في القرآن والسنّة** ج١ ص٤٩، الحاشية: ٢.

(٢) **المحجّة البيضاء**: ج٥ ص٩٣.

(٣) أخرجه الطبراني والبزاز وأبو يعلى من حديث أبي هريرة، وبعض طرق البزاز رجاله ثقات كما في المغني، نقلاً عن **المحجّة**: ج٥ ص٩٠.

(٤) أخرجه الطيالسي في مسنده، تحت رقم ١٢٣٣، عن **المحجّة**: ج٥ ص٩١.

(٥) أخرجه ابن ماجة في السنن تحت رقم: ٤٢١٨، نقلاً عن **المحجّة**: ج٥ ص٩٢.

الصائم القائم بحسن خُلقه»[١].

• وقال أنس: بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وآله يوماً إذ قال: «**إنّ حسن الخلق ليذيب الخطيئة كما تذيب الشمس الجليد**»[٢].

• وعنه صلى الله عليه وآله: «**حسن الخلق، خلق الله الأعظم**»[٣].

من هنا ورد الحثّ على التشبّه بأخلاق الله تعالى، كما وقع في الحديث النبوي صلى الله عليه وآله: «**تخلّقوا بأخلاق الله**»[٤].

قال بعض المحقّقين: «والتخلّق هو التحقّق والاتّصاف بحقيقة ذلك الخلق، لا العلم المفهومي بمعناه، كما يحصل بالرجوع إلى المعاجم، بأنّ الراحم كذا والعطوف كذا، ومنه يتّضح معنى حديث رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إنّ لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنّة**»[٥] حيث إنّ المراد هو التخلّق بحقائق تلك الأسماء، كما ورد في حديث آخر عنه صلى الله عليه وآله: **إنّ لله تسعة وتسعين خُلقاً**، من

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب، باب حسن الخُلق من حديث عائشة، برقم: ٤٧٩٨، وابن حبّان في صحيحه ج١ ص٣٥٠، نقلاً عن **أخلاق النبي في القرآن والسنّة** ج١ ص٤٨، الحاشية: ٣.

(٢) **المحجّة البيضاء**: ج٥ ص٩٢.

(٣) المصدر السابق: ج٥ ص٩٠.

(٤) **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، تأليف العلم العلاّمة الحجّة فخر الأمّة المولى الشيخ محمّد باقر المجلسي قدس سره: ج٦١ ص١٢٩، مؤسّسة الوفاء، بيروت ـ لبنان.

(٥) **الخصال**، للصدوق، ص٥٩٣، الحديث: ٤، طبع جامعة المدرّسين بقم.

تخلّق بها دخل الجنّـة، لأنّ الأحاديث يعطف بعضها على بعض، كما أنّ القرآن ينطق بعضه على بعض»[١].

(١) **الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعـة**، تصـحيح وتعليـق آيـة الله حسـن زاده آملي: ج١ ص٣٠.

البحث الأوّل

تعريف علم الأخلاق

قبل الدخول في تعريف علم الأخلاق لابدّ من الوقوف على ما هو المراد من الأخلاق لغة واصطلاحاً.

الأخلاق لغة

الأخلاق: جمع خُلق - بضمّ الخاء وبضمّ اللام وسكونها - والخُلق في اللغة يطلق على معان. قال في تاج العروس: «والخُلق» بالضمّ وبضمّتين: السجيّة، وهو ما خلق عليه من الطبع، وقال ابن الأعرابي، الخُلق: المروءة، والخُلق: الدين.. والجمع أخلاق»[1]. وقد ميّزوا بين الخَلق بالفتح والخُلق بالضمّ - وإن كانا في الأصل واحد، كالشرب والشُرب - لكن «خصّ الخَلق بالهيئات والأشكال والصور

(١) **تاج العروس من جواهر القاموس**، تأليف: السيّد محمّد مرتضى الحسيني الزبيدي: ج٢٥ ص٢٥٧، تحقيق: مصطفى حجازي، دار الهداية للطباعة والنشر والتوزيع؛ **لسان العرب**، للإمام العلاّمة ابن منظور (٦٣٠ ـ ٧١١هـ): ج٤ ص١٩٣، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

المدركة بالبصر، وخصّ الخُلق بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة»[١].

توضيح ذلك أنّ «الخَلق والخُلق» عبارتان مستعملتان معاً، يقال: فلان حسن الخَلق والخُلق ـ أي حسن الظاهر والباطن ـ فيراد بالخَلق الصورة الظاهرة، ويراد بالخُلق الصورة الباطنة، وذلك لأنّ الإنسان مركّب من جسد مدرك بالبصر، ومن روح ونفس مدرك بالبصيرة، ولكلّ واحد منهما هيئة وصورة إمّا قبيحة وإمّا جميلة، فالنفس المدركة بالبصيرة أعظم قدراً من الجسد المدرك بالبصر، ولذلك عظّم الله أمره بإضافته إليه إذ قال تعالى: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِين * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ فنبّه على أنّ الجسد منسوب إلى الطين ، والروح إلى ربّ العالمين، والمراد بالروح والنفس في هذا المقام واحد»[٢].

أصل اشتقاقه: قال ابن فارس: «الخاء واللام والقاف أصلان: أحدها: تقدير الشيء. والآخر: ملامسة الشيء. فأمّا الأوّل فقولهم: خَلَقت الأديم للسقاء، إذا قدّرته... ومن ذلك: الخُلق وهي السجيّة، لأنّ صاحبها قد قُدّر عليه، وفلان خليق بكذا، وأخلق به، وما أخلقه، أي هو ممّن يقدّر فيه ذلك، والخلاق: النصيب، لأنّه قد قدّر لكلّ أحد نصيبه. وأمّا الأصل الثاني، فصخرة خلقاء، أي ملساء»[٣].

---

(١) **المفردات في غريب القرآن**: ص١٥٨، مادّة «خلق».

(٢) **إحياء علوم الدين**: ج٣ ص٥٣.

(٣) **معجم مقاييس اللغة**، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا: ج٢ ص٢١٣،

الأخلاق اصطلاحاً

قال مسكويه في «تهذيب الأخلاق»: «الخُلق حال للنفس داعية إلى أفعالها من غير فكر ولا رويّة»[١].

وتبعه على هذا التعريف كثير ممّن أتى بعده ومنهم الغزالي في «إحياء العلوم» حيث قال: «الخُلق: عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر ورويّة، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً، سمّيت تلك الهيئة خُلقاً حسناً، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة، سمّيت الهيئة التي هي المصدر خُلقاً سيّئاً، وإنّما قلنا إنّها هيئة راسخة، لأنّ من يصدر منه بذل المال على الندور، لحاجة عارضة، لا يقال خلقه السخاء، ما لم يثبت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ، وإنّما اشترطنا أن تصدر منه الأفعال بسهولة من غير رويّة، لأنّ من تكلّف بذل المال أو السكوت عند الغضب بجهد ورويّة، لا يقال خُلقه السخاء والحلم. فهاهنا أربعة أُمور:

أحدها: فعل الجميل والقبيح.

والثاني: القدرة عليهما.

والثالث: المعرفة بهما.

تحقيق وضبط عبد السلام محمّد هارون.

(١) **تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق**، لأبي علي أحمد بن محمّد بن يعقوب الرازي «مسكويه» (ت: ٤٢١هـ)، قدّم له الشيخ حسن تميم القاضي الشرعي: ص٥١.

والرابع: هيئة للنفس بها تميل إلى أحد الجانبين، ويتيسّر عليها أحد الأمرين، إمّا الحسن وإمّا القبيح.

وليس الخُلق عبارة عن الفعل، فربّ شخص خُلقه السخاء ولا يبذل؛ إمّا لفقد المال أو لمانع. وربما يكون خُلقه البخل وهو يبذل إمّا لباعث أو لرياء، وليس هو عبارة عن القوّة، لأنّ نسبة القوّة إلى الإمساك والإعطاء، بل إلى الضدّين واحد، وكلّ إنسان خُلق بالفطرة قادراً على الإعطاء والإمساك، وذلك لا يوجب خُلق البخل ولا خُلق السخاء. وليس هو عبارة عن المعرفة، فإنّ المعرفة تتعلّق بالجميل والقبيح جميعاً على وجه واحد. بل هو عبارة عن المعنى الرابع، وهو الهيئة التي بها تستعدّ النفس لأن يصدر منها الإمساك أو البذل. فالخلق إذن عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة»[١].

قوله: «الخلق: عبارة عن هيئة للنفس راسخة...» إشارة إلى وجود هيئات للنفس غير راسخة أيضاً، إذ الهيئات النفسانية على قسمين:

الأوّل: هيئات غير راسخة، وهي الهيئات التي تزول بسرعة كاحمرار وجه الإنسان عند الخجل أو اصفراره عند الخوف.

الثاني: هيئات راسخة، وهي التي لا تزول، إمّا لا تزول أصلاً كلون الإنسان مثلاً، لأنّها غير اختيارية، أو لا تزول بسهولة، وإذا زالت لسبب ما، فإنّها سرعان ما ترجع مرّة أُخرى، وهذه مورد بحوثنا، وتسمّى

---

(١) **إحياء علوم الدين**، الغزالي: ج٣ ص٥٣.

بالملكات الاختيارية، كالعدالة والشجاعة. فالعادل قد يرتكب ما ينافي العدالة، ولكنّه سرعان ما يندم على فعلته ويعود إلى عدالته، ولعلّ هذه الآية المباركة تشير إلى هذا المعنى؛ قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾(١).

ثمّ اشترط السهولة واليسر في صدور الأفعال عن هذه الهيئات، فلو صدرت من فاعلها بصعوبة وتردّد، لما عدّت له تلك الصفة ملكة وخُلقاً، فمن يتردّد مرّات عديدة قبل أن يتصدّق على فقير لا يعدّ سخيّاً، ومن يقدّم رجلاً ويؤخّر أُخرى في ساحة الحرب لا يعدّ شجاعاً، بل السخي من يبذل بسهولة ويسر ويتصدّق من غير رويّة، والشجاع من يتقدّم في ساحات الحرب كالبرق الخاطف لا يرهبه شيء.

ثمّ إنّه بمقدار رسوخ هذه الملكات في وجود الإنسان في هذه النشأة، يتحدّد حال الإنسان عند المرور على الصراط في النشأة الأُخرى. قال الإمام الصادق عليه السلام: «**الناس يمرّون على الصراط طبقات، والصراط أدقّ من الشعر وأحدّ من السيف، فمنهم من يمرّ مثل البرق، ومنهم من يمرّ مثل عدْو الفرس، ومنهم من يمرّ حَبْواً، ومنهم من يمرّ مشياً، ومنهم من يمرّ متعلّقاً، قد تأخذ النار منه شيئاً وتترك شيئاً**»(٢).

(١) الأعراف: ٢٠٠ ـ ٢٠١.

(٢) **أمالي الصدوق**: ص٢٤٧، تحقيق مؤسّسة البعثة – قم.

وقد تطلق «الأخلاق» ويراد بها «خصوص الملكات الفاضلة، كما أنّها قد تعمّم تارةً إلى نفس الأفعال القيمية، وأُخرى إلى الحالات الشوقية وغيرها من مبادئ الأفعال القيمية وإن لم تبلغ حدّ الملكة»[(١)]. والمبحوث عنها في المقام هي الملكات في بعديها الإيجابي والسلبي.

نعم يبقى هناك بحث آخر، وهو: هل يشترط أن تكون هذه الهيئات النفسانية الراسخة حاصلة باختيار الإنسان من خلال الممارسة والرياضة ونحوهما، أو لا يشترط ذلك بل تشمل حتّى تلك الصفات والملكات غير الاختيارية أيضاً.

ما ذكر في تعريف مسكويه والغزالي وجملة من الأعلام، عامٍ يشمل كلا النحوين من الهيئات؛ قال مسكويه: «منها: ما يكون طبيعياً من أصل المزاج، كالإنسان الذي يحرّكه أدنى شيء نحو غضب ويهيج من أقلّ سبب، وكالإنسان الذي يجبن من أيسر شيء كالذي يفزع من أدنى صوت يطرق سمعه أو يرتاع من خبر يسمعه، وكالذي يضحك ضحكاً مفرطاً من أدنى شيء يعجبه، وكالذي يغتمّ ويحزن من أيسر شيء يناله. ومنها، ما يكون مستفاداً بالعادة والتدريب، وربما كان مبدؤه الفكر، ثمّ يستمرّ عليه أوّلاً فأوّلاً، حتّى يصير ملكة وخلقاً»[(٢)].

وهذا ما سنقف عليه عند التعرّض لمسألة إمكان إزالة الأخلاق وعدمه.

---

(١) **تعليقة على نهاية الحكمة**، محمّد مصباح اليزدي: ص١٧٢، التعليقة: ١٨٤.

(٢) **تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق**، مصدر سابق: ص ٥١.

موقع علم الأخلاق في منظومة المعارف

قبل الدخول في تعريف «علم الأخلاق» لا بأس بالإشارة إلى موقع هذا العلم في منظومة المعارف الإنسانية.

قسّم فلاسفة المسلمين الحكمة بالمعنى الاصطلاحي إلى الحكمة بالمعنى الأعمّ والحكمة بالمعنى الأخصّ، وكانت الحكمة بالمعنى الأعمّ، لا تختصّ بعلم أو فنّ خاصّ، بل تشمل جميع العلوم النظرية والعملية معاً، كالطبيعيات والرياضيات والإلهيات بما فيها مباحث المبدأ والمعاد، وكذلك علم السياسة والأخلاق وغيرهما. وهذا المعنى من الحكمة يرادف الفلسفة بالمعنى الأعمّ، فإنّها كانت شاملة لجميع العلوم النظرية والعملية معاً. قال ابن سينا في الشفاء: «إنّ العلوم الفلسفية تنقسم إلى النظرية والعملية، والنظرية تنقسم إلى الطبيعة والتعليمية والإلهية، والعملية إلى الخُلقية والسياسية»[(١)] ويعود جذور ذلك إلى اليونانيين، حيث كانت الفلسفة تطلق عندهم ويقصد منها معنىً عام يشمل كلّ العلوم النظرية والعملية.

ثمّ ذكروا في وجه تقسيم الحكمة إلى النظرية والعملية، أنّ المعلوم إذا كان خارجاً عن حيطة قدرتنا واختيارنا فهو الحكمة النظرية، وإذا كان من أفعالنا وفي حيطة قدرتنا فهو العملية، بعبارة أُخرى: إنّ المعارف المرتبطة بالحكمة النظرية لا تتضمّن «ينبغي أن

(١) **الشفاء**، الإلهيات، ابن سينا: ص٣، ٤، ٦ الفصل الأوّل من المقالة الأولى، منشورات مكتبة آية الله المرعشي النجفي، قم المقدّسة: ١٤٠٤.

نفعل ولا ينبغي أن نفعل» بخلاف المعلومات المتعلّقة بالحكمة العملية، فإنّها تتضمّن ذلك. قال السهروردي: «لمّا كان الأمر منها ما لا يتعلّق بأعمالنا كالسماء والأرض، ومنها ما يتعلّق بها، سمّي العلم المتعلّق بالأوّل الحكمة النظرية وبالثاني الحكمة العملية»(١).

ولا يخفى أنّ مدركات الحكمة النظرية والعملة تدخلان معاً تحت القوّة النظرية في النفس الإنسانية، لأنّ في النفس قوّة تدرك من خلالها الحقائق والمعارف النظرية والعملية، وقوّة يحصل من خلالها تدبير البدن. وقد اصطلح جملة من المحقّقين على تسمية القوّة النظرية بالعقل النظري، والقوّة العملية بالعقل العملي. قال بهمنيار في التحصيل: «اعلم أنّ النفس الإنسانية تقوى على إدراك المعقولات، وعلى التصرّف في القوى البدنية، فبإحداهما تقبل النفس على مفيد الصورة المعقولة وتسمّى عقلاً نظرياً، وبالأُخرى تقبل على البدن وتتصرّف في قواها وتسمّى عقلاً عملياً، لأنّ بها تعمل النفس وليس من شأنها أن تدرك شيئاً، بل هي عمّالة فقط»(٢).

وتأسيساً على ذلك فلا ينبغي الخلط، كما وقع في بعض كلمات

---

(١) **التلويحات**، السهروردي: ص٢، نقلاً عن كتاب رحيق مختوم، شرح حكمة متعالية، القسم الأوّل من الجزء الأوّل: حكيم متألّه: حضرت آية الله جوادي آملي: ج١ ص١٤٢ (بالفارسية).

(٢) **التحصيل**، بهمنيار بن المرزبان، تصحيح وتعليق: مرتضى مطهري: ص٧٨٩ منشورات كلية الإلهيات والمعارف الإسلامية، العدد ٢٩.

الأعلام، بين العقل النظري والعقل العملي من جهة، وبين الحكمة النظرية والحكمة العملية من جهة أُخرى، لأنّ الحكمة النظرية والعملية معاً ترتبطان بالعقل النظري في الإنسان، أجل تختلف مدركات الحكمة النظرية عن العملية، في أنّ الأخيرة تستلزم جرياً عملياً بخلاف الأُولى فإنّها ليست كذلك.

ثمّ ذكروا أنّ الحكمة النظرية تنقسم انقساماً أوّلياً إلى الطبيعيات والرياضيات والإلهيات، والحكمة العملية أيضاً لها أقسام، هي تهذيب الأخلاق وسياسة المدن وتدبير المنزل.

أمّا وجه تقسيم الحكمة النظرية إلى الأقسام الثلاثة، فبحثه موكول إلى الدراسات الفلسفية[1]، وأمّا تقسيم الحكمة العملية، فوجه الضبط فيها أنّ الحكمة العملية الباحثة عن الموجودات التي وجودها باختيارنا وفعلنا هي ثلاثة؛ لأنّها إمّا أن تتعلّق بتعليم الآراء التي تنتظم باستعمالها المشاركة الإنسانية العامّة وتعرف بتدبير المدينة وتسمّى علم السياسة، وإمّا أن تتعلّق بما تنتظم بها المشاركة الإنسانية الخاصّة وتسمّى تدبير المنزل، وإمّا أن تتعلّق بما ينتظم به حال الشخص الواحد في تزكية نفسه وتصفية ذهنه، ليستعدّ بذلك لقبول العلوم النظرية التي بها تحصل السعادة العظمى والسيادة الكبرى، وخلافة الله في الأرض والسماء، وتسمّى علم الأخلاق.

(١) **دروس في الحكمة المتعالية**، شرح كتاب بداية الحكمة: ج١ ص١٢٢، السيّد كمال الحيدري، دار الصادقين.

تعريف علم الأخلاق

بعد أن اتّضح موقع علم الأخلاق، وأنّه أحد أقسام الحكمة العملية، نأتي لتعريف هذا العلم، كما جاء في كلمات جملة من الأعلام.

قال الطباطبائي: «علم الأخلاق: هو الفنّ الباحث عن الملكات الإنسانية المتعلّقة بقواه النباتية والحيوانية والإنسانية، ليميّز الفضائل منها عن الرذائل، ليستكمل الإنسان ـ بالتحلّي والاتّصاف بها ـ سعادته العلمية، فيصدر عنه من الأفعال ما يجلب الحمد العام والثناء الجميل من المجتمع الإنساني»[1].

وأراد (قدّس سره) بلفظ «الفنّ» الوارد في التعريف: «العلم»، كما أنّ لفظ الملكات تعبير آخر عن الهيئات الراسخة في الإنسان، فالراسخ من الملكات فيه يسمّى «ملكة» وغير الراسخ هو «الحال».

كما أشار إلى أنّ ملكات الإنسان الأساسية تتعلّق بقوى ثلاث موجودة فيه، هي النباتية والحيوانية والإنسانية، وأنّ مهمّة علم الأخلاق، هي التمييز بين الصالح والطالح من هذه الملكات، ليستكمل الإنسان بالصالح منها سعادته العلمية والعملية.

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ج١ ص٣٧٠.

قوى النفس الظاهرة والباطنة

إنّ التعرّف على قوى الإنسان أمر مهمّ من أجل الوقوف على تعريف علم الأخلاق بصورة دقيقة. قال الشيخ في الشفاء: «القوى النفسانية منقسمة بالقسمة الأوّلية إلى ثلاثة أجناس:

أحدها: النفس النباتية، وهي كمال أوّل لجسم طبيعي آلي من جهة ما يتولّد ويربو ويولد.

وثانيها: النفس الحيوانية، وهي كمال أوّل لجسم طبيعي آلي من جهة ما يدرك الجزئيات ويتحرّك بالإرادة.

وثالثها: النفس الإنسانية، وهي كمال أوّل لجسم طبيعي آلي من جهة ما يدرك الأُمور الكلّية، ويفعل الأفاعيل الكائنة بالاختبار الفكري والاستنباط بالرأي، ولكلّ درجات متفاوتة في الكمالية والنقص.

وللنفس النباتية قوى ثلاث:

- **القوّة الغاذية** وهي التي تحيل جسماً إلى مشاكلة الجسم الذي هي فيه، وتلصقه وتشبّهه به بدل ما يتحلّل عنه.

- **القوّة المنمّية** وهي قوّة تزيد في الجسم الذي هي فيه بالجسم المشبّه به زيادة متناسبة في أقطاره طولاً وعرضاً وعمقاً، ليبلغ به كماله في النشوء.

- **القوّة المولّدة** وهي التي تأخذ من الجسم الذي هي فيه مادّة شبيهة به بالقوّة، فتفعل فيها باستمداد أجسام أُخرى يتشبّه بها من التخليق والتمزيج ما يصيّره به شبيهاً بالفعل.

وللنفس الحيوانية بالقسمة الأوّلية قوّتان: **محرّكة**، و**مدركة**، والمحرّكة على قسمين، إمّا محرّكة بأنّها باعثة على الحركة، وإمّا محرّكة بأنّها فاعلة.

والمحرّكة على أنّها باعثة، هي القوّة النزوعية الشوقية، وهي القوّة التي إذا ارتسمت في التخيّل ـ الذي سنذكره بعد ـ صورة مطلوبة أو مهروبة عنها، بعثت القوّة المحرّكة الأُخرى ـ التي نذكرها ـ على التحريك ولها شعبتان:

- شعبة تسمّى، قوّة **شهوانية**، وهي قوّة تبعث على تحريك تقرب به من الأشياء المتخيّلة، ضرورية أو نافعة طلباً للذّة.

- وشعبة تسمّى **غضبية**، وهي قوّة تبعث على تحريك تدفع به الشيء المتخيّل، ضارّاً أو مفسداً طلباً للغلبة.

وأمّا **القوّة المحرّكة على أنّها فاعلة**، فهي قوّة تنبعث في الأعصاب والعضلات من شأنها أن تشنّج العضلات، فتجذب الآثار والرباطات المتّصلة بالأعضاء إلى نحو جهة المبدأ، أو تمدّها طولاً، فتصير الأوتار والرباطات إلى خلاف جهة المبدأ.

وأمّا القوى المدركة، فتنقسم إلى قسمين:

منها: قوّة تدرك من خارج. ومنها: قوّة تدرك من داخل.

فالمدركة من خارج هي الحواس الخمس المشهورة، اللمس والذوق والشمّ والسمع والبصر»[1].

(١) **الشفاء**، الطبيعيات، النفس: ص٣٢، الفصل الخامس من المقالة الأولى.

وأمّا القوى المدركة من باطن فهي «إمّا أن تكون مدركة للجزئيات أو للكلّيات، والمدركة للجزئيات، إمّا أن تكون من الحواس الظاهرة وقد عرفتها، وإمّا أن تكون من الحواس الباطنة. ثمّ إنّ الحسّ الباطني، إمّا أن يكون مدركاً فقط، أو مدركاً ومتصرّفاً، فإن كان مدركاً فقط، فإمّا أن يكون مدركاً للصور الجزئية أو للمعاني الجزئية، وأعني بالصورة الجزئية، مثل الخيال الحاصل عن زيد وعمرو، وأعني بالمعاني الجزئية، مثل أنّ هذا الشخص صديق وذلك الآخر عدو، فالمدرك للصور الجزئية يسمّى حسّاً مشتركاً، وهو الذي يجتمع فيه صور المحسوسات الظاهرة كلّها، والمدرك للمعاني الجزئية يسمّى وهماً. ثمّ لكلّ واحدة من هاتين القوّتين خزانة، فخزانة الحسّ المشترك هو الخيال، وخزانة الواهمة هي الحافظة، فهذه قوى أربع. وأمّا القوّة المتصرّفة، فهي التي من شأنها أن تتصرّف في المدركات المخزونة في الخزانتين (الخيال، الحافظة) بالتركيب والتحليل، فتركّب إنساناً بصورة طير، وجبلاً من زمرّد، وبحراً من زئبق.

وهذه القوّة إن استعملتها القوّة الوهمية الحيوانية تسمّى متخيّلة، وإن استعملتها القوّة الناطقة تسمّى باسم المفكّرة»(١).

والحاصل أنّ القوى الباطنة هي:

١ - الحسّ المشترك

«أو ما يسمّى لوح النفس ولوح النقش أيضاً، ويقال له في اليونانية

(١) **الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة**: ج٨ ص٥٦، بتصرّف.

بنطاسيا بتقديم الباء على النون، و *فنطاسيا* بالفاء أيضاً، ويطلق عليه *الخيال* أيضاً بالاشتراك اللفظي، وهو مظهر الاسم الشريف الإلهي (من لا يشغله شأن عن شأن) فلا يشغله ما يدركه بعض الحواس، عمّا يدركه بعضها الآخر في آن، فافهم.

وتسمّى هذه القوّة بالحسّ المشترك؛ لوجهين:

أحدهما: أنّه (أي الحسّ المشترك) مصبّ مدركات الحواس الظاهرة كلّها، وهي كالجداول المتّصلة به، تؤدّي إليه ما اقتنصته.

وثانيهما: أنّه كمرآة ذات وجهين، ينتقش فيه ما يصطاده الإنسان من الشهادة والغيب، فوجه منه متوجّه إلى هذه النشأة ويرتسم فيه صور المحسوسات، ووجهه الآخر متوجّه إلى النشأة الأُخرى، ويتصوّر فيه ما صوّرته المتخيّلة، لانّ قوّة الخيال جُبلت على المحاكاة وتصوير المعاني بصور مناسبة لها، فتلك الصور ترتسم في الحسّ المشترك»[1].

٢ ـ الخيال

قلنا إنّ هذه القوّة هي خزانة الصور التي يكسبها الحسّ المشترك من خلال الحواس الظاهرة، وتحفظ فيه. ولكي نقف على دور هذه القوّة لابدّ من الإشارة إلى «أنّ الإدراكات الإنسانية عن الواقع الخارجي لها مراتب ثلاث، وهي الحسّ والخيال والتعقّل:

---

(١) **عيون مسائل النفس وسرح العيون في شرح العيون**، آية الله حسن زاده آملي: ص٤٤١، العين: ٣٠، الطبعة الأولى.

أمّا مرتبة الحسّ، فهي عبارة عن انعكاس صور الأشياء في الـذهن عند الاتّصال المباشر بالخارج من خلال إحدى الحواس الخمس.

أمّا مرتبة الخيال فهي المرتبـة التـي تبـدأ مـن حيـث ينتهـي الإدراك الحسّي لأنّ هذا الإدراك يخلّف أثراً في النفس، أو بتعبير القـدماء: إنـه بعد ظهور الصورة الحسّية في الباصرة ـ مثلاً ـ تظهر صورة أُخرى في قوّة أُخرى من قوى النفس تسمّى بالخيال، وبعد أن تنمحـي الصـورة الحسّية، فإنّ الصورة الخيالية تبقى على حالهـا، ويسـتطيع الإنسـان أن يستحضرها في أي وقت يشـاء، وبهـذا الطريـق يسـتطيع أن يتصـوّر الشيء الخارجي.

ثمّ إنّ الصورة الخيالية تشبه الصورة المحسوسة ولكن مع فوارق.

الأوّل: إنّ الصورة الخيالية ـ في الغالب ـ ليس لها وضوح الصـورة الحسّية.

الثاني: إنّ الصورة الحسّية عندما يـدركها الإنسـان، تكـون بوضـع خاصّ، أي لها نسبة خاصّة إلى الأجزاء المجاورة لها، وفي جهة معيّنة، أي إلى اليسار أو اليمين أو الأمام أو الخلف، وفي مكان محدّد، فمثلاً إذا شاهد الإنسان شيئاً، فهو يشـاهده فـي مكـان معـيّن وجهـة معيّنـة وملابسات محدّدة. أمّا إذا أراد الإنسان أن يتخيّل ذلك الشيء الذي رآه مراراً، وبأوضاع وجهات مختلفـة وأمـاكن متعـدّدة، فهـو يسـتطيع أن يجسّمه أمام خياله دون أن يلتفت إلى وضعه وجهته ومكانه.

الثالث: أهمّ شرط في الإدراكـات الحسّـية، هـو اتّصـال الحـواس

بالخارج، وبمجرّد زوال ذلك، فإنّ الإدراك الحسّي يزول معه أيضاً، أمّا الإدراكات الخيالية للذهن فهي ليست بحاجة إلى الاتّصال بالخارج مباشرة، ولهذا تكون الإدراكات الحسّية خارجة عن اختيار الشخص المدرك، بمعنى أنّه لا يستطيع أن يحصل على علم حسّي ما لم يرتبط بالمادّة الخارجية، ومن هنا فلا يستطيع عادة أن ينظر إلى وجه إنسان غير حاضر أو يسمع صوته ولكنّه يستطيع أن يتخيّل هذه جميعاً ويتصوّرها في أي وقت يشاء مع عدم وجود مادّتها الخارجية»[(١)].

وقد يطلق على هذه القوّة: **المصوّرة** أيضاً؛ قال الشيخ في «الشفاء»: «إنّ القوّة المصوّرة التي هي الخيال، هي آخر ما يستقرّ فيه صور المحسوسات وإن وجهها إلى المحسوسات هو الحسّ المشترك، وإنّ الحسّ المشترك يؤدّي إلى القوّة المصوّرة على سبيل استخزان ما تؤول به إليه الحواس فتخزنه، وقد تخزن القوّة المصوّرة أيضاً أشياء ليست من المأخوذات عن الحسّ»[(٢)] كما تقدّم. وعلى هذا «فالخيال والمصوّرة هما اسمان لخزانة الحسّ المشترك، إلاّ أنّ الخيال على اصطلاح الحكماء، والمصوّرة على اصطلاح الأطباء»[(٣)].

وقد تطلق المصوّرة ويراد بها «الطابعة»؛ قال الشيخ في «كلّيات القانون»: «وأمّا المصوّرة الطابعة، فهي التي يصدر عنها ـ بإذن خالقها

---

(١) **دروس في الحكمة المتعالية**، تأليف: السيّد كمال الحيدري: ج١ ص٤٠٣.
(٢) **الشفاء**، النفس، ص١٥١، الفصل الثاني من المرحلة الرابعة.
(٣) **عيون مسائل النفس**: ص٤٧١، العين: ٣٢.

تبارك وتعالى ـ تخطيط الأعضاء وتشكيلاتها وتجويفاتها وثقبها وملاستها وخشونتها وأوضاعها ومشاركتها، وبالجملة الأفعال المتعلّقة بنهايات مقاديرها»[١]. والمصوّرة هذه من شعب المولّدة، كما ذكر الأعلام.

ولا يتنافى ذلك مع قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾[٣] لأنّ القوّة المصوّرة بهذا المعنى إنّما هي آلة أو واسطة في هذا الفعل، لوجود موجود من وراء الطبيعة هو المتفرّد بالجبروت، لا أنّ تلك القوّة مستقلّة في هذه الأفعال العجيبة.

ونظائر ذلك في نسبة إيجاد الفعل إلى الله تعالى، وإسناده إلى الوسائط كثير جدّاً. فبعد أن حصر القرآن فعل الإحياء والإماتة بالله، وصرّح بأنّ الله وحده هو المميت والمحيي، فقال تعالى: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾[٤]، وقال أيضاً: ﴿وَاللهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[٥]، عاد يسند الإحياء إلى

(١) **القانون**: ص١٤١، نقلاً عن **عيون مسائل النفس**: ص٤٧١، العين: ٣٢.
(٢) آل عمران: ٦.
(٣) الحشر: ٢٤.
(٤) الزمر: ٤٣.
(٥) آل عمران: ١٥٦.

غيره، كما في قوله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَى النَّاسَ جَمِيعاً﴾[(١)]، أو قوله سبحانه على لسان عيسى عليه السلام: ﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ﴾[(٢)]. كذلك في الإماتة، كما في قوله سبحانه: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾[(٣)] وقوله: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾[(٤)].

على مستوى آخر، بعد أن أثبت القرآن أنّ الله هو الغني الحميد، وأنّه لا غنيّ سواه ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[(٥)] عاد يسند الغنى والإغناء إلى رسوله محمّد صلى الله عليه وآله أيضاً، كما في قوله تعالى: ﴿إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمْ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾[(٦)]. وكذلك تكرّر الأمر بحذافيره في العزّة والقوّة، فبعد أن نصّ القرآن في موضوع العزّة بقوله: ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ للهِ جَمِيعاً﴾[(٧)] عاد يقول: ﴿وَللهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[(٨)]. وبعد أن حصر القوّة بالله تعالى وحده ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ للهِ جَمِيعاً﴾[(٩)] عاد يسجّل ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ

---

(١) المائدة: ٣٢.
(٢) آل عمران: ٤٩.
(٣) السجدة: ١١.
(٤) الأنعام: ٦١.
(٥) فاطر: ١٥.
(٦) التوبة: ٧٤.
(٧) النساء: ٤١.
(٨) المنافقون: ٨.
(٩) البقرة: ١٦٥.

بِقُوَّةٍ﴾(١) وقوله: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾(٢) وهكذا تكرّر الأمر على مستوى الخلق والولاية والحكم والطاعة وغيرها.

٣ ـ الوهم

اتّفقت كلمة الفلاسفة وعلماء النفس المحدثين على أنّ الإدراكات البشرية يمكن تصنيفها إلى عدّة درجات: الإدراكات الحسّية، والإدراكات الخيالية، والإدراكات العقلية.

أمّا الإدراك الوهمي الذي تقدّم أنّه القوّة التي تدرك المعاني الجزئية، فهل هو درجة أُخرى من الإدراك تختلف عن غيرها، أو أنّها ترجع إلى غيرها؟ وقع فيه بحث وتأمّل عند جملة من الفلاسفة كالشيرازي وأتباعه «حيث ذهبوا إلى أنّ القوّة الواهمة، مرتبة نازلة للعقل، وأنه لا يوجد فرق ذاتي بين الإدراك الوهمي والإدراك العقلي، وإنّما الفارق بينهما هو بأمر خارج، وهو الإضافة إلى الجزئي وعدمها»(٣).

وتوضيح ذلك يستلزم بيان المراد من التعقّل إجمالاً.

لو أخذنا بعين الاعتبار عدّة صور خيالية لعدّة أشياء محسوسة،

---

(١) مريم: ١٢.

(٢) النمل: ٣٩.

(٣) **عيون مسائل النفس**: ص٤٦٣، العين: ٣١.

تشترك مع بعضها في جهات من الاشتراك، واقتنصنا منها وجهاً مشتركاً بين جميع هذه الأفراد، وصغنا منها مفهوماً كلّياً يشمل جميعها، فهذا المفهوم الذي يصدق على الأفراد الكثيرة وحتّى غير المتناهية يُدعى بـ «المعقول». وهذا معناه أنّ المعقول هو ذلك المفهوم الكلّي الذي يقبل الصدق على كثيرين. والفارق الأساسي بين هذه المرتبة والمرتبتين السابقتين، أنّ العلم فيهما جزئي لا يمكن أن ينطبق على أكثر من فرد واحد، بخلاف هذه المرتبة فإنّ العلم فيها كلّي، فيه قابلية الانطباق على كثيرين.

إذا اتّضح ذلك نقول: «إنّ الوهم وإن كان غير القوى التي ذكرت، إلاّ أنّه ليس له ذات مغايرة للعقل، بل هو عبارة عن إضافة الذات العقلية إلى شخص جزئي، وتعلّقها به وتدبيرها له. فالقوّة العقلية المتعلّقة بالخيال هو الوهم، كما أنّ مدركاته هي المعاني الكلّية المضافة إلى صور الشخصيات الخيالية، وليس للوهم في الوجود ذات أُخرى غير العقل، كما أنّ الكلّي الطبيعي والماهية من حيث هي لا حقيقة لها غير الوجود الخارجي أو العقلي»(١).

فتحصّل «أنّ وجود الوهم كوجود مدركاته أمر غير مستقلّ الذات والهوية، ونسبة مدركاته إلى مدركات العقل، كنسبة الحصّة من النوع إلى الطبيعة الكلّية النوعية، فإنّ الحصّة طبيعة مقيّدة بقيد شخصي، على أن يكون القيد خارجاً عنها، والإضافة إليه داخلاً فيها على أنّها إضافة،

(١) **الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة**: ج٨ ص٢١٥.

لا على أنّها مضاف إليه، وعلى أنّها نسبة وتقييد، لا على أنّها ضميمة وقيد.

فالعداوة المطلقة يدركها العقل الخالص، والعداوة المنسوبة إلى الصورة الشخصية، يدركها العقل المتعلّق بالخيال، والعداوة المنضمّة إلى الصورة الشخصية يدركها العقل المشوب بالخيال. فالعقل الخالص مجرّد عن الكونين (الخارجي والذهني) ذاتاً وفعلاً، والوهم مجرّد عن هذا العالم ذاتاً وتعلّقاً، وعن الصورة الخيالية ذاتاً لا تعلّقاً، والخيال مجرّد عن هذا العالم ذاتاً لا تعلّقاً»[1].

٤ ـ الحافظة

قال الشيرازي في الأسفار: «وأمّا القوّة الحافظة، فهي خزانة عندهم للوهم، اختزنت فيها صور مدركاته، كما أنّ الخيال خزانة للحسّ المشترك، وقد تسمّى أيضاً ذاكرة ومسترجعة، لكونها قويّة على استعادتها، وهذه الاستعادة تارةً تكون من الصورة إلى المعنى، وذلك إذا أقبل الوهم مستعيناً بالمتخيّلة، ليستعرض الصور الموجودة في الخيال، إلى أن عرضت له الصور التي أدرك معها ذلك المعنى، وحينئذ يلوح ذلك المعنى المحفوظ في الخزانة. وتارةً يكون المصير من المعنى إلى الصورة، إمّا باستعراض المعاني التي في الحافظة، إلى أن عرض له المعنى الذي أدرك معه الصورة التي تطلب، وإن تعذّرت من

(١) **عيون مسائل النفس**: ص٤٦٤، العين: ٣١.

هذه الجهة لانمحاء الصورة عن الخيال بالنسيان أو لمانع آخر، فيحتاج إلى إحساس جديد، فحينئذ يورد الحس الظاهر تلك الصورة، وتصير مستقرّة في الخيال، فيعود بسببه المعنى المستقرّ في الحافظة»[1].

٥ ـ المتصرّفة

قلنا إنّ الحافظة هي خزانة المعاني الجزئية، والخيال هو خزانة الصور الجزئية، والمتصرّفة «جالسة بينهما ومتصرّفة فيهما بالتركيب والتفصيل في الصور والمعاني، وكلّ ما يصدر من الإنسان من الحرف والصنائع والآثار القلمية وغيرها، فهي أوّلاً تعمل وتصطنع في المتصرّفة، ثمّ على وزان ما صنع فيها تصدر في الخارج، وكلّما كان المزاج أعدل، كان منشآته أعدل، فاعمل بصيرتك في ما قال ـ عزّ من قائل ـ: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾[2] فترى إنساناً ينشئ مطلباً علمياً بعبارات طويلة وأمثلة كثيرة، لكنّه لا يؤدّي آخر الأمر مراده حقّ التأدية، وآخر ينشئ ذلك المطلب بعينه بعبارة وجيزة، كأنّه يريك صحيفة نفسه، وليس ذلك التفاوت إلاّ بتفاوت مزاج المتصرّفة.

٦ ـ المتخيّلة والمفكّرة

قلنا إنّ المتصرّفة إن كانت تحت آمرية الواهمة تسمّى متخيّلة، وإن كانت تحت آمرية العاقلة تسمّى مفكّرة. وعلى هذا فالمفكّرة هي

(١) **الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة**: ج٨ ص٢١٨.
(٢) الإسراء: ٨٧.

المتخيّلة لكن باعتبار استعمال الناطقة إيّاها في ترتيب الفكر ومقدّماته. والمتخيّلة هي المفكّرة لكن باعتبار استعمال الوهم لها.

وبذلك يتّضح ما ذكره جملة من المحقّقين، من أنّ «رئيس القوى الحيوانية كلّها هو الوهم، ومعناه أنّ سائر القوى من شؤونه، كما أنّ رئيس القوى الإنسانية كلّها هو العقل، أي أنّ سائر القوى من شؤونه»(١)، لأنّ أقصى ما يدركه الحيوان هو المعاني الجزئية، بخلاف الإنسان فإنّه يدرك المعاني الكلّية أيضاً.

والحاصل أنّه يمكن ضبط هذه القوى بهذا النحو، كما بيّنه الطوسي في شرحه على الإشارات؛ قال: «إنّ القوى الحيوانية تنقسم إلى ظاهرة وباطنة، وهذه القوى (الباطنة) تنقسم إلى مدركة وإلى معينة على الإدراك، والمدركة مدركة إمّا لما يمكن أن يدرك بالحواس الظاهرة وهو ما يسمّى صوراً، وإمّا لما لا يمكن وهو ما يسمّى معاني. والمعينة تعين إمّا بحفظ المدركات من غير تصرّف، ليتمكّن المدركة من المعاودة إلى إدراكها، وإمّا بالتصرّف فيها، والمعينة بالحفظ، معينة إمّا لمدركة الصور، وإمّا لمدركة المعاني، فهذه خمس قوى:

- الأُولى: مدركة الصور، وتسمّى حسّاً مشتركاً، لأنّها تدرك خيالات المحسوسات الظاهرة بالتأدية إليها.
- الثانية: معينتها بالحفظ، وتسمّى خيالاً ومصوّرة.

---

(١) **عيون مسائل النفس**: ص٤٤٣، العين: ٣٠.

- الثالثة: المتصرّفة في المدركات وتسمّى متخيّلة ومتفكّرة باعتبارين.
- الرابعة: مدركة المعاني، وتسمّى وهماً ومتوهّمة.
- الخامسة: معينتها بالحفظ، وتسمّى حافظة وذاكرة.

وإنّما سمّي الجميع مدركة وإن كانت المدركة منها اثنتين فقط، لأنّ الإدراكات الباطنة لا تتمّ إلاّ بجميعها»(١).

أبواب الجنّة والجحيم

ذكر جملة من الأعلام نكتة لطيفة في المقام مؤدّاها أنّ كلّ واحدة من الحواس الخمس الظاهرة والحاسّتين الباطنتين أي الخيال والوهم، إذا استعملها العقل في الطاعات واقتناء الخيرات، واصطياد الحقائق النورية، صارت أبواب الجنان، فهي مع العاقلة ثمانية أبواب للجنّة، والمرويّ عن الإمام محمّد الباقر عليه السلام: «**أحسنوا الظنّ بالله، واعلموا أنّ للجنّة ثمانية أبواب، عرض كلّ باب منها مسير أربعمائة سنة**»(٢). وإن لم تكن تحت إطاعة العاقلة، فهي تصير سبعة أبواب

---

(١) **الإشارات والتنبيهات**، للشيخ أبي علي حسين بن عبد الله بن سينا: ج٢ ص٣٣١ في علم الطبيعة، مع الشرح للمحقّق نصير الدين محمّد بن محمّد بن الحسن الطوسي، وشرح الشرح للعلاّمة قطب الدين محمّد بن محمّد بن أبي جعفر الرازي.

(٢) **الخصال** للشيخ الجليل الأقدم الصدوق، المتوفّى: سنة ٣٨١: ج٢ ص٤٠٨، باب الثمانية، الحديث السابع، صحّحه وعلّق عليه: علي أكبر الغفاري، مؤسّسة النشر الإسلامي.

لجهنّم؛ لقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾[1].

قال الشيرازي في الأسفار: «إنّه وقع الاختلاف في تعيين هذه الأبواب، فقيل هي المدارك السبعة للإنسان، وهي الحواس الخمس والحاسّتان الباطنتان أعني الخيال والوهم، وهذه الأبواب كما أنّها أبواب دخول النيران، كذلك هي أبواب دخول الجنان إذا استعملها الإنسان في الطاعات ولاقتناء الخيرات... وبالجملة استعملها فيما خلقت لأجله، وللجنّة باب ثامن مختصّ بها هو باب القلب.

وذلك أنّ كلاً من المشاعر السبعة باب إلى الشهوات الدنياوية التي ستصير نيرانات محرقة وهيئات معذّبة للنفوس في الآخرة، وهي أيضاً إذا استعملت في طريق الخير أبواب إلى إدراك الحقائق وفعل الحسنات التي بها يثاب في العاقبة ويصعد إلى الملكوت ويدخل في الجنّة مع زمرة الملائكة.

وبالجملة لكلّ من هذه المشاعر والمدارك باطن وظاهر، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قِبله العذاب، فظواهرها أبواب مفتوحة إلى عالم الجحيم أو إلى ما به استحقاقية الدخول إلى الجحيم، وبواطنها أبواب مفتوحة إلى عالم الجنان أو إلى ما به استحقاقية دخولها. وإذا غلقت أبواب النيران، فتحت أبواب الجنان، بل هي على شكل الباب الذي إذا فتح على موضع انسدّ عن موضع آخر، فعين غلق أبواب إحداهما

(١) الحجر: ٤٤ ـ ٤٥.

عين فتح أبواب الأُخرى، إلاّ باب القلب وهو الباب الثامن، فإنّه مغلق دائماً على أهل الحجاب الكلّي والكفر»[١].

قوى النفس الإنسانية

عود على بدء، حيث قلنا إنّ القوى النفسانية تنقسم إلى النفس النباتية، والحيوانية والإنسانية، وتقدّم الكلام عن قوى القسمين الأوّلين، وبقي الحديث في القسم الثالث، فنقول:

تنقسم قوى النفس الإنسانية إلى عاملة وعالمة. أمّا العالمة فهي التي تدرك النفس من خلالها الحقائق والمعارف النظرية والعملية، أي ما اصطلحنا عليه بالحكمة النظرية والعملية. وأمّا العاملة، فهي التي يحصل من خلالها تدبير البدن، وتقدّم أنه اصطلح على تسمية القوّة النظرية بالعقل النظري، والقوّة العملية بالعقل العملي؛ قال في الإشارات: «فمن قواها ما لها بحسب حاجتها إلى تدبير البدن، وهي القوّة التي تختصّ باسم العقل العملي، وهي التي تستنبط الواجب فيما يجب أن يفعل من الأُمور النفسانية، جزئية ليتوصّل به إلى أغراض اختيارية من مقدّمات أوّلية وذائعة وتجربية، وباستعانة بالعقل النظري في الرأي الكلّي إلى أن ينتقل به إلى الجزئي»[٢].

ولمّا كان العقل هو الذي يميّز الإنسان عن باقي الحيوانات، إذن

(١) **الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة**: ج٩ ص٣٣٠.

(٢) **الإشارات والتنبيهات**، ابن سينا: ج٢ ص٣٥٢.

قوى النفس الإنسانية تنحصر في معرفة مراتب هذا العقل، وقد ذكرت له تقسيمات عديدة، ولكن ما يرتبط بالمقام هو ما ذكره بعض المحققين حيث قال: «يطلق اسم العقل بالاشتراك على أربعة معان:

الأوّل: الوصف الذي به يفارق الإنسان سائر البهائم، وهو الذي به استعدّ لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الخفية الفكرية، وهو الذي أراده الحارث المحاسبي حيث قال في حدّ العقل: إنّه غريزة يتهيّأ بها إدراك العلوم النظرية وتدبير الصناعات، وكأنّه نور يقذف في القلب، به يستعدّ لإدراك الأشياء... فإنّ الغافل عن العلوم والنائم يسمّيان عاقلين باعتبار وجود هذه الغريزة مع فقد العلوم. وكما أنّ الحياة غريزة بها يتهيّأ الجسم للحركات الاختيارية والإدراكات الحسّية، فكذلك العقل غريزة بها يتهيّأ بعض الحيوانات للعلوم النظرية. ويمكن تشبيه ذلك بالمرآة التي تفارق غيرها من الأجسام في حكاية الصور والألوان، لصفة اختصّت بها وهي الصقالة، وكذلك العين تفارق الجبهة في هيئات وصفات استعدّت بها للرؤية.

الثاني: عبارة عن العلوم التي تخرج إلى الوجود في ذات الطفل المميّز، بجواز الجايزات واستحالة المستحيلات، كالعلم بأنّ الاثنين أكثر من الواحد، وأنّ الشخص الواحد لا يكون في مكانين، وهو الذي عناه بعض المتكلّمين حيث قال في حدّ العقل: إنّه بعض العلوم الضرورية، بجواز الجايزات واستحالة المستحيلات.

الثالث: علوم تستفاد من التجارب بمجاري الأحوال، فإنّ من

حنّكته التجارب وهذّبته المذاهب يقال: إنّه عاقل في العادة، ومن لا يتّصف بذلك يقال: إنّه غبيّ جاهل».

«ومرجعه إلى جودة الروية وسرعة التفطّن في استنباط ما ينبغي أن يؤثر أو يتجنّب، وإن كان في باب الأغراض الدنياوية وهوى النفس الأمّارة بالسوء، فإنّ الناس يسمّون من له هذه الروية المذكورة عاقلاً، أمّا أهل الحقّ فلا يسمّون هذه الحالة عقلاً، بل أسماء أُخر كالدهاء أو الشيطنة وغيرهما»(١).

الرابع: «أن ينتهي قوّة تلك الغريزة إلى أن يعرف عواقب الأُمور، فيقمع الشهوة الداعية إلى اللذّة العاجلة ويقهرها، فإذا حصلت هذه القوّة سمّي صاحبها عاقلاً، بحيث إنّ إقدامه وإحجامه بحسب ما يقتضيه النظر في العواقب، لا بحكم الشهوة العاجلة، وهذه أيضاً من خواص الإنسان التي يتميّز بها عن سائر الحيوانات.

فالأوّل هو الأُسّ والمنبع، والثاني هو الفرع الأقرب إليه، والثالث فرع الأوّل والثاني، إذ بقوّة الغريزة والعلوم الضرورية يستفاد علوم التجارب، والرابع هي الثمرة الأخيرة، وهي الغاية القصوى، فالأوّلان بالطبع، والأخيران بالاكتساب، ولذلك قال الإمام علي عليه السلام:

رأيت العقل عقلين فمطبوع ومسموع

(١) **شرح أصول الكافي**، لمؤلّفه: صدر الدين محمّد بن إبراهيم الشيرازي: ج١ ص٢٢٥، كتاب العقل والجهل، عني بتصحيحه: محمد خواجوي، مؤسّسة مطالعات وتحقيقات فرهنكي - إيران.

ولا ينفع مسموع ... إذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس ... وضوء العين ممنوع»[١]

وهذا المعنى الأخير هو الذي أشارت إليه الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام قال : قلت له: ما العقل؟ قال: **ما عُبد به الرحمن واكتُسب به الجنان.**[٢] قال المجلسي في مرآة العقول: «والمراد من العقل، ملكة وحالة في النفس تدعو إلى اختيار الخيرات والمنافع، واجتناب الشرور والمضارّ، وبها تقوى النفس على زجر الدواعي الشهوانية والغضبية والوساوس الشيطانية»[٣].

النفس وقواها الأربع

والمهمّ من القوى التي وقع الحديث عنها، وترتبط بعلم الأخلاق ارتباطاً وثيقاً هي:

- **القوّة العقلية:** وشأنها إدراك حقائق الأُمور والتمييز بين الخيرات والشرور، والأمر بالأفعال الجميلة، والنهي عن الصفات الذميمة.
- **القوّة الغضبية:** وهي التي يدفع بها الإنسان الأذى عن نفسه بأي

---

(١)**آداب النفس** للعارف الحكيم الكامل السيد محمد العيناتي، حقّقه وصحّحه السيد كاظم الموسوي المياموي، منشورات المكتبة الرضوية، ص٧ في الحاشية..
(٢) **الأصول من الكافي:** ج١ ص١١، كتاب العقل والجهل، الحديث: ٣.
(٣) **مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول**، تأليف: العلاّمة شيخ الإسلام المولى محمّد باقر المجلسي: ج١ ص٢٥.

صورة كانت، مشروعة أو غير مشروعة، بالتي هي أحسن أو بغير ذلك.

● **القوّة الشهوية:** وهي التي يطلب الإنسان بها المنفعة لنفسه، من قبيل طلبه الأكل والشرب والملبس والمنكح، من دون أن تلاحظ هذه القوّة فيما تطلبه من أُمور مسألة الحلال والحرام، أو الطاهر والنجس أو ما ينبغي فعله وما لا ينبغي.

● **القوّة الوهمية:** قلنا إنّ الواهمة والخيال والمتخيّلة ثلاث قوى متباينة، ومباينة للقوى الثلاث الأُول، وشأن الأُولى إدراك المعاني الجزئية كحبّ زيد، وشأن الثانية إدارك الصور كصورة زيد، وشأن الثالثة التركيب والتفصيل بينهما. وكلّ من مدركاتها إما مطابق للواقع أو مخترع من عند نفسها من غير تحقّق له في نفس الأمر، وإمّا من مقتضيات العقل والشريعة، ومن الوسائل إلى المقاصد الصحيحة، أو من دواعي الشيطان وما يقتضيه الغضب والشهوة. وعلى الأوّل يكون وجودها خيراً وكمالاً، وإن كان وجودها على الثاني شرّاً وفساداً.

والنفس إن تابعت القوّة الشهوية سمّيت «بهيمية» وإن تابعت الغضبية سمّيت «سبعية» وإن تابعت العقلية النطقية سمّيت «ملكية إلهية» وإن تابعت الواهمة وصارت بصدد استنباط المكر والحيل للتوصّل إلى الأغراض بالتلبيس والخدع سمّيت «شيطانية».

(والفائدة في وجود هذه القوى: أمّا الشهوية، فلبقاء البدن الذي هو آلة تحصيل كمال النفس؛ لما سيأتي من أنّ النفس محتاجة إلى البدن في إنجاز أفعالها .

وأمّا الغضبية فلكي تكسر سَوْرة الشهوية والشيطانية، وتقهرهما عند انغمارهما في الخدع والشهوات، وإصرارهما عليهما، لأنّهما لتمرّدهما لا تطيعان العاقلة بسهولة، بخلاف الغضبية فإنّهما تطيعانها وتتأدّبان بتأديبها بسهولة.

لذا قال إفلاطون في صفة السبعية والبهيمية: «أمّا هذه أي السبعية فهي بمنزلة الذهب في اللين والانعطاف، وأمّا تلك أي البهيمية فهي بمنزلة الحديد في الكثافة والامتناع».

وقال أيضاً: «ما أصعب أن يصير الخائض في الشهوات فاضلاً، فمن لا تطيعه الوهمية والشهوية في إيثار الوسط، فليستعن بالقوّة الغضبية المهيّجة للغيرة والحمية حتّى يقهرهما».

فلو لم يمتثلا مع الاستعانة، فإن لم تحصل له ندامة بعد ارتكاب مقتضاهما، دلّ على غلبتهما على العاقلة ومقهوريتها عنهما، وحينئذ لا يرجى صلاحه، وإلاّ فالإصلاح ممكن، فليجتهد فيه ولا ييأس من رَوْح الله، فإنّ سبل الخيرات مفتوحة وأبواب الرحمة الإلهية غير مسدودة»، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[1] وأمّا الوهمية فلاستنباط الحيل والدقائق التي يتوصّل بها إلى المقاصد الصحيحة)[2].

---

(١) العنكبوت: ٦٩.

(٢) **جامع السعادات**، للشيخ الجليل المولى محمّد مهدي النراقي، (ت: ١٢٠٩هـ): ج١ ص٦٢، منشورات مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ـ لبنان.

اعتدال القوى النفسانية

إنّ لكلّ قوّة من هذه القوى كمالاً وحدّ اعتدال، وحدّي تفريط وإفراط.

أمّا كمال القوّة العلمية والفكرية فهو «أن تصير بحيث يسهل بها درك الفرق بين الصدق والكذب في الأقوال، وبين الحقّ والباطل في الاعتقادات، وبين الجميل والقبيح في الأفعال، فإذا صلحت هذه القوّة، حصل منها ثمرة الحكمة، والحكمة رأس الأخلاق الحسنة، وهي التي قال فيها تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتيَ خَيْراً﴾(١) والحكمة هي «إصابة الحقّ بالعلم والعقل، فالحكمة من الله تعالى معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام، ومن الإنسان معرفة الموجودات وفعل الخيرات»(٢). وعرّفها بعض الأعلام «بأنّها هي القضايا الحقّة المطابقة للواقع من حيث اشتمالها بنحو على سعادة الإنسان، كالمعارف الحقّة الإلهية في المبدأ والمعاد، والمعارف التي تشرح حقائق العالم الطبيعي، من جهة مساسها بسعادة الإنسان، كالحقائق الفطرية التي هي أساس التشريعات الدينية»(٣).

ويسمّى إفراطها عند الاستعمال في الأغراض الفاسدة خبثاً وجربزة، ويسمّى تفريطها بلهاً.

---

(١) البقرة: ٢٦٩.

(٢) المفردات في غريب القرآن: ص١٧٢.

(٣) الميزان في تفسير القرآن: ج٢ ص٣٩٥.

وكمال القوّة الغضبية فهو أن يصير انقباضها وانبساطها على حدّ ما تقتضيه الحكمه، وكذلك القوّة الشهوية، فحسنها وصلاحها في أن تكون تحت إشارة الحكمة - أعني إشارة العقل والشرع - .

فإن مالت قوّة الغضب عن الاعتدال إلى طرف الزيادة تسمّى تهوّراً، وإن مالت إلى الضعف والنقصان تسمّى جبناً وخوراً، وإن مالت قوّة الشهوة إلى طرف الزيادة تسمّى شرهاً، وإن مالت إلى النقصان تسمّى جموداً.

ولمّا كانت كلّ قوّة من هذه القوى الثلاث، ترغب بأشياء وتطالب بها وتدفع بالإنسان إلى تحصيلها، حتّى لو كانت على خلاف مصلحة القوّتين الأُخريين، فلا حدّ ـ مثلاً ـ للأكل الذي تطالب به القوّة الشهوية، حتّى لو أثّر ذلك على قوّة الإنسان الفكرية، وأدّى إلى خموله وضعف فكره، من هنا يقع التزاحم بين هذه القوى، وتقع المعركة الكبرى في مملكة النفس، وإلى هذا أشار الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله حين خاطب القوم الذين رجعوا من الجهاد بقوله: «**مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر**. قيل: يا رسول الله، وما الجهاد الأكبر؟ قال: **جهاد النفس**»[1]. وما ذلك إلاّ لأنّ المعارك الخارجية ـ الجهاد الأصغر ـ ذات أمد محدود تنتهي به، وتبقى المعركة الداخلية ـ الجهاد الأكبر ـ مصاحبة للإنسان إلى آخر لحظة من لحظات حياته، ما دامت له شهوة وغضب وعقل.

---

(١) **الفروع من الكافي**، الكليني: ج٥ ص١٢، باب وجوب الجهاد، الحديث: ٣.

تأسيساً على ذلك، ينبغي للإنسان أن لا يدع قوّة من هذه القوى الثلاث، تسلك مسلك الإفراط أو التفريط، وتميل عن حاقّ الوسط إلى طرفي الزيادة والنقيصة، فإنّ في ذلك خروجاً عن الهدف الذي خلق الإنسان من أجله. ولا طريق له إلاّ أن يقيم العدالة بين هذه القوى، وأن يعطي كلّ ذي حقّ من القوى حقّه، ويضعه في موضعه الذي ينبغي له، فإذا فعل ذلك تحصل في النفس ملكة رابعة هي «العدالة» باصطلاح علم الأخلاق، وهي غير العدالة المصطلح عليها في علم الفقه، وهذه الملكة أيضاً لها جانب تفريط وهو الظلم وحدّ إفراط هو الانظلام.

والحاصل أنّ العدالة في علم الأخلاق «هي الوسط بين طرفين، والوسط محصور بين الأطراف، والأطراف لا تنحصر عند حدّ» وكلّ فضيلة فهي وسط بين رذيلتين هما طرفا الإفراط والتفريط، والوسط هو الصراط المستقيم. لذا نجد أنّ الله تعالى يقول: إنّ الأنبياء جميعاً على الصراط المستقيم؛ قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقاً﴾[١]، ثمّ قال في سورة الحمد إنّ المنعَم عليهم هو الصراط المستقيم: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾[٢].

فإذا استطاع الإنسان أن يغلّب عقله على شهوته، ويؤمّر العقل على

---

(١) النساء: ٦٩.

(٢) الفاتحة: ٦ ـ ٧.

الشهوة، فهو أفضل من الملائكة، أمّا لو عكس الأمر، وجعل العقل أسيراً للشهوة، والشهوة أميراً للعقل، فهو أضلّ من الأنعام. عن عبد الله بن سنان قال: سألت أبا عبد الله جعفر بن محمّد الصادق عليهما السلام فقلت: الملائكة أفضل أم بنو آدم؟ فقال: قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**إنّ الله ركّب في الملائكة عقلاً بلا شهوة، وركّب في البهائم شهوة بلا عقل، وركّب في بني آدم كليهما، فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة، ومن غلب شهوته عقله فهو شرّ من البهائم**»[١].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[٢]. وقال أيضاً: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾[٣].

فتحصّل أنّ أُمّهات المحاسن الأخلاقية وأُصولها الأساسية هي: الحكمة، والعفّة، والشجاعة، والعدالة. ولكلّ منها فروع ناشئة منها، راجعة بحسب التحليل إليها.

---

(١) **تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة**، تأليف الفقيه المحدّث الشيخ محمّد بن الحسن الحرّ العاملي، المتوفّى سنة ١١٠٤هـ: ج١٥ ص٢٠٩، تحقيق مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث.

(٢) الأعراف: ١٧٩.

(٣) الفرقان: ٤٤.

الفضائل التي تحت الحكمة

• **الذكاء**: وهو سرعة إنتاج القضـايا وسـهولة اسـتخراجها؛ لكثـرة مزاولة المقدّمات وصيرورة ذلك ملكة.

• **سرعة الفهم**: هو حركة النفس من الملزومات إلـى اللـوازم بـلا توقّف.

• **صفاء الـذهن**: هـو اسـتعداد الـنفس لاسـتخراج المطالـب بـلا اضطراب.

• **سهولة التعلّم**: أن تكون للنفس حدّة في اكتسـاب المطالـب بـلا ممانعة الخواطر المتفرّقة، بحيث تكون بكلّيتها متوجّهة إليها.

• **التحفّظ**: هو أن تكون صور الأُمور المدركة بالعقل بقـوّة التفكّـر والتخيّل مستحصلة بأقلّ نظر.

الفضائل التي تحت العفّة

• **الحياء**: تغيّر يحصل عند استشعار ارتكاب القبـيح احتـرازاً عـن استحقاق المذمّة.

• **الدعة**: هو سكون النفس عند حركة الشهوات.

• **الصبر**: هو مقاومة النفس الهوى، لئلاّ تنقاد لقبائح اللذّات.

• **السخاء**: هو التوسّط في الإعطاء، وهو أن ينفق الأمـوال فـي مـا

ينبغي على مقدار ما ينبغي وعلى ما ينبغي، وتحت السخاء خاصّة أنواع كثيرة نحصيها في ما بعد لكثرة الحاجة إليها.

- **القناعة:** هي التساهل في المأكل والمشرب والزينة.
- **الدماثة:** حسن انقياد النفس لما يجمل وتسرّعها إلى الجميل.
- **الانتظام:** حال للنفس تقودها إلى حسن تقدير الأُمور وترتيبها كما ينبغي .
- **حسن الهدي:** محبّة تكميل النفس بالزينة الحسنة.
- **الورع:** هو لزوم الأعمال الجميلة التي فيها كمال النفس.
- **الوقار:** هو كون النفس عند توجّهها إلى المطالب خالية عن الاضطراب.
- **العفو:** هو أن يسهل على النفس ترك المكافاة.
- **حسن القضاء:** هو أن تكون الحقوق المتوجّهة عليه يؤدّيها على وجه لا يكون فيها منّة أو ندامة.
- **المكافأة:** هو أن يقابل الإحسان الذي صنع به بمثله أو بأكثر منه.
- **التوكّل:** هو أن تكون الأفعال المتعلّقة بالقدر والكفاية البشرية، يفوّضها إلى الله تعالى، بحيث يعلم أنّه المتصرّف فيها والفاعل، ولا يطلب زيادة ولا نقصاناً ولا تعجيلاً ولا تأخيراً.

الفضائل التي تحت الشجاعة

• **كبر النفس:** هو الاستهانة باليسير والاقتدار على حمل الكرائه والهوان، فصاحبه أبداً يؤهّل نفسه للأمور العظام حتّى مع استخفافه لها.

• **النجدة:** هي ثقة النفس عند المخاوف حتّى لا يخامرها جزع.

• **علوّ الهمّة:** هو أن لا تكون النفس مستبشرة بالسعادة الدنيوية ولا متضجّرة بها، غير خائفة من الموت.

• **ثبات الهمّة:** هو أن تكون للإنسان قوّة مقاومة الآلام والشدائد.

• **الحلم:** هو فضيلة للنفس تُكسبها الطمأنينة، فلا تكون شغبة ولا يحرّكها الغضب بسهولة وسرعة.

• **السكون:** نعني به عدم الطيش، فهو إمّا عند الخصومات، وإمّا في الحروب التي يذبّ بها عن الحريم، أو عن الشريعة، وهي قوّة للنفس تفسّر حركتها في هذه الأحوال لشدّتها.

• **الصبر:** والفرق بين هذا الصبر والصبر الذي في العفّة، أنّ هذا يكون في الأُمور الهائلة، وذلك يكون في الشهوات الهائجة.

• **التواضع:** هو أن لا تجعل لنفسك مرتبة على من هو دونك في الجاه علوّاً .

الفضائل التي تحت السخاء

• **الكرم**: هو إنفاق المال الكثير بسهولة من النفس في الأُمور الجليلة القدر الكثيرة النفع كما ينبغي، وباقي شرائط السخاء التي ذكرناها.

• **الإيثار**: فضيلة للنفس بها يكفّ الإنسان عن بعض حاجاته التي تخصّه حتّى يبذله لمن يستحقّه.

• **النبل**: سرور النفس بالأفعال العظام وابتهاجها بلزوم هذه السيرة.

• **السماحة**: بذل بعض ما لا يجب.

• **المسامحة**: ترك بعض ما يجب[1].

ممّا تقدّم في بيان أُمّهات الفضائل الأخلاقية، وما يتفرّع عليها إجمالاً، يمكن الوقوف على الأطراف التي هي رذائل وشرور، وذلك من خلال قاعدة (تعرف الأشياء بأضدادها) وربما وجدت لها أسماء بحسب اللغة، وربما لم توجد. ولا يعسر عليك فهم معانيها والوقوف عليها.

ثمّ إنّ ما ذكر من الأوساط وقوانينها، والأطراف وما يليق بها، إنّما هو بحسب القواعد العامّة والأُصول الكلّية، لا ما يجب على شخص شخص، فإنّ هذا غير ممكن، لاختلاف أقدار الناس وطبقاتهم وهممهم وغيرها في ذلك.

---

(١) يمكن مراجعة هذه الفضائل وتوضيحها في: **تهذيب الأخلاق**، مسكويه ص٤٠ ـ ص٤٥، وكذلك آداب النفس: ص٨ ـ ص١٠.

﴿أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّار ابْتِغَاءَ حِلْيَة أَوْ مَتَاع زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ * لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾[١].

---

(١) الرعد: ١٧ ـ ١٨.

البحث الثاني

قبول الأخلاق للتغيير

من الأُمور التي وقع البحث فيها: هل الأخلاق الإنسانية قابلة للإزالة والتغيير أم لا؟ والحديث في ذلك يقع في مقامين:

الأوّل: هل الأخلاق الإنسانية قابلة للتغيير أساساً من حال إلى حال، أم أنّ ذلك ممتنع عقلاً؟ ببيان آخر: هل الأخلاق، هي ذاتيات باب الكلّيات كالجنس والفصل، فلا تكون قابلة للتغيير والتبديل البتة، أم أنّها ليست كذلك، فتكون قابلة للتغيير من خلال مسالك وطرق تأتي الإشارة إليها لاحقاً.

الثاني: بعد أن ثبت في المقام الأوّل، أنّها قابلة للتغيير، يقع الكلام في: هل ذلك بالنسبة إلى كلّ خلق، ولجميع الناس على درجة واحدة، أم أنّ المسألة تختلف من خلق إلى آخر ومن إنسان إلى آخر؟

المقام الأوّل: إمكانية تغيير الأخلاق

إنّ دعوى عدم قبول الأخلاق الإنسانية للتغيير مطلقاً وبنحو السالبة الكلّية، أمر لا توافق عليه الآيات القرآنية والروايات الواردة في المقام، مضافاً إلى التجربة الخارجية.

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾. «الفلاح هو الظفر بالمطلوب وإدراك البغية، والخيبة خلافه، والزكاة نموّ النبات نمواً صالحاً ذا بركة. والتزكية إنماؤه كذلك، والتدسّي ـ وهو الدسّ بقلب إحدى السينين ياءً ـ إدخال الشيء في الشيء بضرب من الإخفاء، والمراد بها بقرينة التزكية: الإنماء على خلاف ما يقتضيه طبعها وركبت عليه نفسها»[1].

تؤكّد هاتان الآيتان حقيقة مهمة وهي: إنّ بإمكان الإنسان أن ينمّي نفسه ويكمّلها من خلال طلبه للأخلاق الحسنة، وإلاّ لو لم يكن ذلك مقدوراً له، لما أشارت الآيتان إلى فلاح من يزكّي نفسه وخيبة من يدسّها. قال الآلوسي في تفسيره قول الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا...﴾، حيث جعل فيه العبد فاعل التزكية بالتقوى والتدسية بالفجور، لأنّ الإسناد يقتضي قيام المسند، ويكفي فيه المدخلية المذكورة، ولا يتوقّف صحّة الإسناد حقيقة إلى العبد على كون فعله الإيجاد، فالاستدلال بهذا الإسناد على كونه متمكّناً من اختيار ما شاء

(١) الميزان في تفسير القرآن: ج٢٠ ص٢٩٨.

من الفجور والتقوى، وإيجاده إيّاه بقدرة مستقلّة فيه على خلاف ما يقوله الجماعة ليس بشيء»[(١)].

وهذه المسألة ترتبط ببحث الجبر والاختيار التي وقفنا عليها مفصّلاً في كتاب «التوحيد»[(٢)].

أمّا الروايات فقد تقدّمت الإشارة إلى جملة منها، كقوله صلى الله عليه وآله: «**بعثت لأُتمّم مكارم الأخلاق**» وقوله: «**تخلّقوا بأخلاق الله**» وغيرها، فهي خير شاهد على إمكان الإزالة والتغيير، وكذلك التجربة فهي واضحة لا غبار عليها.

قال الغزالي: «وكيف ينكر هذا ـ أي تغيّر الخلق ـ في حقّ الآدمي؛ وتغيير خلق البهيمة ممكن، إذ ينقل البازي من الاستيحاش إلى الأُنس، والكلب من شره الأكل إلى التأدّب والإمساك والتخلية، والفرس من الجماح إلى السلاسة والانقياد، وكلّ ذلك تغيير الأخلاق. والقول الكاشف للغطاء عن ذلك أن نقول: الموجودات منقسمة إلى ما لا مدخل للآدمي واختياره في أصله وتفصيله، كالسماء والكواكب بل

---

(١) **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، للعلاّمة أبي الفضل شهاب الدين السيّد محمود الآلوسي البغدادي (المتوفّى ١٢٧٠هـ) مفتي بغداد ومرجع أهل العراق: ج١٦ ص٢٥٩، قرأه وصحّحه: محمّد حسين العرب، بإشراف هيئة البحوث والدراسات، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

(٢) **التوحيد، بحوث في مراتبه ومعطياته**: ج٢ ص٣٨ ـ ١٣٥، تقريراً لدروس السيّد كمال الحيدري، جواد علي كسّار، دار فراقد.

أعضاء البدن داخلاً وخارجاً، وبالجملة كلّ ما هو حاصل كامل وقع الفراغ من وجوده وكماله، وإلى ما وجد وجوداً ناقصاً وجعل فيه قوّة لقبول الكمال بعد أن وجد شرطه، وشرطه قد يرتبط باختيار العبد، فإنّ النواة ليست بتفاح ولا نخل، إلاّ أنّها خلقت خلقة يمكن أن تصير نخلة إذا انضاف التربية إليها، ولا تصير تفاحاً أصلاً ولا بالتربية، فإذا صارت النواة متأثّرة بالاختيار حتّى تقبل بعض الأحوال دون بعض، فكذلك الغضب والشهوة لو أردنا قمعهما وقهرهما بالكلّية حتّى لا يبقى لهما أثر لم نقدر عليه أصلاً، ولو أردنا سلاستهما وقودهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه، وقد أُمرنا بذلك وصار ذلك سبب نجاتنا ووصولنا إلى الله تعالى»[١].

المقام الثاني: اختلاف درجات الناس في قبول التغيّر

نعم ليس جميع الناس على درجة واحدة، بل يختلفون شدّة وضعفاً؛ قال أرسطاليس: «يمكن صيرورة الأشرار أخياراً بالتأديب، إلاّ أنّ هذا ليس كلّياً ، فإنّه ربما أثّر في بعضهم بالزوال، وفي بعضهم بالتقليل، وربما لم يؤثّر أصلاً»[٢]. والسبب في ذلك «أنّ للمزاج مدخلية تامّة في الصفات، فبعض الأمزجة في أصل الخلقة مستعدّ لبعض الأخلاق، وبعضها مقتض لخلافه، فإنّا نقطع بأنّ بعض الأشخاص

(١) **إحياء علوم الدين** للغزالي: ج٣ ص٥٦.

(٢) نقلاً من **جامع السعادات** للنراقي: ج١ ص٥٨.

بحسب جبلّته ولو خُلّي عن الأسباب الخارجية، بحيث يغضب ويخاف ويحزن بأدنى سبب، ويضحك بأدنى تعجّب، وبعضهم بخلاف ذلك»[١].

لذا قال الشيخ الرئيس ابن سينا في بعض رسائله: «قد تبيّن في العلوم الطبيعية، أنّ الأخلاق والعادات تابعة لمزاج البدن[٢]، حتّى أنّ من استولى البلغم على مزاجه استولى عليه السكون والوقار والحلم، ومن استولت الصفراء على مزاجه استولى عليه الغضب، ومن استولت عليه السوداء استولى عليه سوء الخُلُق، ويتبع كلّ واحد منها أخلاق أُخر لا نذكرها هنا، فلا شكّ أنّ المزاج قابل للتبديل، فتكون الأخلاق أيضاً قابلة للتبديل بواسطة تبديل المزاج. فيعين على ذلك استعمال الرياضة المذكورة في كتب الأخلاق، فمهما اعتدل مزاج الإنسان تهذّبت أخلاقه بسهولة، فلاعتدال مزاجه أثر في ذلك... وكلّما كان المزاج أقرب إلى الاعتدال، كان الشخص أكثر استعداداً لقبول

(١) **جامع السعادات**: ج١ ص٥٣.

(٢) راجع في بيان المراد من «المزاج» اصطلاحاً **شرح المصطلحات الفلسفية**، إعداد قسم الكلام في مجمع البحوث الإسلامية ص٣٦٦، قال: «هو عبارة عن كيفية من جنس أوائل الملموسات، أعني الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة». وكذلك: **موسوعة كشّاف إصطلاحات الفنون والعلوم**، للباحث محمّد علي التهانوي تقديم وإشراف ومراجعة: د. رفيق العجم، تحقيق: د. علي دحروج، نقل النصّ الفارسي إلى العربية: د. عبدالله الخالدي، الترجمة الأجنبية: د. جورج زيناتي: ج٢ ص١٥١٨.

الملكات الفاضلة العلمية والعملية»(١).

ولست الآن بصدد تحقيق الأصول الموضوعة التي تقوم عليها هذه النتائج، إنّما المهمّ أنّ كلام المحقّقين في هذا الفن أنّ الناس ليسوا على درجة واحدة في هذا المجال. وهذا ما أشارت إليه بعض الآيات وكثير من الروايات؛ قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ * لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْا بِهِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾(٢).

«فإنّ الوجود النازل من عنده تعالى على الموجودات، الذي هو بمنزلة الرحمة السماوية، والمطر النازل من السحاب على ساحة الأرض، خال في نفسه عن الصور والأقدار، وإنّما يتقدّر من ناحية الأشياء نفسها، كماء المطر الذي يحتمل من القدر والصورة ما يطرأ

(١) **أربع رسائل للشيخ أبي على ابن سينا**، بتحقيق الأهواني، ص١٩٧، الطبعة الأولى، مصر سنة ١٣٧١هـ نقلاً عن **عيون مسائل النفس وسرح العيون في شرح العيون**، تأليف: آية الله حسن حسن زاده آملي: ص٢٩٠، العين: ١٢، مؤسّسة انتشارات أمير كبير، طهران: ١٣٧١هـ ش.

(٢) الرعد: ١٧ ـ ١٨.

عليه من ناحية قوالب الأودية المختلفة في الأقدار والصور، فإنّما تنال الأشياء من العطية الإلهية بقدر قابليتها واستعداداتها، وتختلف باختلاف الاستعدادات والظروف والأوعية. وهذا أصل عظيم يدلّ عليه أو يلوّح إليه آيات كثيرة من كلامه تعالى»[(١)].

وكذلك ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**الناس معادن كمعادن الذهب والفضّة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا**»[(٢)].

أخبار الطينة

وأيضاً ما رواه أبو موسى الأشعري قال: سمعت النبي صلى الله عليه وآله يقول: «**إنّ الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والسهل والحزن، والخبيث والطيّب**»[(٣)].

والرواية الأخيرة إشارة إلى أخبار الطينة «التي رواها العلماء الأعلام في جوامعهم العظام بأسانيد عديدة وطرق سديدة، ولا يبعد أن

(١) **الميزان في تفسير القرآن**: ج١١ ص٣٣٨.

(٢) أخرجه البخاري في **المناقب**، باب مناقب قريش، ومسلم في الإمارة، باب: الناس تبع لقريش برقم ١٨١٨، نقلاً عن كتاب **أخلاق النبي في القرآن والسنّة**: ج١ ص٣٤.

(٣) أخرجه أبو داود في السنّة باب في القدر برقم ٤٦٩٣، وأحمد في المسند، وقال عنه الترمذي: حسن صحيح . نقلاً عن كتاب **أخلاق النبي في القرآن والسنّة**: ج١ ص٣٦.

تكون من المتواترات معنىً، فلا معنى لطرحها وردّها»(١).

منها: عن حبّة العرني عن علي عليه السلام قال: «إنّ الله عزّ وجلّ خلق آدم عليه السلام من أديم الأرض، فمنه السباخ (ما لم يحرث ولم يعمّر) ومنه الملح ومنه الطيّب، فكذلك في ذرّيته الصالح والطالح»(٢).

ومنها: عن أمير المؤمنين عليه السلام في خبر طويل: قال الله تبارك وتعالى للملائكة: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾، قال: وكان ذلك من الله تقدمة في آدم قبل أن يخلقه واحتجاجاً منه عليهم، قال: فاغترف ربّنا تبارك وتعالى غرفة بيمينه من الماء العذب الفرات - وكلتا يديه يمين - فصلصلها في كفّه فجمدت فقال لها: منك أخلق النبيين والمرسلين وعبادي الصالحين والأئمّة المهتدين والدعاة إلى الجنّة وأتباعهم إلى يوم الدين... ثمّ اغترف غرفة أخرى من الماء المالح الأجاج فصلصلها فجمدت، ثمّ قال لها: منك أخلق الجبّارين والفراعنة والعتاة وإخوان الشياطين والدعاة إلى النار إلى يوم القيامة وأشياعهم... وشرط في ذلك البداء، ولم يشترط في أصحاب اليمين البداء، ثمّ خلط الماءين

---

(١) **مصابيح الأنوار**، تأليف السيّد عبد الله شبّر: ج١ ص١١، منشورات مكتبة بصيرتي، إيران ـ قم.

(٢) **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، تأليف: العلم العلاّمة الحجّة فخر الأمّة المولى الشيخ محمّد باقر المجلسي قدس سره: ج٥ ص٢٣٩، الحديث: ٢٠ مؤسّسة الوفاء، بيروت ـ لبنان.

جميعاً في كفّه، فصلصلهما ثمّ كفأهما قدّام عرشه، وهما سلالة من طين»[١].

إشكالية الجبر في الفعل الإنساني

لكن قد يقال: إنّ المستفاد من ظاهر جملة من هذه الأخبار هو الجبر وعدم الاختيار، وهو مصادم للمجمع عليه بين أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام من أنّه لا جبر ولا تفويض ولكن أمر بين أمرين.

وما ينبغي أن يقال في الجواب عن ذلك إجمالاً ـ وإن كان البحث يستلزم وضع رسالة مستقلّة نرجو أن نوفّق له ـ: إنّ من بديهيات العقيدة الإسلامية على مستوى البحث العقلي والنقلي، هو أنّ الله تعالى عالم بجميع الأشياء، كلّياتها وجزئياتها وكلّ تفاصيلها، لا يغيب عنه تعالى شيء منها، ولا تخفى عليه خافية في السماوات ولا في الأرض، علماً مطلقاً غير متناه، قبل خلقه لها وإيجادها وبعده.

قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَلاَ أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[٢] وقال: ﴿اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ

(١) بحار الأنوار: ج٥ ص٢٣٧، الحديث: ١٦.

(٢) يونس: ٦١.

الْكَبِيرُ الْمُتَعَال * سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾[١] وقال: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَلاَ أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[٢] إلى غير ذلك من نصوص الكتاب العزيز.

كما أكّدت نصوص السنّة هذا المضمون القرآني أيضاً منها:

• صحيح أيّوب بن نوح أنّه كتب إلى أبي الحسن عليه السلام يسأله عن الله عزّ وجلّ: أكان يعلم الأشياء قبل أن خلق الأشياء وكوّنها أو لم يعلم ذلك حتّى خلقها وأراد خلقها وتكوينها، فعلم ما خلق عندما خلق وما كوّن عندما كوّن؟ فوقّع بخطّه عليه السلام: **لم يزل الله عالماً بالأشياء قبل أن يخلق الأشياء كعلمه بالأشياء بعدما خلق الأشياء**»[٣].

• صحيح محمّد بن مسلم عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: سمعته يقول: «**كان الله ولا شيء غيره، ولم يزل الله عالماً بما يكون، فعلمه به قبل كونه كعلمه به بعد كونه**»[٤].

• صحيح منصور بن حازم قال: سألت أبا عبد الله الصادق عليه السلام: هل يكون اليوم شيء لم يكن في علم الله عزّوجلّ؟ قال: **لا بل**

(١) الرعد: ٨ ـ ١٠.

(٢) سبأ: ٣.

(٣) **الأصول من الكافي**: ج١ ص١٠٧، باب صفات الذات، الحديث: ٤.

(٤) المصدر السابق: الحديث: ٢.

كان في علمه قبل أن ينشئ السموات والأرض»[١].

• ما روي عن عبد الله بن مسكان قال: سألت أبا عبد الله الصادق عليه السلام عن الله تبارك وتعالى: أكان يعلم بالمكان قبل أن يخلق المكان، أم علمه عندما خلقه وبعدما خلقه؟ فقال عليه السلام: **تعالى الله بل لم يزل عالماً بالمكان قبل تكوينه، كعلمه به بعدما كوّنه وكذلك علمه بجميع الأشياء كعلمه بالمكان»**[٢].

• حديث الحسين بن بشّار عن أبي الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام قال: سألته: أيعلم الله الشيء الذي لم يكن أن لو كان كيف كان يكون، أو لا يعلم إلاّ ما يكون؟ فقال عليه السلام: **إنّ الله تعالى هو العالم بالأشياء قبل كون الأشياء، قال عزّ وجلّ:** ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٣] **وقال لأهل النار:** ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[٤] **فقد علم عزّ وجلّ أنّه لو ردّهم لعادوا لما نهوا عنه، وعندما قال الملائكة:** ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[٥] **فلم يزل الله عزّ وجلّ علمه سابقاً للأشياء قديماً قبل أن يخلقها، فتبارك ربّنا وتعالى علواً**

(١) **التوحيد**، الصدوق: ص١٣١، باب العلم: الحديث: ٦.
(٢) المصدر السابق: ص١٣٢، الحديث: ٩.
(٣) الجاثية: ٢٩.
(٤) الأنعام: ٢٨.
(٥) البقرة: ٣٠.

كبيراً، خلق الأشياء وعلمه بها سابق لها كما شاء كذلك، لم يزل ربّنا عليماً سميعاً بصيراً»(١).

• حديث الفتح بن زيد الجرجاني عن الإمام الرضا عليه السلام «قلت: جعلت فداك قد بقيت مسألة، قال: **هات لله أبوك**. قلت: يعلم القديم الشيء الذي لم يكن أن لو كان كيف يكون؟ قال: **ويحك إنّ مسائلك لصعبة! أما سمعت الله يقول: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا﴾**(٢) وقوله: **﴿وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾**(٣) **وقال يحكي قول أهل النار: ﴿أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾**(٤) **وقال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾**(٥) **فقد علم الشيء الذي لم يكن أن لو كان كيف كان يكون**. فقمت لأُقبّل يده ورجله فأدنى رأسه، فقبّلت وجهه ورأسه، وخرجت وبي من السرور والفرح ما أعجز عن وصفه لما تبيّنت من الخير والحظّ»(٦).

هذه النصوص وكثير غيرها تؤكّد حقيقة علم الله تعالى بالأشياء علماً أزلياً قبل خلقه لها وإيجاده إيّاها، بل يعلم سبحانه ممتنع الوجود أن لو كان وجد كيف يكون، مثل شريك الباري تبارك وتعالى.

---

(١) **التوحيد**، الصدوق: ص١٣٢، باب العلم، الحديث: ٨.

(٢) الأنبياء: ٢٢.

(٣) المؤمنون: ٩١.

(٤) فاطر: ٣٧.

(٥) الأنعام: ٢٨.

(٦) **التوحيد**، للصدوق: ص٦٤، باب التوحيد ونفي التشبيه، الحديث: ١٨.

فإذا علم الله سبحانه - وعلمه أزليّ قبل خلق الأشياء - من عبد أنّه لا يريد سوى الطاعة والعبادة والطهارة من الرجس والدنس، فلا محالة أن يعطيه ذلك ويهيئ له جميع الأسباب كما هو مقتضى وعده وما كتبه على نفسه، ولابدّ أن تتعلّق إرادته التكوينية بذلك، تمكيناً للعبد من تحقيق ما يريده، ولا يعني هذا أيّ جبر لذلك الإنسان في تحقيق مراده، بل يبقى العبد مختاراً مريداً، قد استجابت المشيئة الإلهية لما اختاره وأراده.

وبالعكس فيما لو علم من شخص آخر أنّه لا يريد سوى التمرّد والجحود والكفر والعصيان، والخروج عن حبل الطاعة، فلا يمنعه من ذلك، بل يعطيه كلّ ما يريد تحقيقاً لرغباته، كما أنّ الإرادة الإلهية التكوينية أيضاً تتعلّق بتلكم الأفعال، فيصحّ أن يقال: إنّما يريد الله أن يكون فلان هكذا... وهذا أيضاً لا يعني الجبر على المعصية، بل شاء إنسانٌ باختياره هو وإرادته أن لا يستجيب لأوامر الله تعالى، فشاءت إرادة الله تحقيق ما اختاره ذلك الإنسان.

ومن ثمّ يتّضح لنا أنّ إرادة الله التكوينية التي لا تتخلّف عن المراد، لا تتنافى مع اختيار الإنسان، وإن كانت جميع أفعال الإنسان مخلوقة لله تعالى، لكنّها مخلوقة وفق ما يريده الإنسان ويختاره.

وهذا المعنى هو الذي ذكره «أكثر الأصحاب وعوّلوا عليه في هذا الباب، وهو أنّ ذلك ـ أي أخبار الطينة المتقدّمة ـ منزّل على العلم الإلهي، فإنّه تعالى لمّا خلق الأرواح كلّها قابلة للخير والشرّ ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ

السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾(١) وقادرة على فعلهما ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاَهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً * وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً * كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاَء وَهَؤُلاَءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾(٢) وعلم أنّ بعضها يعود إلى الخير المحض وهو الإيمان، وبعضها يعود إلى الشرّ المحض وهو الكفر باختيارها، عاملها هذه المعاملة كالخلق من الطينة الطيّبة أو الخبيثة، فحيث علم الله من زيد أنّه يختار الخير والإيمان البتة، ولو لم يخلق من طينة طيّبة، خلقه منها، ولمّا علم من عمرو أنّه يختار الشرّ والكفر البتة، خلقه من طينة خبيثة، لطفاً بالأوّل وتسهيلاً عليه وإكراماً له ، لما علم من حسن نيّته وعمله، وبالعكس في الثاني ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾(٣).

وعلم الله ليس بعلّة لصدور الأفعال، وهذا معنىً جيّد تنطبق عليه أكثر أخبار الباب، ويستنبط من أخبارهم عليهم السلام(٤).

والآيات والروايات شاهدة على هذا المعنى؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ

---

(١) الإنسان: ٣.

(٢) الإسراء: ١٨ ـ ٢٠.

(٣) الليل: ٥ ـ ١٠.

(٤) **مصابيح الأنوار**، للسيّد عبد الله شبّر: ج١ ص١٣.

الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾[1] بمعنى «أنّ الله إنّما ابتلاهم بالصمم والبكمة فلا يسمعون كلمة الحقّ ولا ينطقون بكلمة الحقّ، وبالجملة حرمهم من نعمة السمع والقبول، لأنّه تعالى لم يجد عندهم خيراً ولم يعلم به، ولو كان لعلم، لكن لم يعلم فلم يوفّقهم للسمع والقبول، ولو أنّه تعالى رزقهم السمع والحال هذه لم يثبت السمع والقبول فيهم، بل تولّوا عن الحقّ وهم معرضون»[2]. لذا ورد في الصحيح عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «... إنّ الله لم يجبر أحداً، ولا أراد - إرادة حتم - الكفر من أحد، ولكن حين كفر كان في إرادة الله أن يكفر، وهم في إرادة الله وفي علمه أن لا يصيروا إلى شيء من الخير.

قلت: أراد منهم أن يكفروا؟

قال: ليس هكذا أقول، ولكنّي أقول: علم أنّهم سيكفرون فأراد الكفر لعلمه فيهم، وليست هي إرادة حتم، إنّما هي إرادة اختيار»[3].

وبذلك يتّضح عدم تمامية ما ذكره الرازي في ذيل هذه الآية، مستدلاً بعلم الله الأزلي لإثبات الجبر وعدم الاختيار.

ومن الروايات الصريحة الدالّة على أنّ منشأ خلق بعض الناس من

---

(١) الأنفال: ٢٢ ـ ٢٣.

(٢) **الميزان في تفسير القرآن**: ج٩ ص٤٣.

(٣) **الأصول من الكافي**: ج١ ص١٦٢، كتاب التوحيد، باب الاستطاعة، الحديث ١٣.

طينة طيّبة وبعضهم من طينة خبيثة، هو علم الله الأزلي بما هم صائرون إليه باختيارهم وإرادتهم؛ قال الإمام أبو جعفر محمّد بن علي الباقر عليه السلام: «إنّ الله وتعالى لم يزل عالماً قديماً، خلق الأشياء لا من شيء، ومن زعم أنّ الله عزّ وجلّ خلق الأشياء من شيء فقد كفر، لأنّه لو كان ذلك الشيء الذي خلق منه الأشياء قديماً معه في أزليته وهويّته كان ذلك أزلياً، بل خلق الله عزّ وجلّ الأشياء كلّها لا من شيء، فكان ممّا خلق الله عزّ وجلّ أرضاً طيّبة، ثمّ فجّر منها ماءً عذباً زلالاً... ثمّ خلق بعد ذلك أرضاً سبخة (أي أرضاً ذات ملح) خبيثة منتنة، ثمّ فجّر منها ماءً أُجاجاً، آسناً مالحاً....

قلت: يا ابن رسول الله فما صنع بالطينتين؟

قال عليه السلام: مزج بينهما بالماء الأوّل والماء الثاني، ثمّ عركها عرك الأديم، ثمّ أخذ من ذلك قبضة فقال: هذه إلى الجنّة ولا أُبالي، وأخذ قبضة أُخرى وقال: هذه إلى النار ولا أُبالي، ثمّ خلط بينهما فوقع من سنخ المؤمن وطينته على سنخ الكافر وطينته، ووقع من سنخ الكافر وطينته على سنخ المؤمن وطينته... ثمّ إذا عرضت هذه الأعمال كلّها على الله عزّ وجلّ قال: أنا عدل لا أجور، ومنصف لا أظلم، وحَكَم لا أحيف ولا أشطط (شطط الرجل: أفرط وتباعد عن الحقّ)... فإنّي أنا الله لا إله إلاّ أنا، عالم السرّ وأخفى، وأنا المطّلع على قلوب عبادي، لا أحيف ولا أظلم وأُلزم أحداً إلاّ ما عرفته منه قبل أن أخلقه»[1].

---

(١) بحار الأنوار: ج٥ ص٢٣٠.

وبما تقدّم يمكن فهم أصل مهمّ في معارف الإمامة الإلهية، حيث ثبت «أنّ الله سبحانه خلق بعض عباده على استقامة الفطرة واعتدال الخلقة، فنشأوا من بادئ الأمر بأذهان وقّادة وإدراكات صحيحة ونفوس طاهرة وقلوب سليمة، فنالوا بمجرّد صفاء الفطرة وسلامة النفس من نعمة الإخلاص ما ناله غيرهم بالاجتهاد والكسب، بل أعلى وأرقى؛ لطهارة داخلهم من التلوّث بألواث الموانع والمزاحمات، والظاهر أنّ هؤلاء هم المخلَصون لله في عرف القرآن. وهؤلاء هم الأنبياء والأئمّة، وقد نصّ القرآن بأنّ الله اجتباهم أي جمعهم لنفسه وأخلصهم لحضرته؛ قال تعالى: ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(١) وقال: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج: ٧٨)(٢).

والروايات الواردة في المقام تؤكّد أنّ منشأ هذا الاجتباء والاصطفاء الإلهي، أنّه علِم منهم أنّهم لا يريدون إلاّ الطاعة والعبودية له تعالى.

روي عن الإمام الصادق عليه السلام في جوابه عن أسئلة بعض الزنادقة الذي سأله مسائل كثيرة:

قال: كيف يعبد الله الخلق ولم يروه؟

قال عليه السلام: **رأته القلوب بنور الإيمان، وأثبتته العقول بيقظتها**

---

(١) الأنعام: ٨٧.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ج١١ ص١٦٢.

إثبات العيان، وأبصرته الأبصار بما رأته من حسن التركيب وإحكام التأليف.

قال: أليس هو قادراً أن يظهر لهم حتّى يروه ويعرفوه فيُعبَد على يقين؟

قال عليه السلام: ليس للمحال جواب.

قال: فما بال ولد آدم فيهم شريف ووضيع؟

قال عليه السلام: الشريف: المطيع، والوضيع: العاصي.

قال: أليس فيهم فاضل ومفضول؟

قال عليه السلام: إنّما يتفاضلون بالتقوى.

قال: فتقول: إنّ ولد آدم كلّهم سواء في الأصل لا يتفاضلون إلاّ بالتقوى؟

قال عليه السلام: نعم إنّي وجدت أصل الخلق التراب، والأب آدم والأُمّ حواء، خلقهم إله واحد وهم عبيده، إنّ الله عزّ وجلّ اختار من ولد آدم أُناساً طهّر ميلادهم ، وطيّب أبدانهم، وحفظهم في أصلاب الرجال وأرحام النساء، أخرج منهم الأنبياء والرسل، فهم أزكى فروع آدم، فعل ذلك لا لأمر استحقّوه من الله عزّ وجلّ، ولكن علم الله منهم حين ذرأهم أنّهم يطيعونه ويعبدونه ولا يشركون به شيئاً، فهؤلاء بالطاعة نالوا من الله الكرامة والمنزلة الرفيعة عنده، وهؤلاء الذين لهم الشرف والفضل والحسب»[(١)].

(١) بحار الأنوار: ج ١٠ ص ١٧٠.

إشكال وجواب

من هنا يتّضح بطلان الزعم (أن حمل الإرادة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[1] على الإرادة التكوينية ينافي اختيار من تعلّقت الإرادة الإلهية بتطهيرهم من كلّ رجس)؛ بدعوى: (أنّ لازم ذلك هو الجبر في إذهاب الرجس والتطهير، إذ يستحيل في التكوينية من الإرادة تخلّف التحقّق الخارجي للفعل المراد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[2]، وعلى فرض الجبر ينتفي كل من الثواب والعقاب، كما أجاب الإمام الصادق عليه السلام عندما سأله السائل: أخبرني عن الله عزّ وجلّ كيف لم يخلق الخلق كلّهم مطيعين موحّدين، وكان على ذلك قادراً؟ قال عليه السلام: «**لو خلقهم مطيعين لم يكن لهم ثواب، لأنّ الطاعة إذاً ما كانت فعلهم، ولم تكن جنّة ولا نار**»[3]).

لأنّ الإرادة في الآية مع كونها تكوينية لا يتخلّف المراد عنها، منسجمة تماماً مع الاختيار ولا تنافيه، لأنّها تشير إلى علمه تعالى الأزلي، بهؤلاء الصفوة أنهم لا يريدون سوى الطهارة من الرجس، واستجابت إرادته سبحانه لإرادتهم بما يقتضيه وعده، وما كتبه هو على نفسه، بناءً على ذلك يكون مفاد الآية: «إنّ الله عزّ وجلّ لمّا علم

---

(1) الأحزاب: 33.

(2) يس: 82.

(3) بحار الأنوار: ج 10 ص 170.

أنّ إرادتهم تجري دائماً على وفق ما شرّعه لهم من أحكام، بحكم ما زُوّدوا به من إمكانات ذاتية ومواهب مكتسبة، نتيجة تربيتهم على وفق مبادئ الإسلام، تربية حوّلتهم في سلوكهم إلى إسلام متجسّد، ثمّ بحكم ما كانت لديهم من القدرات على إعمال إرادتهم وفق أحكامه التي استوعبوها علماً وخبرة، فقد صحّ له الإخبار عن ذاته المقدّسة بأنّه لا يريد لهم ـ بإرادته التكوينية ـ إلاّ إذهاب الرجس عنهم، لأنّه لا يفيض الوجود إلاّ على هذا النوع من أفعالهم، ما داموا هم لا يريدون لأنفسهم إلاّ إذهاب الرجس والتطهير عنهم»[1].

وبهذا يتّضح معنى الاصطفاء والاختيار من الله تعالى لبعض عبيده، في حمل أعباء الرسالة، وإعطائهم الإمكانيات العالية، من العلم العاصم وغيره، فإنّ جميع ذلك يرجع إلى إرادتهم واختيارهم، ضمن الحكمة الإلهية في إعطاء كلّ مستعدّ بمقدار استعداده.

فقد علم الله تعالى من الأزل وقبل الخلق، ما سيكون عليه هؤلاء البررة من الطاعة والطهارة، وتمحّض إرادتهم فيما يريده الله تعالى، فأعطاهم ما يتمكّنون به من توظيف إرادتهم في الطاعات والعبادات فحسب، ولو منعهم ذلك كان خلفاً في وعده جلّ وعلا، وبالعكس لو كان قد أعطى تلكم المواهب مَن علم منه عدم الالتزام بمدلولها، لكان ذلك عبثاً منه، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً»[2].

---

(١) **الأصول العامّة للفقه المقارن**: ص١٥١، دار الأندلس، بيروت، ط. ٢: عام ١٩٩٧.

(٢) **العصمة**: ص١٧٦.

جمع بين رأيين

ممّا تقدّم يتّضح أنّه يمكن أن يجمع بين كلام الحكيمين أرسطو وأفلاطون بأن يحمل كلام أرسطو، حيث قال في كتاب «نيقوماخيا»: «إنّ الأخلاق كلّها عادات تتغيّر، وإنّه ليس شيء منها بالطبع، وإنّ الإنسان يمكنه أن ينتقل من كلّ واحد منها إلى غيره بالاعتياد والدربة»[1] على المقام الأوّل من البحث، وهو أصل قابلية الأخلاق الإنسانية للتغيير، بغضّ النظر عن كونه سهلاً أو صعباً. ويحمل كلام أفلاطون القائل في كتاب «السياسة» وفي كتاب «بوليطيا» خاصّة «بأنّ الطبع يغلب العادة، وأنّ الكهول حيثما طُبعوا على خُلق ما، يعسر زوالهم عنه، وأنّهم متى قصدوا زوال ذلك الخُلُق عنهم، ازدادوا فيه تمادياً»[1] على المقام الثاني من البحث.

هذا ما ذكره الفارابي في الجمع بين الكلامين حيث قال: «وليس يشكّ أحد ممّن يسمع هاتين المقالتين أنّ بين الحكيمين في أمر الأخلاق خلافاً، وليس الأمر في الحقيقة كما ظنّوا، لأنّ أرسطو يرى أنّ كلّ خلق إذا نظر إليه مطلقاً (أي في نفسه) علم أنّه ينتقل ويتغيّر ولو بعسر، وليس شيء من الأخلاق ممتنعاً عن التغيّر والتنقّل، فإنّ الطفل الذي نفسه تُعدّ بالقوّة، ليس فيه شيء من الأخلاق بالفعل، ولا من الصفات النفسانية. وبالجملة فإنّ ما كان فيه بالقوّة، ففيه تهيّؤ لقبول

---

(١) **كتاب الجمع بين رأيي الحكيمين**، لأبي نصر الفارابي، ص٩٥، قدّم له وعلّق عليه: الدكتور البيرنصري نادر من أساتذة الفلسفة في الجامعة اللبنانية.

الشيء وضدّه، ومهما اكتسب أحد الضدّين، يمكن زواله عن ذلك الضدّ المكتسب إلى ضدّه، إلى أن تنقص البنية ويلحقه نوع من الفساد....

وأمّا أفلاطون، فإنّه ينظر في أنواع السياسات، وأيّها أنفع وأيّها أشدّ ضرراً، فينظر في أحوال قابلي السياسات وفاعليها، وأيّها أسهل قبولاً، وأيّها أعسر، ولعمري إنّ من نشأ على خلق من الأخلاق، واتّفقت له تقويته، يمكن بها من نفسه على خلق من الأخلاق، فإنّ زوال ذلك يعسر جدّاً. والعسر غير الممتنع.

وليس ينكر أرسطو أنّ بعض الناس يمكن فيه التنقّل من خلق إلى خلق أسهل، وفي بعضهم أعسر، على ما صرّح به في كتابه المعروف بـ «نيقوماخيا» الصغير، فإنّه عدّ أسباب عسر التنقّل من خُلق إلى خُلق، وأسباب السهولة، كم هي، وما هي، وعلى أي جهة كلّ واحد من تلك الأسباب، وما العلامات، وما الموانع.

فمن تأمّل في تلك الأقاويل حقّ التأمّل، وأعطى كلّ شيء حقّه، عرف أن لا خلاف بين الحكيمين في الحقيقة، وإنّما ذلك شيء يخيّله الظاهر من الأقاويل، عندما ينظر إلى واحد واحد منها على انفراد، من غير أن يتأمّل المكان الذي فيه ذلك القول، ومرتبة العلم الذي هو منه»(١) وقد تقدّم سابقاً قول أرسطو «يمكن صيرورة الأشرار أخياراً بالتأديب، إلاّ أنّ هذا ليس كلّياً، فإنّه ربما أثّر في بعضهم بالزوال، وفي

(١) **كتاب الجمع بين رأيي الحكيمين**، لأبي نصر الفارابي، ص٩٥.

بعضهم بالتقليل، وربما لم يؤثّر أصلاً».

نعم يبقى الكلام فيما هو مراد أفلاطون من «الطبع» في قوله «بأنّ الطبع يغلب العادة» هل المراد من ذلك الصورة النوعية بحسب الاصطلاح، فيكون متعذّر الزوال، أو المراد أنّ الخُلق إذا تمكّن في النفس وصار ملكة راسخة، فإنّه يعسر زواله، وتعسّر الشيء غير تعذّره، لأنّ الأوّل معناه إمكانه ذاتاً، وإن كان صعب الوقوع خارجاً، بخلاف الثاني فإنّ معناه عدم إمكان تحقّقه خارجاً.

لذا قال الفارابي في مقام تبيين كلام أفلاطون: «وهاهنا أصل عظيم الغناء في تصوّر العلوم، وخصوصاً في أمثال هذه الموانع، وهو أنّه كما المادّة، مهما كانت متصوّرة بصورة ما ثمّ حدثت فيها صورة أُخرى، صارت مع صورتها جميعاً مادّة للصورة الثالثة الحادثة فيها، كالخشب الذي له صورة، يباين بها سائر الأجسام ، ثمّ يجعل منها ألواحاً، ثمّ يجعل من الألواح سريراً، فإنّ صورة السرير، من حيث حدثت في الألواح مادّة لها، وفي الألواح التي هي مادّة بالإضافة إلى صورة السرير، صور كثيرة، مثل الصور اللوحية والصور الخشبية والصور النباتية وغيرها من الصور القديمة.

كذلك مهما كانت النفس المتخلّقة ببعض الأخلاق ثمّ تكلّفت اكتساب خُلق جديد، كان الأخلاق التي معها كالأشياء الطبيعية لها، وهذه المكتسبة الجديدة اعتيادية، ثمّ إن مرّت على هذه ودامت على اكتساب خُلق ثالث، صارت تلك بمنزلة الطبيعية، وذلك بالإضافة إلى

هذه الجديدة المكتسبة.

فمهما رأيت أفلاطون أو غيره يقول: إنّ من الأخلاق ما هي طبيعية، ومنها ما هي مكتسبة، فاعلم ما ذكرناه، وتفهّمه من فحوى كلامهم، لئلاّ يشكل عليك الأمر، فتظنّ أنّ من الأخلاق ما هي طبيعية بالحقيقة، لا يمكن زوالها، فإنّ ذلك شنيع جدّاً، ونفس اللفظ يناقض معناه إذا تأمّل فيه جدّاً»[١].

ممّا سلف يتّضح مراد النراقي في «جامع السعادات» حيث قال: «اختلف الأوائل في إمكان إزالة الأخلاق وعدمه، وثالث الأقوال أنّ بعضها طبيعي يمتنع زواله، وبعضها غير طبيعي حاصل من أسباب خارجة يمكن زواله».

إلى أن قال: «فالحقّ القول بالتفصيل، يعني قبول بعض الأخلاق بل أكثرها بالنسبة إلى الأكثر التبديل؛ للحسّ والعيان، ولبطلان السياسات والشرائع لولاه، ولإمكان تغيّر خلق البهائم... والتصفّح يعطي اختلاف الأشخاص والأخلاق في الإزالة والاتّصاف بالضدّ، بالإمكان والتعذّر والسهولة والتعسّر، وبالتقليل والرفع بالمرّة، ولذا لو تصفّحت أشخاص العالم لم تجد شخصين متشابهين في جميع الأخلاق، كما لا تجد اثنين متماثلين في الصورة، ويشير إلى ذلك قوله صلى الله عليه وآله: **اعملوا فكلّ ميسّر لما خلق له**»[٢].

---

(١) **الجمع بين رأيي الحكيمين**: ص٩٦.

(٢) **جامع السعادات** للنراقي: ج١ ص٥٥ ـ ٥٨.

البحث الثالث

في طرق إصلاح أخلاق الإنسان

تعرّضنا فيما سبق إلى تعريف علم الأخلاق وأهمّيته، ثمّ بيّنا أنّ الإنسان قادر على أن يختار الأخلاق الحميدة والحسنة وأن يتجنّب الأخلاق الرذيلة والسيئة، وأنّه ليس مجبوراً على إحداهما ولا فاقداً لاختياره تجاههما.

فإذا كان الأمر كذلك، فما هو الطريق الذي ينبغي أن يسلكه لتجنّب مساوئ الأخلاق ورذائلها، وليتحلّى بمحاسنها وفضائلها؛ ليصل إلى تلك الغاية الحميدة التي بُعث من أجلها النبي الخاتم صلّى الله عليه وآله والتي لخّصها بقوله: «**إنّما بُعثت لأُتمّم مكارم الأخلاق**»[1] وعلى رواية «**إنّما بعثت بمحاسن الأخلاق**»[2]؟

---

(١) **مستدرك الوسائل**: ج١١ ص ١٨٧ رقم ١٢٧٠١ .

(٢) **مجمع الزوائد**، دار الكتاب العربي: ج٨ ص ٢٣ .

وقبل الإجابة على هذا التساؤل لابدّ من الإشارة إلى مقدّمة مهمّة في المقام، حاصلها: أنّ هناك علاقة وطيدة بين العلم والاعتقاد القلبي من جهة وبين العمل الذي يصدر من الإنسان من جهة أُخرى. وبتعبير آخر: إنّ هناك نحواً من السنخية بين العلم والعمل؛ قال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾(١) «فالآية الكريمة ترتّب عمل الإنسان على شاكلته بمعنى أنّ العمل يناسبها ويوافقها، فهي بالنسبة إلى العمل كالروح السارية في البدن الذي يمثّل بأعضائه وأعماله هيئات الروح المعنوية.

وقد تحقّق بالتجارب والبحث العلمي أنّ بين الملكات والأحوال النفسانية وبين الأعمال رابطة خاصّة، فليس يتساوى عمل الشجاع الباسل والجبان إذا حضرا موقفاً هائلاً، ولا عمل الجواد الكريم والبخيل اللئيم في موارد الإنفاق وهكذا»(٢).

وهذه الحقيقة أشار إليها القرآن الكريم في مواضع كثيرة حيث «استدلّ تعالى على كفر اليهود وعلى فساد ضمير المشركين وعلى نفاق المنافقين من المسلمين وعلى إيمان عدّة من الأنبياء والمؤمنين بأعمالهم وأفعالهم في آيات كثيرة يطول ذكرها، فالعمل كيف كان يلازم ما يناسبه من العلم ويدلّ عليه»(٣). وعلى هذا الأساس تتّضح هذه الحقيقة القرآنية؛

---

(١) الإسراء: ٨٤.
(٢) **الميزان في تفسير القرآن**، ج١٣، ص١٨٩.
(٣) المصدر السابق، ج٣، ص٦٥.

حيث قال تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾(١).

من هنا نثبت أنّ الله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يصدر منه الظلم، لا لعدم قدرته على ذلك، بل لعدم انسجام ومسانخة الظلم له عزّ وجلّ. وهكذا لا تصدر عن المعصوم عليه السلام معصية، لا لأنّه غير قادر على ارتكابها، بل لعدم انسجامها مع ذاته المطهّرة التي لا يصدر عنها إلاّ العمل الصالح.

ثمّ إنّه كما أنّ كلّ علم واعتقاد قلبي يترشّح منه نوع من العمل يناسب ذلك العلم، كذلك العكس، فإنّ كلّ نوع من العمل صالحاً كان أو طالحاً فإنّه يركّز ويحصّل في النفس نوعاً خاصّاً من العلم والاعتقاد يناسبه وينسجم معه؛ قال تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾(٢)، وقال أيضاً: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾(٣). هذا في العمل الصالح، وأمّا في العمل الطالح فقال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾(٤) وقال أيضاً: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾(٥)؛ لذا ورد عن الإمام

(١) الأعراف: ٥٨.
(٢) الحجر: ٩٩.
(٣) فاطر: ١٠.
(٤) الروم: ١٠.
(٥) التوبة: ٧٧.

الصادق عليه السلام: «**لا يثبت الإيمان إلاّ بالعمل**»[(١)].

وورد أيضاً: «**قليل يدوم خيرٌ من عمل كثير منقطع**»[(٢)] وما ذلك إلاّ لأنّ أثر القليل الدائم أكثر بكثير من أثر الكثير المنقطع.

فتحصّل أنّ الإنسان إذا أراد أن يتخلّق بأخلاق الله وأن يصدر منه العمل الصالح، عليه أوّلاً أن يصحّح اعتقاداته القلبية، وإلاّ إذا كان الاعتقاد فاسداً، فإنّه لا يصدر عنه إلاّ العمل السيئ ﴿وَالَّذي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إلاَّ نَكِداً﴾، لذا ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إنّ العمل القليل الدائم على اليقين أفضل عند الله من العمل الكثير على غير يقين**»[(٣)].

وإنّه إذا أراد «اكتساب الأخلاق الفاضلة وإزالة الأخلاق الرذيلة فلا يمكنه تحقيق ذلك إلاّ بتكرار الأعمال الصالحة المناسبة لها ومزاولتها والمداومة عليها، حتّى تثبت في النفس من الموارد الجزئية علوم جزئية، وتتراكم وتنتقش في النفس انتقاشاً متعذّر الزوال أو متعسّرها»[(٤)].

وعلى هذا لو أراد الإنسان أن يكون شجاعاً مثلاً فلابدّ له من اقتحام موارد الشجاعة والاستمرار عليها، لتنتقش في نفسه وتثبت له،

---

(١) **تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة**، مصدر سابق ج١٥ ص١٦٨ الحديث ٦.

(٢) **عيون الحكم والمواعظ**، دار الحديث، قم، ص ٣٧٠ / ٦٢٤٤ .

(٣) المصدر نفسه: ج١٥، ص٢٠٢، الحديث ٦.

(٤) **الميزان في تفسير القرآن**: ج١ ص٣٥٤.

وإلاّ لو تكلّم ما تكلّم في مدح الشجاعة وفضلها والجزاء المترتّب عليها ولم يزاولها لما أصبح شجاعاً، لأنّ مثل هذا الإنسان لا يعرف من الشجاعة إلاّ «الاصطلاح» ولا قيمة لذلك بمفرده، ولا لحمل الأسفار دون العمل بها؛ قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(١).

مسالك التهذيب

بعد أن اتّضحت هذه المقدّمة، ذكر الأعلام أنّ هناك مسالك ثلاثة لتهذيب الأخلاق الإنسانية وإصلاحها:

المسلك الأوّل: تهذيب الأخلاق بالغايات الصالحة الدنيوية

ويبتني هذا المسلك على حثّ الإنسان ودفعه وإيجاد الداعي فيه إلى القيام بالأعمال الحسنة وإلى إصلاح نفسه من خلال الجزاء والمصالح الدنيوية من جاه أو مال أو ثناء أو ذكر حسن، وعلى تحذيره من القيام بالأعمال السيّئة وذمّها من خلال بيان المساوئ والمضارّ الدنيوية المترتّبة عليها.

ولهذا الجزاء المترتّب على العمل خصوصيتان، هما:

---

(١) الجمعة: ٥.

الأولى: أنّه جزاء دنيوي، ومن الواضح أنّ مثل هـذا الجـزاء مهمـا طال به الزمن فهو منقطع الآخر وإلى زوال.

الثانية: أنّه جزاء اعتباري لا حقيقي، فالثناء الجميل والذكر الحسـن والسمعة الطيبة وما شـاكل ذلـك كلّهـا أمـور اعتباريـة لتنظـيم الحيـاة الاجتماعية ليس إلاّ.

ومع هذا، فلو رجع الإنسان إلـى واقعـه لوجـد الكثيـر منّـا يقـوم بجملة من أعماله ـ شاء أم أبى ـ لأجل هذا الجزاء، بشهادة أنّه لـو لـم يترتّب على أعماله ذلك الثناء الجميل والمدح لشخصـه ولـم يتحقّـق ذلك البُعد له لترك العمـل ولـم يـداوم عليـه، ولا يشـذّ عـن هـذا إلاّ الأوحدي من الناس الذي يقول: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُـمْ لِوَجْـهِ اللَّـهِ لاَ نُرِيـدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُورًا﴾[1].

ولأضرب لذلك مثالاً عن نفسي، فلو درّس أحـد درس الأخـلاق في نفس هذا المكان، وكان من حيـث المسـتوى والإمكانيـة العلميـة بنفس الدرجة التي أنا عليها ـ لكـي لا أجـد فـي ضـعفه مبـرّراً لعـدم ارتياحي ـ أقول: لو جاء مثل هـذا الأسـتاذ وذهـب أكثـر طلاّبنـا إليـه وحضروا درسه ولم يبق معي إلاّ ثلاثة أو أربعة طـلاّب، فهـل أتـأذّى وأشعر بعدم الراحة أم لا؟ لا أدري، فإذا كـان الأمـر مرتبطـاً بتكليـف إلهي وبخدمة الناس، فإنّ هؤلاء قد استبدلوا بي شخصـاً آخـر مثلـي، وجزاهم الله خيراً إذ رفعوا المسؤولية عن عنقـي مـع حصـولي علـى

(١) الدهر: ٩.

الثواب و«**نيّة المرء خير من عمله**»[١]، فهل ينبغي لي أن أتأذّى أم أفرح؟ ومَنْ منّا يفرح؟ فهل نحن نعمل لمعارف أهل البيت عليهم السلام حقّاً أم لأجل السمعة؟ امتحن نفسك، وقف عندها طويلاً، ولا تذهب إلى مكان بعيد، فإنّ الكثير منّا مبتلٍ بهذا وقد لا يلتفت إليه.

وللشيخ المطهريّ قدس سره كلمة قيّمة هنا، إذ يقول: «كثير من الناس يحبّ الإسلام ولكن بشرط أن يكون هو حجّة الإسلام، فلو قال غيره هذا الإسلام الذي يقوله هو لا يقبله».

ومن هنا قال الإمام الخميني قدس سره: (لو اجتمع الأنبياء جميعاً في مكان واحد لما اختلفوا، لأنّه لا أحد منهم يقول: «أنا»، بل كلّ منهم يقول: «هو»، و«هو» واحد فلا معنى لأن يقع الاختلاف بينهم، بل يقع التنازع والاختلاف حينما تصير الأعمال للـ «أنا» وهي متعدّدة). والقرآن صريح في ذلك: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾[٢]، وهذا ضابط مهمّ وخطير يضعه القرآن الكريم بيدك لتعرف هل العمل من عند الله عزّ وجلّ أو من عند غيره.

ولابد من التنبيه هنا، أنّ الاختلاف المرفوض الذي نتحدّث عنه هو الاختلاف الذي ينشأ بين المؤمن وأخيه المؤمن داخل الأمّة الواحدة وذلك بفعل «الأنا» وإلاّ فإنّ الاختلاف بين الحق والباطل هو من وظائف وتكاليف المسلم؛ يقول تعالى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ

(١) **المحاسن** للبرقي، دار الكتب الإسلامية، قم : ٢٦٠ / ٣١٥.
(٢) النساء: ٨٢.

بَيْنَهُمْ﴾(١).

وعلى كلّ حال، فإنّ منشأ الاختلاف داخل الأمّة الصالحة هو «الأنا»، ولعلمائنا قول: بأنّ هذه «الأنا» هي التي أسقطت إبليس عن ذلك المقام الرفيع، فقد صلّى إبليس قبل سقوطه ركعتين لله في السماء في ستّة آلاف سنة، يقول أمير المؤمنين عليه السلام عنها: «**لا يُدرى أمن سني الدنيا أم من سني الآخرة**»(٢) التي لو حوّلت إلى أيّام حسب ما نعدّ ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾(٣) لكانت أمراً خيالياً، حتى لو فرضنا أنها (الستّة آلاف) كانت هي الواقع لا أنّها لكثرة وأنّ الواقع كان أكثر منها بكثير، ومع ذلك فإنّ هذا الذي صدر منه مثل هذا العمل، طلب منه سبحانه وتعالى طلباً حيث أمره بالسجود لآدم عليه السلام، فقال في جوابه «أنا» فأسقطته «أناه» من ذلك المقام.

كلّ ذلك لنعتبر نحن فلا نفكّر بأننا قد ضمنّا لأنفسنا ضماناً بما نعمله من أعمال نعتقد بأنّها مانعتنا عن السقوط، فإن «أنا» واحدة تُسقط وتُحبط كلّ عمل عمله الإنسان مهما امتدت سنواته، وبالعكس فقد يطوي الإنسان من خلال عمل واحد صغير مسافة الألف سنة بخطوة واحدة، فلا تتصوّروا بأنّ الإنسان يصل بكمّ أعماله؛ في الحديث القدسيّ: «.. **من تقرّب إليّ شبراً تقرّبت إليه ذراعاً، ومن تقرّب**

---

(١) الفتح: ٢٩.

(٢) **نهج البلاغة**، ص٢٨٧ ، الخطبة القاصعة.

(٣) الحج: ٤٧.

إليّ ذراعاً تقرّبت إليه باعاً، ومن تقرّب إليّ باعاً مشيت إليه هرولةً»[١] فقد يدخل الإنسان إلى المسجد وهو كافر فاجر من أهل النار بنيّة صالحة فيتحوّل إلى مؤمن صالح، ويخرج آخر وهو كافر فاجر وإلى النار وقد دخل مؤمناً صالحاً.

فلا الكمّ منظور في الأعمال ولا صورتها وظاهرها بل المدار على نيّة العمل وحقيقته وباطنه. وعلى هذا تفسّر ضربة عليّ عليه السلام يوم الخندق التي ساوت عبادة الثقلين ـ وفي بعض الروايات فضّلتهما ـ وما ذلك إلاّ بسبب باطن عمل الإمام عليه السلام ونيّته وإخلاصه، وإلاّ قد لا تفرق تلك الضربة من حيث الظاهر والعمل الخارجي عن ضربة أيّ شخص آخر يضربها ويقتل بها عمر بن عبد ودّ.

واعلموا أنّ الإخلاص في العمل كالكبريت الأحمر في ندرته، ولا إخلاص إلاّ بمعرفة ولذا قال عليّ عليه السلام: «**أوّل الدين معرفته**»[٢]. والمطلب أخطر ممّا قد يُتصور، ويشتدّ فيمن يريد سلوك طريق العلم والعلماء «**إذ يغفر [الله] للجاهل سبعين ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنباً واحداً**»[٣] وقد يكتفى بالعدد المعلوم من الركعات وبصيام ثلاثين يوماً وآيتين من القرآن الكريم بالنسبة لعوام الناس ولا يكون ذلك كافياً لطالب العلم، لأنّ المعرفة إذا اختلفت اختلف الحساب.

---

(١) **صحيح البخاري**، باب ما جاء في دعاء النبي صلى الله عليه وآله.

(٢) **نهج البلاغة**، الخطبة الأولى .

(٣) **خاتمة المستدرك** للنوري، تحقيق مؤسسة آل البيت لإحياء التراث: ج٥ ص٢٤٧.

«وهذا المسلك هو المأثور من بحث الأقدمين من يونان وغيرهم فيه (أي في علم الأخلاق). ولم يستعمل القرآن هذا المسلك الذي بناؤه على انتخاب الممدوح عند عامّة الناس عن المذموم والأخذ بما يستحسنه الاجتماع وترك ما يستقبحه...»[١].

فهو إذن مسلك الفلاسفة وعلماء الأخلاق السابقين ولم يستعمله القرآن، والسرّ في ذلك أنّ القرآن الكريم لا يمكن أن يدعو الناس إلى هذا الأمر على أساس دنيوي وجزاء زائل اعتباري.

كما أنّ مثل هذا الأساس إنّما يصلح ظاهر العمل لا باطنه فإنّ الثناء الجميل والذكر الحسن ـ مثلاً ـ يتوقّف على ظاهر العمل لا باطنه، ومثل هذا مثل ذلك الشخص الذي كان يصلّي في المسجد ويحسن القراءة، حتّى إذا مدح قراءته من كان جالساً إلى جواره التفت إليه قائلاً: وأنا مع ذلك صائم، فلأنّه كان يعيش مع الظاهر اضطرّ إلى إعطاء الظاهر والتصريح به مع أنّ حقيقة الجزاء تكمن في باطن العمل لا ظاهره.

وهاهنا مسألة مهمّة لابدّ من الإشارة إليها، وهي أنّ الإسلام لم يهمل ظاهر العمل، كما قد يتبادر إلى ذهن بعض الناس، بل أوجد له قوانين محكمة ودقيقة ثمّ وجّه الإنسان بعد ذلك إلى اتخاذ هذا الظاهر معبَراً إلى الحقيقة وإلى بواطن الأعمال.

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ج١ ص٣٥٥.

المسلك الثاني: تهذيب الأخلاق من خلال الغايات الأخروية

ويبتني هذا المسلك على دعوة الإنسان وحثّه على الاتّصاف بالخصال الحسنة والحميدة وعلى اجتناب العادات الرديئة والسيّئة، وذلك من خلال الجزاء الأخروي ثواباً أو عقاباً.

فهاهنا، كما في المسلك الأوّل، تجارة وعوض ومعوض. غاية الأمر أنّ العوض قد يكون معجّلاً ومرتبطاً بالدنيا كما في المسلك الأوّل، وقد يكون مؤجّلاً ويعطى للإنسان في الآخرة كما هو في المسلك الثاني.

والظاهر أنّ أغلب الناس لا يعتني بالعوض المؤجَّل لأنّهم طُبعوا على حبّ الثمن المعجّل والاهتمام به وإن كان أقلّ قيمة بل لا قيمة له بالنسبة إلى المؤجّل، كما في العوض الدنيوي بالنسبة للأخروي! قال الله تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ﴾[١].

وعلى كلّ حال فإنّ للجزاء الأخروي خصوصيتين مهمّتين أيضاً هما:

الأولى: أنّه يُصلح ظاهر العمل وباطنه لأنّ المجازي هو الله سبحانه وتعالى الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء. فعن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «... **فإنّ الشاهد هو الحاكم**..»[٢].

(١) القيامة: ٢٠، ٢١.

(٢) **نهج البلاغة**، الكلمات القصار: ص ٣١٦.

فالحاكم يوم القيامة هو الشاهد في هذا العالم وفي هذه النشأة؛ ولذا قال النبي صلى الله عليه وآله: «**اعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك**»(١).

فعلى الإنسان عبادة الله تعالى كأنّه يراه إن لم يستطع الوصول إلى مقام أن يرى الله شاهداً في كلّ شيء ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(٢) أي: أولم يكف بربّك أنّه على كلّ شيء مشهود، فالله تعالى مشهود في كلّ شيء ولكن لعمى بصائرنا لا نراه، ولذا قال علماؤنا في تفسير قول إمام العارفين، الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: «**عميت عين لا تراك عليها رقيباً**»(٣) : إنّ هذا ليس دعاءً بل هو قضية إخبارية، وإنّ الإمام عليه السلام يقول: إنّ من لا يراك فهو أعمى.

وحين سأل ذعلب اليماني أمير المؤمنين عليه السلام: هل رأيت ربّك، يا أمير المؤمنين؟ قال عليه السلام: «**أفأعبد ما لا أرى؟**» فقال: وكيف تراه؟ فقال: «**لا تدركه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان...**»(٤) فهو عزّ وجلّ مشهود بالبصيرة وبالقلب لا بالعين المادية.

---

(١) **مصباح الشريعة**، مؤسسة الأعلمي، بيروت: ص ٨ .

(٢) فصلت : ٥٣.

(٣) **مفاتيح الجنان**، دعاء عرفة.

(٤) **نهج البلاغة**، ص ٢٥٨ ، الخطبة ١٧٩ .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**ما من قلب إلاّ وله عينان وأذنان فإذا أراد الله بعبد خيراً فتح عينيه اللتين هما للقلب ليشاهد بهما الملكوت**»(١) وعن السجّاد عليه السلام: «**ألا إنّ للعبد أربع أعين، عينان يبصر بهما أمر دينه ودنياه، وعينان يبصر بهما أمر آخرته، فإذا أراد الله بعبد خيراً فتح له العينين اللتين في قلبه فأبصر بهما الغيب في أمر آخرته**»(٢) وهو الملكوت الذي عُبّر عنه في الآية المباركة ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾(٣) فقد حصل إبراهيم عليه السلام على اليقين من رؤيته ملكوت السماوات والأرض، فإذا أبصر الإنسان هذا الملكوت وصل إلى مقام اليقين الذي تحدّثت عنه الروايات الشريفة. ولكن كيف يرى الإنسان ملكوت السماوات والأرض؟

والجواب: إنّ هذه الرؤية لا يمكن أن تتمّ إلاّ من خلال تنقية القلب وتطهيره؛ ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾(٤) وفي نسبة العمى إلى القلب دليل على أنّ للقلب إبصاراً حسب نسبة الملكة وعدمها، وعلى هذا فقد يرى الإنسان ما حوله ويقول: هذه عيني أرى فيها كلّ شيء، فيقال له: إنّك لا ترى شيئاً؛

---

(١) **تفسير المحيط الأعظم والبحر الخضم** للسيّد حيدر الأمين، حقّقه وقدّم له وعلّق عليه السيّد محسن الموسوي التبريزي ج١ ص٢٧٢.

(٢) **الخصال**: ج ١، ص٢٤٠ ، ح٩٠ .

(٣) الأنعام: ٧٥.

(٤) الحج: ٤٦.

يقول تعالى: ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾[١] لأنّها رؤية لا تتمّ بهذه الأعين الظاهرية الموجودة حتّى للحيوانات، بل هي أعين القلب ولذا فإنّهم لا يبصرون بها. وهكذا قوله تعالى ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم ما كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٢].

الثانية: أنّه جزاء دائم لأنّه جزاء أخروي والآخرة لا تزول لأنّها باقية بإرادة الله سبحانه وتعالى.

«وهذا المسلك في إصلاح الأخلاق هو طريقة الأنبياء، ومنه شيء كثير في القرآن وفيما ينقل إلينا من الكتب السماوية»[٣]، فالقرآن الكريم لم يتجاوز هذا المسلك بل اعتبره طريقاً جيّداً لإصلاح النفوس من خلال الترهيب والتحذير من النار والترغيب في الجنّة.

وهناك آيات كثيرة أشارت إلى هذه الطريق.

• قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾[٤].

والباء في «بأنّ» للمقابلة، لذا ورد عن الإمام علي عليه السلام: «**إنه ليس لأنفسكم ثمن إلا الجنّة فلا تبيعوها إلا بها**»[٥] لا بدراهم معدودة أو

(١) الأعراف: ١٧٩.

(٢) المطففين: ١٤.

(٣) **الميزان في تفسير القرآن**، ج١، ص٣٥٨.

(٤) التوبة: ١١١.

(٥) **نهج البلاغة**، ص٥٥٦ .

رئاسة أو جاه محدود وما إلى ذلك من العناوين الاعتبارية التي نتقاتل عليها كلّ يوم صباحاً ومساءً.

- وقال أيضاً: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[١].
- وقال أيضاً: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٢].
- وقال أيضاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾[٣].

كما أنّ هناك كثيراً من الروايات التي تعضد الآيات المباركة في تأييد هذا المسلك، وستأتي الإشارة إليها فيما بعد.

وهذا المسلك هو الغالب على الناس في تهذيب أخلاقهم وإصلاحها؛ قال الطباطبائي في تفسيره: «وطباع الناس مختلفة في إيثار هذه الطرق الثلاثة واختيارها، فبعضهم ـ وهو الغالب ـ يغلب على نفسه الخوف، وكلّما فكّر فيما أوعد الله الظالمين والذين ارتكبوا المعاصي والذنوب من أنواع العذاب الذي أعدَّ لهم، زاد في نفسه خوفاً، ولفرائصه ارتعاداً ويساق بذلك إلى عبادته خوفاً من عذابه، وبعضهم يغلب على نفسه الرجاء، وكلّما فكّر فيما وعده الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات من النعمة والكرامة وحسن العاقبة زاد رجاءً وبالغ في التقوى والتزام الأعمال الصالحات طمعاً في المغفرة

(١) الزمر: ١٠.
(٢) إبراهيم: ٢٢.
(٣) آل عمران: ٤.

والجنّة»[١].

من هنا نجد أنّ تلامذة الأئمّة عليهم السلام كانوا يطلبون منهم أن يرغّبوهم في الجنّة ويشوّقوهم إليها، أو يخوّفوهم من النار.

عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: جعلت فداك يابن رسول الله، شوّقني إلى الجنّة، فقال: «**يا أبا محمد إنّ من أدنى نعيم الجنّة يوجد ريحها من مسيرة ألف عام من مسافة الدّنيا وإنّ أدنى أهل الجنّة منزلاً لو نزل به أهل الثقلين الجنّ والإنس لوسعهم طعاماً وشراباً ولا ينقص ممّا عنده شيء...**»[٢].

فللجنّة درجات بعدد آيات القرآن الكريم، حسب ما ورد في الروايات الشريفة، ولذا يقال للعبد يوم القيامة: «**اقرأ وارقَ**»[٣]، ولا يتصوّر بعضٌ أنّ المراد هو حفظ الآيات، وإلاّ قد يتفوّق بعض النواصب على كثير من شيعة أهل البيت عليهم السلام لكثرة حفظهم، بل المراد هنا أنّ ذاك العلم بالآيات قد صار عملاً، كما أشرنا إلى ذلك بحوثنا عن التوحيد العملي.

أضاف الإمام عليه السلام في وصف الجنّة: «**... وإنّ أيسر أهل الجنّة منزلة من يدخل الجنّة فيرفع له ثلاث حدائق، فإذا دخل أدناهنّ رأى فيها من الأزواج والخدم والأنهار والأثمار ما شاء الله ممّا يملأ عينه قرّة**

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**، ج١١، ص١٥٨.
(٢) **تفسير القمي**، نشر مكتبة الهدى، قم ٢ : ٨٢ .
(٣) **أمالي الصدوق** : ج ٤٤٠ ص ٥٨٦ .

وقلبه مسرّة، فإذا شكر الله وحمده، قيل له ارفع رأسك إلى الحديقة الثانية»[١].

فالشكر إذن سبب لزيادة العطاء الإلهي حتّى في الآخرة؛ قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾[٢] فهو سبب ارتقاء الإنسان في مراتب الجنّة ودرجاتها.

ثمّ أضاف الإمام عليه السلام: «فيقول يا ربّ اعطني هذه، فيقول الله تبارك وتعالى: إن أعطيتك إيّاها سألتني غيرها. فيقول: ربّي هذه هذه»[٣] إذ لا حدّ لطمع الإنسان؛ باعتبار حبّه للكمال المطلق فكلّما يُعطى يريد المزيد.

ثمّ قال عليه السلام: «فإذا هو دخلها شكر الله وحمده أيضاً، فإذا شكر الله وحمده، فيقال: افتحوا له باب الجنّة، ويقال له: ارفع رأسك هذه الحديقة الثالثة، فإذا فتح له باب من الخلد ويرى أضعاف ما كان فيه، قيل: فيقول عند تضاعف مسرّاته: ربّي لك الحمد الذي لا يحصى إذ مننت عليَّ بالجنان ونجيتني من النيران».

قال أبو بصير: فبكيت، ثمّ قلت: جعلت فداك زدني، قال: «يا أبا محمد إنّ في الجنّة نهراً في حافته جوار نابتات إذا مرّ المؤمن بجارية

(١) تفسير القمي: ج٢ ص ٨٢.
(٢) إبراهيم: ٧.
(٣) تفسير القمي: ج٢ ص ٨٢.

أعجبته، قلعها وأنبت الله مكانها...»[(١)]. فلا ينقص عطاء الله بل لا تزيده كثرة العطاء إلاّ جوداً وكرماً، إذ كلّ ما وجد جوع وعطش وطلب وحاجة يوجد هناك عطاء وجود وكرم.

إلى أن يقول السائل: قلت: جُعلت فداك، ألهنّ كلام يكلّمن به أهل الجنّة؟ قال: «نعم، كلام يتكلّمن به لم يسمع الخلائق بمثله». قلت: ما هو؟ قال: «يقلن: نحن الخالدات فلا نموت، ونحن الناعمات فلا نبؤس ونحن المقيمات فلا نضعن ونحن الراضيات فلا نسخط، طوبى لمن خلق لنا وطوبى لمن خلقنا له، نحن اللواتي لو قرن إحدانا عُلّق في جوّ السماء لأغشى نوره الأبصار»[(٢)].

وفي رواية ليلة المعراج، أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال: «لما أُسري بي إلى السماء دخلت الجنّة فرأيت فيها قيعان ورأيت فيها ملائكة يبنون لبنة من ذهب ولبنة من فضّة، وربّما أمسكوا، فقلت لهم: ما بالكم قد أمسكتم؟ فقالوا: حتّى تجيئنا النفقة. فقلت: وما نفقتكم؟ قالوا: قول المؤمن: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر، فإذا قال بنينا، وإذا سكت أمسكنا..»[(٣)].

وحين استبشر أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله بهذا الخبر وظنّوا أنّ قصورهم في الجنّة كثيرة، قال لهم رسول الله صلى الله عليه

---

(١) تفسير القمي: ج ٢ ص ٨٢.
(٢) تفسير القمي: ج٢ ص ٨٢ ـ ٨٣.
(٣) البحار: ج١٨، ص٢٩٢.

وآله: «**إياكم أن ترسلوا عليها ناراً فتحرقوها!**»[١].

ثمّ قال: «... فهاتان الآيتان، قوله ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾، قال: **التوحيد والإخلاص**... وقوله: ﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾[٢] قال: **الولاية**»، فالهدف إذن هو التوحيد والطريق هو الولاية، ولذا ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**أنا الصراط المستقيم**»[٣] فهو عليه السلام الصراط المستقيم الناطق.

المسلك الثالث: الحبّ الإلهي

قال الطباطبائي قدس سره: «وهاهنا مسلك ثالث مخصوص بالقرآن الكريم لا يوجد في شيء ممّا نقل إلينا من الكتب السماوية، وتعاليم الأنبياء الماضين سلام الله عليهم أجمعين، ولا في المعارف المأثورة من الحكماء الإلهيين، وهو تربية الإنسان وصفاً وعلماً باستعمال علوم ومعارف لا يبقى معها موضوع الرذائل، وبعبارة أُخرى إزالة الأوصاف الرذيلة بالرفع لا بالدفع»[٤].

ولكي يتّضح هذا المسلك لابدّ من بيان مقدّمة حاصلها: أَنَّ طريقة التهذيب تتمّ تارة من خلال وجود المانع، وأُخرى من خلال رفع

(١) **أمالي الصدوق**: ص٦٠٧، ح١٦ المجلس ٨٧.
(٢) الحج: ٢٤.
(٣) نوادر **المعجزات** للطبري، نشر وتحقيق مدرسة الإمام المهدي ، قم، ١٤١٠، ص٣٣.
(٤) **الميزان**، للطباطبائي، ج١، ص٣٥٨.

المقتضي.

فقد يريد الإنسان جاهاً أو عزّاً أو ملكاً أو سمعة حسنة في هذه الدنيا، ويتصوّر أنّ بإمكان الله سبحانهُ وتعالى إعطاء هذه الأمور له كما أنّ بإمكان غير الله تبارك وتعالى ذلك، فيميل وحسب طبعه إلى ما في أيدي الناس، فيأتيه التحذير، بأنّك سوف تخسر وتُعذَّب يوم القيامة فيكون العذاب مانعاً عن توجّه النفس إلى ما في أيدي الناس، وهكذا يكون المقتضي للتوجّه إلى ما عند الناس موجود ولكن المانع غير مفقود، وهذا من قبيل الورقة المبتلة بالماء التي لا تحترق بالنار، لا لعدم وجود المقتضي، فاقتضاء الإحراق موجود في النار، بل لوجود المانع وهو البلل، وكما أَنَّ تهذيب النفس وإصلاحها يمكن أن يكون بإيجاد المانع من خلال الترهيب فإنّه يمكن أن يكون من خلال الترغيب أيضاً فيُقال لمن يرجو ويرغب بما في أيدي الناس، بأنّ هذا الذي ترجوه محدود ومنقطع وزائل وعليك أن تستبدله بأجر أفضل منه وهو أجر الآخرة الباقي الدائم الذي عند الله تبارك وتعالى ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾[1].

إنّ خصوصية إبداء المانع مع وجود المقتضي هي خصوصية المسلك الثاني ، أمّا المسلك الثالث الذي نحن فيه، فإنّه يقوم على أساس اقتلاع أصل وجود المقتضي في الإنسان لا أن يزاحمه بالمانع المخوف أو المرغب.

---

(١) النحل: ٩٦.

ويتقوّم هذا المسلك بركنين:

الركن الأوّل: هو ركن المعرفة والعلم وذلك بأن يعطى الإنسان علوماً ومعارف توصله إلى التوحيد الخالص، فمن أراد العمل فعليه أن يعرف الله أوّلاً «**أوّل الدين معرفته**» فيعرف أنّ العزّة والقوّة والملك لله وحده تبارك وتعالى، وأنّه لا يوجد شيء في العالم صغر أو كبر، هان أو عظم، إلاّ بإذنه تبارك وتعالى، وحينئذ لن يتوجّه مثل هذا الإنسان إلى الناس وإلى ما في أيديهم لأنّه يعرف حقّ المعرفة أنّ الغني منهم لا يملك ولا يعطي ولا يمنع إلاّ بإذن الله، فلا يرجوه، وأنّ القوي منهم لا يعزّ ولا يذلّ ولا يضرّ ولا ينفع إلاّ بإذن الله، فلا يخافه، ومن هنا ورد في الرواية عنهم عليهم السلام: «**من خاف الله أخاف الله منه كلّ شيء ومن لم يخف الله أخافه الله من كلّ شيء**»(١).

وقد بيّن العلاّمة قدس سره هذا الركن، قال: «.. وهو تربية الإنسان وصفاً وعلماً باستعمال علوم ومعارف لا يبقى معها موضوع الرذائل وذلك كما أن كلّ فعل يراد به غير الله سبحانه فالغاية المطلوبة منه إمّا عزّة في المطلوب يطمع فيها، أو قوّة يخاف منها ويحذر عنها، لكن الله سبحانه يقول: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾(٢)، ويقول: ﴿إِنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾(٣)، والتحقّق بهذا العلم الحقّ لا يبقى موضوعاً لرياء، ولا

(١) **وسائل الشيعة**، ج١٥، ص٢١٩، الحديث ٤.
(٢) يونس: ٦٥.
(٣) البقرة: ١٦٥.

سمعة، ولا خوف من غير الله، ولا رجاء لغيره، ولا ركـون إلـى غيـره، فهاتان القضيتان إذا صارتا معلومتين للإنسان تغسلان كلّ ذميمة وصفاً أو فعلاً عن الإنسان وتحلّيان نفسـه بحليـة مـا يقابلهـا مـن الصـفات الكريمة الإلهية من التقوى بـالله، والتعـزّز بـالله وغيرهمـا مـن مناعـة وكبرياء واستغناء وهيبة إلهية ربّانية.

وأيضاً قد تكرّر فـي كلامـه تعـالى: أن الملـك لله، وأن لـه ملـك السماوات والأرض وأن له ما في السـماوات والأرض وقـد مـرّ بيانـه مراراً، وحقيقة هذا الملك كما هو ظاهر لا تبقي لشيء من الموجودات استقلالاً دونه، واستغناء عنه بوجه مـن الوجـوه، فـلا شـيء إلاّ وهـو سبحانه المالك لذاته ولكل مـا لذاتـه، وإيمـان الإنسـان بهـذا الملـك وتحقّقه به يوجب سقوط جميع الأشياء ذاتاً ووصفاً وفعلاً عنـده عـن درجة الاستقلال، فهذا الإنسان لا يمكنه أن يريد غير وجهه تعالى، ولا أن يخضع لشيء، أو يخاف أو يرجو شيئاً، أو يلتذّ أو يبتهج بشيء، أو يركن إلى شيء أو يتوكّل على شيء أو يسلّم لشـيء أو يفـوّض إلـى شيء، غير وجهه تعالى، وبالجملة لا يريـد ولا يطلـب شـيئاً إلاّ وجـه الحقّ الباقي بعد فناء كلّ شيء، ولا يعرض إعراضاً ولا يهرب إلاّ عـن الباطل الذي هو غيره الذي لا يرى لوجوده وقعاً ولا يعبأ به قبال الحقّ الذي هو وجود باريه جلّ شأنه»[1].

لذا قال الطباطبائي في موضع آخر: «إذن الواجـب علـى العبـد أن

(١) الميزان، للطباطبائي، ج١ ص٣٥٨ ـ ٣٥٩.

يتوجّه في حوائجه إلى جناب العزّة وباب الكبرياء، ولا يركن إلى سبب بعد سبب، وإن كان أبى الله أن يجري الأمور إلاّ بأسبابها، وهذه دعوة إلى عدم الاعتماد على الأسباب إلاّ بالله الذي أفاض عليها السببية، لا أنّها هداية إلى إلغاء الأسباب والطلب من غير السبب، فهو طمع فيما لا مطمع فيه، كيف والداعي يريد ما يسأله بالقلب، ويسأل ما يريده باللسان ويستعين على ذلك بأركان وجوده، وكلّ ذلك أسباب؟»[1].

وهاهنا نكتة مهمّة، وهي أنّ قولنا: إنّ مثل هؤلاء الناس لا يريدون ولا يطلبون غير وجه الله، لا يعني أنّهم لا يتوسّلون بالأسباب إلى أغراضهم فيجلسون جياعاً ويطلبون الطعام منه عز وجل، وعراة ويطلبون اللباس منه وهكذا، بل عليهم طلب الطعام واللباس وغير ذلك ممّا يحتاجونه في حياتهم الدنيوية مع علمهم بأن لا مؤثّر في طلباتهم هذه وغيرها إلاّ الله تبارك وتعالى.

الركن الثاني: وهو ركن العمل، فبعد أن يتعلّم الإنسان التوحيد وتحصل عنده تلك الملكة العلمية التي أشرنا إليها في الركن الأوّل، عليه أن يتحقّق بالتوحيد العملي، والطريق إلى ذلك هو الحبّ، فلا يحبّ غير الله تعالى، فإنّ الإنسان إذا أحبَّ شيئاً أَطاعه وعبده فإنّ من آثار الحبّ الطاعة والتسليم وهي «العبادة»، فمن أحبَّ الله عبَده ومن

---

(١) **الميزان**، للطباطبائي، ج٢ ص٤٠.

أحبَّ الدنيا الزائلة عبَدها ﴿أَرأيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إلَهَهُ هَوَاهُ﴾[١]. ومن عبد الشيء الزائل فإنّ معبوده سوف يزول يوماً ما ولكن علاقته به لن تزول وسوف يحشر يوم القيامة ومعه تلك العلاقة وذلك الحبّ للمعبود الزائل وسيعيش حرقة الألم اللامتناهي على محبوبه الذي لا وجود له.

ولا يعني هذا حرمة الاستفادة من الدنيا أو أن يملك الإنسان فيها شيئاً ما، فإنّ القرآن الكريم وروايات أهل البيت عليهم السلام لم تحرّم ولم تمنع الإنسان المسلم من أن يتزوّج أو أن يكون له مال أو ولد، بل له كلّ ذلك، بشرط أن لا يتعلّق قلبه بهذه الأمور لأنّها إلى زوال وفناء، ومن هنا قالوا: «ليس الزهد أن لا تملك شيئاً ولكن الزهد أن لا يملكك شيء». وفي قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[٢] إشارة إلى أنّ نيل البرّ لا يتمّ حتّى ينفق الإنسان ممّا يحبّه بحيث لا يستطيع هذا الشيء الذي يحبّه أن يتملّكه فيكون عبده ولا يتمكّن من إنفاقه في سبيل الله.

وفي ذيل هذه الآية المباركة، يقول الفيض الكاشاني: هناك قراءة أُخرى في الآية وهي «لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حتَّى تُنفِقوا مَا تُحِبُّون»[٣] لا ﴿مِمَّا

(١) الفرقان: ٤٣.

(٢) آل عمران: ٩٢.

(٣) **تفسير الصافي**، تأليف فيلسوف الفقهاء وفقيه الفلاسفة أستاذ عصره ووحيد دهره المولى محسن الملقب بـ«الفيض الكاشاني» المتوفى سنة ١٠٩١ هـ، ج١

تُحِبُّونَ﴾، فشرط نيل البرّ ـ على هذه القراءة ـ هو إنفاق كلّ ما يحبّ الإنسان لا بعض ما يحبّه! فمن لم يستطع أن يكون من هذه الطبقة فلا أقلّ يعمل على أن يكون من طبقة ﴿ممّا تحبّون﴾.

والخلاصة، أنّ على الإنسان أن يجعل قلبه متعلّقاً بالله سبحانه وتعالى وحده ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُل مِن قَلْبَيْنِ في جَوْفِهِ﴾(١) إذ لا يجتمع حبّ الله تبارك وتعالى وحبّ الدنيا في قلب واحد.

وقد أشار العلامة الطباطبائي إلى هذا المسلك وآثاره المترتّبة عليه بقوله: «إنّ العبد إذا أخذ إيمانه في الاشتداد والازدياد انجذبت نفسه إلى التفكير في ناحية ربّه، واستحضار أسمائه الحسنى وصفاته الجميلة المنزّهة عن النقص والشين، ولا تزال تزيد نفسه انجذاباً وتترقى مراقبة حتى صار يعبد الله كأنّه يراه وإنّ ربه يراه، ويتجلّى له في مجالي الجذبة والمراقبة والحبّ، فيأخذ الحبّ في الاشتداد، لأنّ الإنسان مفطور على حبّ الجميل، وقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً للهِ﴾(٢) وصار يتبع الرسول في جميع حركاته وسكناته، لأنّ حبّ الشيء يوجب حبّ آثاره، والرسول من آثاره وآياته كما أنّ العالم أيضاً آثاره وآياته تعالى؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ

ص٣٢٨، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان.

(١) الأحزاب: ٤.

(٢) البقرة: ١٦٥.

فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾(١).

ولا يزال يشتدّ هذا الحبّ ثمّ يشتدّ حتى ينقطع إليه من كلّ شيء ولا يحبّ إلاّ ربّه ولا يخضع قلبه إلاّ لوجهه، فإنّ هذا العبد لا يعثر بشيء ولا يقف على شيء وعنده شيء من الجمال والحُسن إلاّ وجد أنّ ما عنده أنموذج يحكي ما عنده (تعالى) من كمال لا ينفد وجمال لا يتناهى وحسن لا يحدّ، فله الحسن والجمال والكمال والبهاء، وكلّ ما كان لغيره فهو له، لأنّ كلّ ما سواه آية له ليس له إلاّ ذلك، والآية لا نفسية لها وإنّما هي حكاية تحكي صاحبها، وهذا العبد قد استولى سلطان الحبّ على قلبه ولا يزال يستولي، ولا ينظر إلى شيء إلاّ لأنّه آية من آيات ربّه، وبالجملة فينقطع حبّه عن كلّ شيء إلاّ ربّه، فلا يحبّ شيئاً إلاّ لله وفي الله سبحانه.

وحينئذ يتبدّل نحو إدراكه وعمله، فلا يرى شيئاً إلاّ ويرى الله سبحانه قبله ومعه، وتسقط الأشياء عنده من حيّز الاستقلال، فما عنده من صور العلم والإدراك غير ما عند الناس، لأنّهم إنّما ينظرون إلى كلّ شيء من وراء حجاب الاستقلال بخلافه، هذا من جهة العلم. وكذلك الأمر من جهة العمل فإنّه إذا كان لا يحبّ إلاّ الله، فلا يريد شيئاً إلاّ الله وابتغاء وجهه الكريم، ولا يطلب ولا يقصد ولا يرجو ولا يخاف ولا يختار ولا يترك ولا ييأس ولا يستوحش ولا يرضى ولا يسخط إلاّ لله وفي الله، فيختلف أغراضه مع ما للناس من الأغراض، وتتبدّل غاية

(١) آل عمران: ٣١.

أفعاله، فإنّه كان إلى هذا الحين يختار الفعل ويقصد الكمال لأنّه فضيلة إنسانية، ويحذر الفعل أو الخلق لأنّه رذيلة نفسانية. أمّا الآن فإنّه يريد وجه ربّه، ولا همّ له في فضيلة ولا رذيلة ولا شغل له بثناء جميل وذكر محمود، ولا التفات له إلى دنيا أو آخرة أو جنّة أو نار، وإنّما همّه ربّه وزاده ذلّ عبوديّته ودليله حبّه»[1].

وهؤلاء هم العلماء بالله الذين لا يعبدونه خوفاً من عقابه ولا طمعاً في جنّته وإنّما يعبدونه لأنّه أهلٌ للعبادة «وذلك لأنّهم عرفوه بما يليق به من الأسماء الحسنى والصفات العليا، فعلموا أنّه ربّهم الذي يملكهم وإرادتهم ورضاهم وكلّ شيء غيرهم، ويدبّر الأمر وحده وليسوا إلاّ عباد الله فحسب، وليس للعبد إلاّ أن يعبد ربّه ويقدّم مرضاته وإرادته على مرضاته وإرادته، فهم يعبدون الله ولا يريدون في شيء من أعمالهم فعلاً كان أو تركاً إلاّ وجهه. وهذا ما أشارت إليه الروايات الواردة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام.

عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**إنّ العبّاد ثلاثة: قوم عبدوا الله عز وجل خوفاً فتلك عبادة العبيد، وقومٌ عبدوا الله تبارك وتعالى طلب الثواب فتلك عبادة الأجراء، وقوم عبدوا الله عز وجل حبّاً له فتلك عبادة الأحرار وهي أفضل العبادة**»[2].

وفي «العلل» و«المجالس» و«الخصال» عن الصادق عليه السلام

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**: ج١ ص٣٧٣.

(٢) **أصول الكافي** للكليني، ج٢ ص٨٤، كتاب الإيمان والكفر، باب العبادة، ح٥.

أيضاً: «إنّ الناس يعبدون الله على ثلاثة أوجه، فطبقة يعبدونه رغبةً في ثوابه فتلك عبادة الحرصاء وهو الطمع، وآخرون يعبدونه خوفاً من النار فتلك عبادة العبيد وهي رهبة، ولكنّي أعبده حبّاً له عز وجل فتلك عبادة الكرام؛ لقوله عز وجل ﴿وَهُم من فَزَعٍ يَوْمَئذ آمِنُونَ﴾(١) ولقوله عز وجل ﴿قُلْ إن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ فمن أحبّ الله عز وجل أحبّه الله، ومن أحبّه الله كان من الآمنين، وهذا مقام مكنون لا يمسّه إلاّ المطهّرون»(٢).

وقد بيّن القرآن مَنْ هم المطهّرون بقوله ﴿إنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾(٣). وقد أوضحنا مفصّلاً في كتاب «العصمة» أنّ هذه الآية مختصّة بالنبيّ وعلي وفاطمة والحسنين صلوات الله و سلامه عليهم.

ولا يفهم من هذا أن مسلك الحبّ والقرب الإلهي محال على الآخرين، ولا ينبغي لهم اليأس منه، غير أنّه صعب المنال لتوقّفه على معرفة عالية بالتوحيد وإلى تهذيب ورياضات ومجاهدات شاقّة من أجل أن يصل الإنسان إلى مقام ﴿إنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُورًا﴾(٤).

---

(١) النمل: ٨٢.
(٢) نقلاً عن الميزان: ج١، ص٣٧.
(٣) الأحزاب: ٣٣.
(٤) الدهر: ٩.

طبعاً لا يخفى أنّ مقام العصمة والطهارة التي ثبتت لأصحاب الكساء ممّا لا يمكن نيله لأحد غيرهم عليهم السلام لذا قال أمير المؤمنين عليه السلام في النهج: «**إنّ آل محمّد صلّى الله عليه وآله لا يقاس بهم أحد**»[١].

وكيفما كان فإنّ الغالب على الناس هو اتّباعهم مسلك الجزاء الأخروي في تهذيب أخلاقهم وإصلاحها، وإلاّ فهل سيبقون على طاعاتهم وعبادتهم وعلى ارتداعهم عن المعاصي، حتّى لو أمنوا النار أو ضمنت لهم الجنّة؟ ولا أقول هل سيبقون على ذلك حتّى لو علموا بأنّ الله تبارك وتعالى سوف يدخلهم النار، ومن الواضح أنّ هذا مقام لا يصله إلاّ الأوحدي من الناس كالنبي الأكرم وأهل بيته عليهم السلام.

ومع هذا كلّه، فإنّ بإمكان الإنسان أن يروّض نفسه من أجل الارتقاء إلى ذلك المقام العالي، فلا يقرأ دعاءً مثلاً ولا يصلّي صلاة ولا يفعل فعلاً ما ونظره المباشر إلى ثواب تلك الأعمال التي يقوم بها، بل ينظر إلى العمل بذاته وإلى محتواه، وأنّ ما يقوم به هو عبادة لله سبحانه وتعالى قبل كلّ شيء، وهكذا وبتكرار هذا العمل يحصل على الملكات التي تؤهّله لأن يرتقي وأن يصل إلى ما يصبو إليه.

---

(١) **نهج البلاغة**: الخطبة ٢ ، ص ٤٧ .

مناهج بحث الإمامة

بين النظرية والتطبيق

بقلم

الشيخ محمد جواد الزبيدي

المقدّمة

الحاجة إلى بحوث الإمامة حاجة مهمّة ومستمرّة

ممّا لا شكّ فيه أنّ معظم الاختلافات والانقسامات في داخل المجتمع الإسلامي وفي مختلف المجالات الفكرية والسياسية والتأريخية والتي أدّت إلى وقوع حوادث دامية في كثير من الأحيان، إنّما ترجع في جذورها الأساسية إلى الاختلاف في مسائل الإمامة وشرائطها، التي طرحت بصور مختلفة ودوافع متعدّدة لم تزدها في كثير من الأحيان إلاّ غموضاً وتعقيداً.

من هنا كانت الحاجة مستمرّة إلى البحوث العلمية التي تتحرّى الحقيقة في هذه المسائل بعيداً عن التعصّب الأعمى والدوافع والأغراض الباطلة، وتحاول البحث عن العوامل الأساسية التي أدّت إلى وقوع مثل هذا التضارب والاختلاف الخطير في فهم حقيقة الإمامة، والعمل على علاجه، ثمّ وضع هذه النتائج بين يدي من يتطلّع إلى معرفة الحقيقة في هذه المسائل وينشد ضالّته من خلال البحوث العلمية المنصفة فيها.

هـذا، بالإضـافة إلى وجـود العديـد مـن الـدوافع والأهـداف الأخـرى الـتي تستدعي الخوض في بحوث كهذه، ومنها على سبيل المثال:

١ـ إن المـؤمن بحاجـة إلى المزيـد مـن الأدلّـة والـبراهين لبلـورة تصـوّراته وترسيخ معتقداته ليتمكّن بعد ذلك من طرحها والدعوة لها والدفاع عنها.

٢ ـ وجـود المشـكّك الـذي لا هـمّ لـه إلاّ إثـارة الشـبهات حـول الإمامـة ومفاهيمها وإلصاق التُّهم والأباطيل بهـا والـتي لابـدّ مـن الـردّ عليها ودحضـها وتفنيدها.

وهكذا شكّلت هـذه الأمـور وغيرهـا، ممّـا لم يـذكر، دوافـع أساسـية في طـرح مسـألة الإمامـة والاهتمـام ببحوثهـا المختلفـة داخـل الوسـط العلمـي لمدرسـة أهـل البيـت علـيهم السـلام. وجعلـت الحاجـة إلى مثـل هـذه البحـوث حاجة أساسية ومهمّة ومستمرّة.

أثر منهجية بحث الإمامة في اختلاف الأمّة

ذكرنا سـابقاً أنّ عمـدة الاختلافـات والانقسـامات الـتي ضـربت المجتمـع الإسـلامي إنّمـا ترجـع في جـذورها إلى الاخـتلاف الـذي وقـع في فهـم مسـائل الإمامة بصورة عامّة.

وقـد ذكـرت أسـباب عديـدة لهـذا الاخـتلاف، ولكـن ثـمّ مـن وراء هـذه العوامـل عامـل أساسـي هـو (العنصـر المنهجـي) الـذي يعـدّ مـن أخطـر وأهـمّ العوامل التي أدّت إلى ظهور هذا الاختلاف والانقسام في الأمّة

مـن هنـا، يلاحـظ المتـابع لبحـوث الإمامـة الـتي طرحهـا سماحـة سـيّدنا الأستاذ كمال الحيدري حفظـه الله، أنّـه طالمـا يكـرّر الحـديث في مقدّمـة

تلك البحوث، عن (مناهج وطرق البحث) المتّبعة في دراسة موضوع الإمامة، وما ذلك إلاّ لارتباط هذا الحديث بمطلب تأسيسي جديد تتبع أهميّته من أهميّة اطّلاع القارئ واستيعابه لمناهج البحث المتّبعة في بحث الإمامة وخلفياتها، وتعريفه بالمنهج المختار والنتائج المترقّبة عن هذا المنهج والمترتّبة عليه، مقارنة بالنتائج التي انتهت إليها المناهج الأخرى، وما أدّى إليه اختلاف هذه المناهج ونتائجها من حصول الاختلاف داخل الأمّة ذاتها.

فهرسة البحث

من هذا المنطلق تعرّض سماحة السيّد الحيدري لبحث (الإمامة) من خلال الآية المباركة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[1] وفق المنهج الذي اختاره بعد أن تعرّض في بداية حديثه لبيان مناهج البحث وخصوصياتها وآثارها ونتائجها.

وقد آثرنا أن نقسّم هذا البحث إلى قسمين هما:

القسم الأوّل: في مناهج بحث الإمامة، وتضمّن فصلين:

- الفصل الأوّل: في منهج البحث الكلامي.
- الفصل الثاني: في منهج البحث القرآني.

القسم الثاني: دراسة تطبيقية في (منهج البحث القرآني) من خلال الآية الكريمة ﴿... وكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾.

---

(١) التوبة ١١٩.

حيث اشتمل هذا القسم على ثلاثة فصول:

- الفصل الأوّل: بحوث مختصرة عامّة تتعلّق بالآية المباركة.
- الفصل الثاني: في الاستدلال على الإمامة بالآية الكريمة.
- الفصل الثالث: في الردّ على الأسئلة والإشكالات التي تثار على الاستدلال بهذه الآية المباركة.

متوكّلين في ذلك كلّه على الله تبارك وتعالى (وكفى بالله وكيلاً) والحمد لله ربّ العالمين.

محمد جواد الزبيدي

غرة جمادى الآخرة ١٤٢٥ هـ

القسم الأوّل

مناهج بحث الإمامة

مناهج بحث الإمامة

يمكن أن تبحث (الإمامة العامّة) من خلال مناهج متعدّدة ومختلفة وسنحاول هنا التعرّف وبصورة مختصرة إلى منهجين:

أحدهما: المنهج الكلامي.

والآخر: المنهج القرآني.

وذلك من أجل التعرّف على:

أ: شروط الإمامة وعناصرها الأساسية التي يطرحها كلّ منهج.

ب: المهام والأدوار والمسؤوليات التي يحدّدها كلّ منهج للإمامة.

ولابدّ من التنبيه هنا، إلى أنّنا لا نقصد بالمنهج معناه الإجرائي كطريقة في البحث، بل المراد به نظام في التفكير، ومن ثمّ فنحن مع هذين المنهجين أمام نظامين للتفكير متغايرين، وبالتالي أمام قراءتين للإمامة.

الفصل الأوّل

المنهج الكلامي في بحث الإمامة

وهو المنهج الذي اتّبعه كثير من علماء الكلام من الفريقين، والذي سمّي في كلماتهم بالدليل العقلي لإثبات الإمامة وشرائطها.

ومنطلق هذا المنهج هو أن تحدَّد المسؤوليات الأساسية التي أُلقيت على عاتق النبي أو الإمام، ثمّ يُلتزم بعد ذلك بالشرائط التي لابدّ من توافرها فيه من خلال معرفة حدود المسؤوليات التي ينهض بها.

ويمكن التعبير عن هذا المنهج بالمنهج (الإنيّ) الذي يتحرّك من المعلول إلى العلّة، لأنّنا ننتهي فيه من خلال المسؤوليات الملقاة على عاتق الإمام إلى الشرائط الواجب توفّرها فيه.

وسنتعرّض هنا، وبصورة مختصرة إلى هذا المنهج لنتعرّف على خلاصة النتائج التي توصّل إليها ومدى أهميّتها في فهم حقيقة الإمامة.

أوّلاً: المنهج الكلامي لدى مدرسة الخلفاء

أ: مسؤوليات ومهام الإمام

انطلق المنهج الكلامي السنّي في بحث الإمامة من نقطة مركزية تشكّل خلفيّة نظامه الفكري لفهم هذه الحقيقة، وقد تمثّلت هذه النقطة في أنّ المقصود بالإمام أو الخليفة هو القائد والزعيم السياسي المسؤول عن إدارة شؤون الناس على مختلف الأصعدة والمستويات.

ولعلّ السبب الأهمّ في قَصْر هذه المدرسة لمسؤوليات الإمام على المسؤولية السياسية هو الواقع الذي انتهت إليه الخلافة بعد الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، هذا الواقع الذي أوجده الخلفاء الثلاثة الأوائل.

من هنا فإنّ علماء هذه المدرسة، وبدلاً من أن يتوسّعوا في البحث من أجل فهم حقيقة الإمامة وشرائطها ومصاديقها باعتبارها مفهوماً قرآنياً، وأن يعتمدوا في بحوثهم هذه على القرآن الكريم، والسنّة النبوية الصحيحة، بدلاً من كلّ هذا اعتمد هؤلاء العلماء في فهم هذه الحقيقة على الواقع الموجود بصورة أساسية وحاولوا الاستدلال له بما يناسبه من الأدلّة، وأعانهم على ذلك خاصّة كون (القيادة السياسية) تشكّل إحدى المسؤوليات المناطة بالإمام في النظرية القرآنية واقعاً، كما سنبيّنه فيما يأتي إن شاء الله تعالى.

ب: شرائط الإمامة

اتّضح لنا سابقاً أنّ دور الإمام ومسؤوليته في النظام الفكري لمدرسة الخلافة لا يتجاوز تخوم القيادة والزعامة السياسية.

ترتّب على اتّخاذ هذه النقطة المركزية محوراً في تأسيس نظرية الإمامة، القول بالشروط التالية للإمامة:

١ - إنّ تعيين الإمام يتمّ من خلال نظرية الشورى والانتخاب.

وقد اتّجهت هذه المدرسة صوب هذه النظرية في تعيين الإمام بسبب:

أوّلاً: لأنّ هذه النظرية أقرب إلى الذوق العرفي.

ثانياً: أنّ الحكومة شأن من شؤون الناس وعهد بينهم وبين الإمام القائد، وإذ يكون الأمر كذلك فلابدّ أن يكون للأمّة دور فيها، لأنّ القرآن الكريم ينصّ على ذلك؛ قال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾(١).

ومن الواضح أنّ الإمامة بمعنى القيادة داخلة في أمر الناس.

٢ ـ لا يشترط الدوام في هذه الإمامة، لأنّ المفروض أنّ هذا المنصب لا يتحقّق لأحد إلاّ بعد الانتخاب والبيعة، ومع عدم ذلك لا يحقّ لأحد أن يتصدّى لهذه المسؤولية ويرغم الناس على القبول، وحينئذ قد تنقطع هذه الإمامة ـ كما حصل فعلاً ـ ولا تبقى دائمة ومستمرّة ومتّصلة.

---

(١) الشورى: ٣٨.

٣ ـ كما لا يشترط فيمن يتصدّى للنهوض بدور الإمامة (بمعنى القيادة السياسية) أن يكون معصوماً، بل تكفيه من الناحية السلوكية «العدالة» بمعناها المتداول في البحث الفقهي، على أحسن التقادير.

٤ ـ كما لا يشترط في القائد السياسي أيضاً، قدرة ومستوى من الناحية العلمية أكبر من القدرة والمستوى الذي يمكّنه من أداء المسؤوليات التي أُنيطت به.

ثانياً: المنهج الكلامي لدى مدرسة أهل البيت عليهم السلام

لم يبادر المنهج الكلامي في مدرسة أهل البيت عليهم السلام وهو يبحث موضوع الإمامة، إلى تحرير محلّ النزاع فيما بين المدرستين وطرح بحوث تأسيسية في هذا المجال، بل دخل ـ كردّ فعل للاتّجاه السنّي ـ إلى تفاصيل بحث الإمامة مباشرةً، ممّا أفقده الكثير في مجال طرح التصوّر الشامل لنظرية الإمامة لدى مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

وعلى كلّ حال، فإنّ مسؤوليات الإمامة وشروطها في هذا المنهج يمكن بيانها مختصراً كما يلي:

أ : مسؤوليات الإمام

أدّى ما تقدّم من عدم تحرير محلّ النزاع بين المدرستين في فهم حقيقة الإمامة إلى أن يكون الدور السياسي هو الأساس الذي تمحور حوله بحث مهامّ الإمامة ومسؤوليات الإمام وبالشكل الذي طغى فيه بريق هذا الدور على أدوار الإمامة الأخرى التي تقول بها مدرسة أهل البيت عليهم السلام من قبيل الدور التشريعي ودور القدوة الحسنة وغيرها، وبقيت هذه الأدوار تعاني من إشكالات تواجهها بسبب المنهجية التي طرحت من خلالها.

ب: شروط ومواصفات الإمامة

وحينما انتقل هؤلاء العلماء إلى شروط الإمامة فإنّهم وتبعاً لكون بحوثهم قد انعقدت أساساً وكردّ فعل للمنهج السنّي في هذا الخصوص، فإنّهم قالوا بالشروط التالية للإمامة:

١: إنّ الإمامة بالنصّ في قبال نظرية الشورى والانتخاب.

٢: إنّ الإمام لابدّ أن يكون معصوماً بعصمة مطلقة من حيث الاعتقاد والأخلاق والسلوك الخارجي، قبال القول بالعدالة المتعارف عليها في البحوث الفقهية.

٣: إنّه لابدّ للإمام من العلم الكامل الخاصّ من غير كسب متعارف، قبال القول بالعلم المحدود الذي يمكنه من القيام بمهامّ قيادته السياسية.

٤: إنّ الإمامة ظاهرة مستمرّة ومتّصلة ودائمة إلى أن يرث الله الأرض وما عليها، قبال القول بانقطاع الإمامة عند عدم وجود القائد والإمام المُنتخب من قبل الناس.

نتائج وآثار المنهج الكلامي الإمامي

تراءى للكثير ممّن درس بحوث الإمامة من خلال علم الكلام الشيعي أنّ هناك تهافتاً وعدم انسجام بين مسؤولية ومهمّة الإمام والتي أوحى بها هذا المنهج والمتمثّلة بالقيادة السياسية للأمّة، وبين الشرائط

والمواصفات التي ذكرت للإمامة، حيث تعدّ الشروط أضخم وأوسع بكثير من المهمّة التي ينهض بها الإمام.

ولعلّ في هذه الرؤية ما يفسّر لنا التداعيات التي راحت تتهاوى إليها بعض الكتابات المعاصرة حيث وجدنا:

١: مَنْ تجاوز تخوم الشكّ إلى حدّ رفض نظرية النصّ في الإمامة وما يستتبع ذلك من لوازم، لأنّ القيادة في نظره شأن من شؤون الناس ولابدّ من الانتخاب فيها لا النصّ والتعيين.

٢: ومَنْ رفض العصمة بنحو كلّي محتجّاً بأنّها لو كانت شرطاً أساسياً في القائد، لمّا تخلّى عنها أصحابها واكتفوا بالقول بشرط العدالة في الإمام ـ أي القائد ـ في زمن الغيبة.

٣: ومن ذهب إلى أنّ النزاع في من هو الأحقّ بالإمامة بعد الرسول صلى الله عليه وآله نزاع تاريخي عقيم لا طائل من ورائه.

٤: ومن راح يتساءل عن الفائدة المترتّبة على وجود إمام غائب عن الأنظار ليس بمقدوره أن يواجه مشكلات العصر ويتحمّل مسؤوليته فعلاً، فإنّ وجود مثل هذا الإمام يعدّ لغواً لا فائدة منه، وهو محال على الحكيم سبحانه.

قد يقال هنا بأنّ ذاك الإيحاء الذي فهم منه الكثيرون أنّ المنهج الكلامي الإمامي قَصَر مسؤولية الإمام على القيادة السياسية، إيحاء مخالف للواقع، لأنّ هؤلاء العلماء أثبتوا أيضاً أدواراً أُخرى للإمامة من قبيل دور الإبلاغ والمرجعية الدينية ودور القدوة الحسنة، وأنّهم بسبب

هذه الأدوار كلّها قالوا بالشروط المذكورة في محلّها.

غير أنّ هذا لن يغيّر من الأمر شيئاً؛ وذلك لأنّنا لو أردنا أن نثبت شرائط الإمامة من خلال هذه المسؤوليات تبعاً لهذا المنهج، فإنّ النتيجة التي سننتهي إليها لن تسوّغ لنا ما اشترطناه من شروط أيضاً.

فعلى مستوى شرط العصمة ـ مثلاً ـ فإنّه بالإضافة إلى ما بيّناه سابقاً من وجود من يدّعي أنّ مسؤولية الإمام السياسية لا تبرّر شرط العصمة في الإمامة أصلاً، فإنّ هناك من يقول بأنّ مسؤولية البلاغ والمرجعية الدينية، وإن كانت تستلزم العصمة، ولكن في حدود هذه المسؤولية لا أكثر، ومن هنا آمنت جلّ المذاهب الإسلامية بالعصمة في النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في حدود ما يقتضيه مقام إبلاغ الرسالة فقط لا أكثر.

وهكذا الحال في مضمار القدوة والأسوة الحسنة، فلو أراد الإنسان أن يدقّق في هذه المسؤولية ويلحظها بنحو تجريدي محض، لأمكنه أن يقول إنّها لا تستلزم أكثر من أن يكون الإمام معصوماً على مستوى الفعل الخارجي لا النوايا والضمائر والعقائد والملكات، بل ولا على مستوى الفعل الخارجي إذا كان مختلياً بنفسه ولم يره أحد، فإنّه لا موضوع لمسألة القدوة والأسوة في مثل هذه الحالة أساساً.

وخلاصة القول أنّنا لو أردنا أن نصل إلى الشروط والعناصر الأساسية من خلال هذا الطريق فإنّنا سنجد أنّ تلك الشروط تضيق دائرتها في بعض الأحيان وقد تنعدم في أحيان أُخرى.

بيان مصاديق الإمامة من خلال المنهج الكلامي

وأمّا على مستوى بحث الإمامة الخاصّة وبيان مصاديق الإمامة، ومن هم الأئمّة وفق هذا المنهج؟ فمن الواضح أنّ مدرسة الخلفاء وتبعاً لبحثها لمسألة الإمامة من خلال مسؤوليات الإمام وتحديدها لهذه المسؤوليات بالمهمّة والقيادة السياسية، فقد اضطرّت إلى تسمية الأئمّة وفقاً للواقع التأريخي السياسي الذي عاشته الأمّة. فأئمّتها أئمّة الأمر الواقع والقادة السياسيّون الذين حكموا العالم الإسلامي في أدواره المختلفة.

وأمّا مدرسة أهل البيت عليهم السلام الكلامية، فإنّنا وإن كنّا نرى أنّ المنهج الكلامي عاجز عن إيفاء مسألة الإمامة تمام حقّها إلاّ أنّ أصحاب هذا المنهج نجحوا في تحديد مصاديق الأئمّة، وتعيّنهم بالأئمّة المعصومين عليهم السلام يقودهم في هذا النجاح شرطا (النصّ) و (العصمة) كما هو واضح.

الفصل الثاني

المنهج القرآني في بحث الإمامة

بالرغم من الخدمات الجليلة التي قدّمها المنهج الكلامي الشيعي ورموزه الفكرية اللامعة، إلاّ أنّ هذا المنهج ـ وحسب تصوّرنا ـ لم يتمكّن من الارتقاء في طرح الإمامة إلى مستواها المطلوب. بالأخصّ مع ما خالطه من تأثيرات جاءت إليه من المنهج الكلامي للفريق الآخر، بحيث بدا الاتّجاه الإمامي وكأنّه يخوض معركة الدفاع عن الإمامة على ساحة الفريق الآخر، متورّطاً بإشكالياته وأسئلته ومنطلقاته، وهذه نتيجة طبيعية للمنهج الدفاعي ولغياب التأسيس.

ومن هنا دعت الحاجة إلى تأسيس منهج آخر أطلقنا عليه اسم (المنهج القرآني) وهو المنهج المختار عندنا حيث يتولّى طرح بحوث ونظرية الإمامة من حيث حقيقتها وشروطها ومواصفاتها ومهامّ الإمام ومسؤولياته وفق أُسس ومنطلقات فكرية خاصّة به وبالصورة التي لا يبقى معها مجال لحصول مثل ذلك الإحساس السابق بالتهافت وعدم

الانسجام بين مسؤوليات الإمام وشروط الإمامة بصورة عامّة.

أوّلاً: شرائط الإمامة

ويبدأ هذا المنهج بالتعرّف على حقيقة الإمامة وشرائطها من خلال القرآن الكريم وبمعونة الروايات الواردة بهذا الخصوص مع قطع النظر عن المسؤوليات والوظائف المرتبطة بالإمامة والملقاةعلى عاتق الإمام.

وقد يصطلح على هذا الطريق بالمنهج (اللمّي) لأنّه يحاول أن يفهم الإمامة وشرائطها من خلال نفس الأدلّة التي تتكلّم عن هذه العناصر.

وعلى كلّ حال، فإنّ اتّباع هذا المنهج، يظهر لنا أنّ أهمّ مسائل الإمامة وشروطها تتلخّص في ما يلي:

١ ـ إنّها عهد إلهي، وجعل ربّاني، ونصب منه سبحانه وتعالى وهذا صريح الآيات والروايات؛ قال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَات فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾[2].

وفي الصحيح عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**فالإمام هو المنتجب المرتضى، اصطفاه الله بذلك، واختاره بعلمه وانتجبه لطهره، بقية**

(١) البقرة: ١٢٤.

(٢) الأنبياء: ٧٣.

من آدم عليه السلام وخيرة من ذرّية نوح ومصطفى من آل إبراهيم وسلالة إسماعيل، وصفوة من عترة محمّد صلى الله عليه وآله»[١].

ومن هنا فمقام الإمامة كالرسالة والنبوّة من حيث إنّها بيد الله سبحانه وتعالى وهو أعلم حيث يجعل عهده. فإذا كانت الإمامة عهداً، وشأناً، وأمراً إلهياً، فلابدّ أن تكون بنصب ونصّ منه تعالى، ولا مجال لدعوى تفويض أمرها إلى اختيار الناس وانتخابهم لأنّ الله تعالى يقول: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾[٢]، فهي ليست أمراً وشأناً من شؤون الناس، بل هي أمر وشأن وعهد إلهي كما قالت الآية المباركة ﴿لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[٣]، ومن الواضح أنّ المراد من العهد هنا هو عهد الإمامة، كما أشار إليه المحقّقون من مفسّري الفريقين.

٢ ـ إنّ الإمام لابدّ أن يكون معصوماً بعصمة تامّة على مختلف المستويات، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم، والروايات المتواترة عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا

(١) **أُصول الكافي**: ج ١، ص ٢٠٣.
(٢) الشورى: ٣٨.
(٣) البقرة: ١٢٤.
(٤) الأحزاب: ٣٣.

الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأمْرِ مِنْكُمْ﴾[١]، ومن الروايات حديث الثقلين المتواتر عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**إنّي تارك فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر وهو كتاب الله حبل ممدود من الأرض إلى السماء، وعترتي أهل بيتي، لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما**»[٢].

وقال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**إنّما الطاعة لله عزّ وجلّ ولرسوله ولولاة الأمر، وإنّما أمر بطاعة أولي الأمر لأنّهم معصومون مطهّرون، لا يأمرون بمعصيته**»[٣].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «**الأنبياء وأوصياؤهم لا ذنوب لهم لأنّهم معصومون مطهّرون**»[٤].

٣ ـ إنّ الإمام لابدّ أن يكون له علم خاصّ من غير كسب متعارف، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[٥] فاليقين الذي يصل

---

(١) النساء: ٥٩.

(٢) قال الحكيم في **الأصول العامّة** ص١٦٥: «وما أظنّ أنّ حديثاً يملك من الشهرة ما يملكه هذا الحديث، وقد أوصله ابن حجر في الصواعق المحرقة إلى نيف وعشرين صحابياً، وفي غاية المرام وصلت أحاديثه من طرق السنّة إلى (٣٩) حديثاً، ومن طريق الشيعة إلى (٨٢) حديثاً».

(٣) **بحار الأنوار**: ج ٢٥، ص ٢٠٠.

(٤) **بحار الأنوار**: ج ٢٥، ص ١٩٩.

(٥) السجدة: ٢٤.

إليه الإمام يختلف عن العلم المتعارف عندنا.

٤ ـ إنّ الإمامة مستمرّة ودائمة لا انقطاع لها، وقد دلّ القرآن عليها بقوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾[(١)]، والروايات التي أيّدت هذه الحقيقة فوق حدّ الإحصاء، ولا أدلّ من حديث الثقلين، الدالّ على عدم افتراقهما حتّى يردا عليه الحوض، وهو يكشف عن بقاء العترة إلى جنب الكتاب إلى يوم القيامة، فلا يخلو منهما زمان من الأزمنة.

وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام، قال السائل: قلت: «لأي شيء يحتاج إلى النبي والإمام؟ فقال: **لبقاء العالم على صلاحه**»[(٢)].

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**لم تخل الأرض منذ خلق الله آدم من حجّة لله فيها، ظاهر مشهور أو غائب مستور، ولا تخلو إلى أن تقوم الساعة من حجّة لله فيها.**

قال سليمان: فقلت للصادق عليه السلام: فكيف ينتفع الناس بالحجّة الغائب المستور؟ قال عليه السلام: **كما ينتفعون بالشمس إذا سترها السحاب**»[(٣)].

ولعلّ في هذا التشبيه إشارة إلى حقيقتين أساسيتين:

الأولى: أنّ الانتفاع به عليه السلام لا يختصّ بعالم التشريع

---

(١) الزخرف: ٢٨.

(٢) بحار الأنوار: ج ٢٣، ص ١٩.

(٣) بحار الأنوار: ج ٢٣، ص ٥.

والاعتبار بل يتجاوز ذلك إلى عالم التكوين.

الثانية: إنّ هذا الأمر غير محسوس ومرئيّ للناس، بل يرتبط بعالم الغيب لا نشأة الشهادة.

ثانياً: أدوار ومهام الإمام

إنّ ما نستوحيه من القرآن الكريم والسنّة النبوية المطهّرة والروايات الصحيحة الواردة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام ـ الذين هم عدل القرآن كما هو نصّ حديث الثقلين المتواتر سنداً ومضموناً ـ أنّ دور الإمامة التي تعتقد بها مدرسة أهل البيت عليهم السلام يختلف اختلافاً جوهرياً عن دور الإمامة التي تنحصر في الخلافة والحكم، وذلك لأنّ هذا الاتّجاه يرى أنّ للإمامة دوراً فوق دور القيادة والزعامة السياسية، وهو الدور الذي بيّنه القرآن الكريم لإبراهيم الخليل عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾[1]، ولها مرتبة هي بتعبير الإمام الرضا عليه السلام «**مرتبة ثالثة بعد النبوّة والخلّة وفضيلة شرّفه بها وأشاد بها ذكره**»[2] وهذا الدور هو الدور الذي نصطلح عليه بـ «الدور الوجودي».

وأمّا الدور التشريعي أو «المرجعية الدينية» و «القيادة السياسية» و «القدوة الصالحة»، فهي ثمرات ذلك الأصل الذي عبّر عنه القرآن

(١) البقرة: ١٢٤.

(٢) **أُصول الكافي**: ج ١، ص ١٩٩.

الكريم بـ «الشجرة الطيّبة» التي ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا...﴾[1].

وهكذا تتلخّص مهام وأدوار الإمامة في هذا المنهج بما يلي:

١ ـ الدور الوجودي.

٢ ـ الدور التشريعي.

٣ ـ القيادة السياسية.

٤ ـ القدوة الصالحة.

نتائج وآثار المنهج القرآني

من الواضح أنّ (الإمامة) وباعتبارها مصطلحاً قرآنياً لا يمكن أن تفهم حقيقتها بصورة كاملة ولا يمكن أن تتّضح شروطها ومهام وأدوار الإمام فيها من دون الرجوع إلى القرآن الكريم والاستعانة بالروايات الصحيحة في هذا المجال.

من هنا، وبسبب عدم إحاطة المنهج الكلامي السنّي بحقيقة الإمامة هذه قام بقصرها على بعدها السياسي في قيادة الدولة والمجتمع، ثمّ انتهى بعد ذلك ومن خلال قوله بهذا البعد السياسي إلى تحديد شرائط الإمامة، ففرّغها بذلك من مدلولاتها وشرائطها ومواصفاتها القرآنية ومنعها أبعادها الأخرى التي أعطاها القرآن الكريم لها.

(١) إبراهيم: ٢٤ ـ ٢٥.

ولم يستطع المنهج الكلامي الإمامي أيضاً، من تقديم الصورة المتكاملة عن الإمامة القرآنية، فهو وإن نجح في تقديم جملة الشرائط الصحيحة للإمامة في قبال شرائط مدرسة الخلفاء، ولكنّه ابتلى بجملة الإشكالات والتساؤلات والتي انطلقت من الإحساس بحصول التهافت بين الشروط التي ذكرها هذا المنهج للإمامة وبين دور الإمامة في القيادة السياسية.

أمّا المنهج القرآني، فإنّه لم ينطلق في تحديد مهامّ الإمامة من الواقع الموجود لينتهي إلى تحديد شروط الإمامة وفق تلك المهامّ، كما فعل المنهج الكلامي السنّي.

ولم يدخل في بحث الإمامة مباشرة وكردّ فعل للمنهج الكلامي السنّي كما فعل المنهج الكلامي الإمامي.

بل انطلق من خلال منهجه الخاصّ به، فنظر إلى الأدلّة الدالّة على عناصر ومسائل وشروط الإمامة الأساسية. وبقطع النظر عن ارتباط ذلك بالوظائف والمسؤوليات التي يقوم بها الإمام، وما هي مقتضيات تلك المسؤوليات ولوازمها.

وبعبارة أُخرى: إنّنا ووفق (المنهج القرآني) بإمكاننا أن نثبت (مواصفات وشروط الإمامة) أوّلاً وقبل البحث في (مهام ومسؤوليات الإمام)، ومن ثمّ ليس من الصحيح (وفق هذا المنهج) تحديد تلك الشروط بمسؤوليات ووظائف الإمام، كما لا يصحّ أن تقاس هذه الشروط إلى تلك الوظائف والمسؤوليات حتّى يقال بتهافتها أو عدم

الحاجة إليها كما قيل سابقاً.

نعم، بعد أن تثبت هذه العناصر والشروط ستتجلّى المسؤوليات والوظائف التي أُلقيت على عاتق الإمام من المرجعية الدينية والقيادة السياسية والقدوة الصالحة... وغيرها، وسيكون بالإمكان ـ حينئذ ـ بيان العلاقة الموجودة بينهما من دون أن نحدّد هذه الشروط بتلك المسؤوليات.

فبالإمكان ـ على سبيل المثال ـ أن نثبت من خلال هذا المنهج أنّ لشرط العصمة والعلم الخاصّ مدخلية في دور الإمام التشريعي دون دوره في القيادة السياسية، ولكن لا بالشكل الذي يتحدّد فيه شرط العصمة من خلال هذا الدور التشريعي. وحينئذ، لن يكون هناك مجال لأن يقال ـ كما قيل في المناهج الأخرى - بأنّنا لا نحتاج إلى إثبات هذه العصمة للإمام قبل أن يمارس دوره التشريعي فعلاً، أو بأنّنا لا نحتاج إلى هذه العصمة في كلّ شؤون الإمام إلاّ فيما يرتبط بأُمور التبليغ خاصّة، فلابدّ من تحديدها بهذه المهمّة فقط، وأمثال ذلك.

هذا من ناحية، ومن ناحية أُخرى فإنّ في بيان عدم الملازمة بين دور الإمام في القيادة السياسية وبين شرط العصمة في الإمامة دفع لاعتراض من يعترض بأنّ العصمة لو كانت شرطاً في القائد والإمام، فلماذا رفعوا اليد عنها بعد ذلك في عصر الغيبة.

غير أنّنا لابدّ أن نشير هنا إلى أنّ القول بأنّ العصمة ليست من لوازم منصب القيادة والزعامة في الأمّة لا يعني انتقال هذا المنصب إلى

غير المعصوم مع وجود المعصوم، بل يكون هو المتعيّن له، كما هو الحال في عهد النبي صلى الله عليه وآله، فمع وجود الإمام يكون هو الأحقّ والأولى ـ بالأولوية التعيينية ـ لإدارة شؤون الناس، ولا شكّ في أنّ الأمّة ستكون مقصّرة ومسؤولة أمام الله سبحانه وتعالى فيما لو تركت الإمام المعصوم واختارت غيره لقيادتها.

وهكذا بالنسبة إلى شرط (النصّ) الذي سنجد بأنّه شرط يرتبط بشرط (العصمة) لا بدور الإمام السياسي؛ وذلك لأنّ العصمة أمر خفيّ على الناس فلا يمكن نيلها من خلال (الاختيار والانتخاب) بل لابدّ من (النصّ) لإثبات عصمة المعصوم والكشف عنه، لا لإثبات قيادته السياسية، وهكذا يندفع اعتراض من يعترض بأنّ الإمامة والقيادة ليست بالنصّ وإلاّ لما تخلّى أصحاب هذا الشرط ـ أي النصّ ـ عن شرطهم هذا كما تخلّوا عن شرط العصمة في عصر الغيبة.

وهنا لابدّ من التأكيد أيضاً أنّ (النصّ) ومن خلال تعيينه للإمام المعصوم سوف يعيّن وينصّ ضمناً على أنّه هو القائد السياسي الذي يجب على الأمّة الانقياد له مباشرةً في حالة حضوره ولا يجوز لها تركه إلى غيره.

وأمّا شرط الديمومة ووجود متأهّل من أهل البيت عليهم السلام في كلّ عصر بحيث لا تخلو الأرض من حجّة، فإنّ لهذا الشرط ـ كما أنّ لشرط العصمة والعلم الخاصّ ـ علاقة وارتباطاً مباشراً بالدور الأساسي للإمامة، الذي تفرّعت عليه باقي الأدوار، ونعني به الدور

الوجودي، على ما نطقت بذلك الآيات والروايات العديدة.

ولابدّ من الإشارة هنا إلى أنّ هذا الدور الوجودي الذي بإمكان هذا المنهج طرحه، لا مجال لطرحه من خلال المنهج الكلامي السابق، ولعلّ هذا من أهمّ الإشكالات التي تسجّل على المنهج الكلامي أساساً.

الخلاصة: إنّ هذا المنهج والنظام الفكري الذي يكمن وراءه قد تعاطى مع (الإمامة) بكامل أبعادها القرآنية:

* فحدّد شروطها من نصّ وعصمة وعلم خاصّ واستمرارية.

* وبيّن ما تنهض به من دور وجوديّ وعلميّ وسياسيّ وتربويّ، فانتهى بها إلى أن تكون ضرورة وجودية وقانوناً في الهداية الخاصّة لا يعقل تخلّفه، وظاهرة دائمة تلازم الخليقة إلى أن تبلغ الإنسانية كمالها المنشود.

من ثمّ - وكنتيجة منطقية وطبيعية لهذا المنهج - فإنّ النوع الإنساني لابدّ وأن يكون ـ الآن ـ معايشاً لوجود إمام قائم أثبتت بحوث الإمامة الخاصّة ـ في محلّها ـ أنّه هو الإمام المهدي محمّد بن الحسن العسكري عجل الله تعالى فرجه الشريف.

هذا بالإضافة لما قامت به هذه البحوث من تعيين لسلسلة الأئمّة المتّصلة من آبائه عليهم السلام والمستمرّة إلى الرسول صلى الله عليه وآله حيث عيّنتهم بأسمائهم ووصفتهم بصفاتهم وتعرّضت لشرح

أحوالهم وأعمالهم عليهم السلام.

القسم الثاني
دراسة تطبيقية في المنهج القرآني
في الآية المباركة

وفيه فصول:

❊ الفصل الأوّل: بحوث مختصرة عامّة تتعلّق بالآية المباركة

❊ الفصل الثاني: الاستدلال بالآية المباركة

❊ الفصل الثالث: ردّ الإشكالات المثارة على الاستدلال.

الفصل الأوّل

بحوث مختصرة عامّة تتعلّق بالآية المباركة

وتدور حول:

* أوّلاً: التقوى، ومعناها ودورها وأهميّتها.

* ثانياً: الصدق والصادقين، ومعناهما اللغوي والعرفي والقرآني.

* ثالثاً: المتّقون ومعيّة الصادقين.

أوّلاً: في معنى التقوى ودورها

ابتدأت الآية الشريفة بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ..﴾ حيث أمرت المؤمنين بتقوى الله تبارك وتعالى؛ ممّا يدلّ على أنّ منزلة (التقوى) هي منزلة ما بعد الإيمان بالله ورسوله، وذلك لأنّ القرآن الكريم درج على مخاطبة الإنسان وتكليفه بالصورة التي تتناسب مع حالته التي هو فيها من حيث كونه قد آمن بالله تعالى وبالرسالة التي أرسل بها نبيّه صلى الله عليه وآله أو من حيث كونه لم يؤمن بذلك بعد.

ففي البدء يخاطب القرآن الكريم الناس بما هم لكي يأمرهم بالإسلام والإيمان، فيخاطبهم بمثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾[1].

وأمّا عندما يريد أن يأمرهم بالصلاة أو الصيام أو التقوى وما شابه ذلك، فإنّه يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ..﴾[2].

---

(١) الأعراف: ١٥٨.

(٢) المائدة: ٦.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ..﴾[١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ..﴾[٢].

وفي هذا إشارة إلى أنّ إقامة الصلاة أو الصيام أو الالتزام بالتقوى إنّما تأتي بعد الإيمان بالله وبرسوله لا قبل ذلك.

من هنا قلنا إنّ في الآية مورد البحث دلالة على أنّ مرحلة التقوى إنّما تأتي بعد مرحلة الإيمان[٣]. وهناك العديد من الروايات التي تؤكّد هذا المعنى أيضاً من قبيل ما ورد عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: **يا أبا محمّد الإسلام درجة**، قال: قلت: نعم، قال: **والإيمان على الإسلام درجة**، قال: قلت نعم، قال: **والتقوى على الإيمان درجة..**[٤].

ومثله عن الرضا عليه السلام: قال: «**الإيمان فوق الإسلام بدرجة والتقوى فوق الإيمان بدرجة..**»[٥].

---

(١) البقرة: ١٨٣.

(٢) التوبة: ١١٩.

(٣) وأمّا ما ورد في بعض الآيات من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ..﴾ وما شابه ذلك فليس فيه دلالة على أنّ مرحلة التقوى قد تسبق مرحلة الإسلام بل التعبير هنا بـ ﴿يا أيّها الناس﴾ لنكات تفسيرية يمكن مراجعتها في محلّها من كتب التفسير المعتمدة.

(٤) **أُصول الكافي**: ج٢ ص٤٣ كتاب الإيمان والكفر، باب فضل الإيمان على الإسلام.

(٥) المصدر نفسه.

التقوى والكون مع الصادقين

ثمّ بعد أن بيّنت الآية المباركة أنّ الأمر بالتقوى يكون بعد الإيمان أمرت المتّقين أن يكونوا مع الصادقين فقالت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾. ولهذا حاولنا التعرّض بصورة مختصرة إلى معنى التقوى.

معنى التقوى

وقى وقايةً حفظ الشيء ممّا يؤذيه ويضرّه، قال تعالى: ﴿فَوَقَاهُمْ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً﴾(٢).

والتقوى: جعل النفس في وقاية ممّا يخاف.. ثمّ صارت التقوى في عرف الشرع هي حفظ النفس عمّا يؤثم، وذلك بترك المحظور، بل ترك بعض المباحات أيضاً؛ لما روي: «**الحلال بيّن والحرام بيّن، ومن رتع حول الحمى فحقيق أن يقع فيه**»(٣).

أهميّة التقوى

أشار القرآن الكريم إلى أهمية التقوى في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْراً

---

(١) الإنسان: ١١.

(٢) التحريم: ٦.

(٣) **مفردات الراغب**، مادّة وقى، ص ٥٣٠.

لأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾[٢].

وقد نبّه تبارك وتعالى في ذيل هذه الآية المباركة على أنّ الكرامة الحقيقية إنّما هي بتقوى الله وأنّ ملاك القرب منه تعالى يدور مدار التقوى لا مدار المقامات الدنيوية من مال أو جاه أو حسب أو نسب.

وهكذا ما ورد في عشرات الروايات الواردة عن المعصومين عليهم السلام، التي تحدّثت عن التقوى وأهميّتها، من قبيل ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «**لا يقلّ عمل مع تقوى، وكيف يقلُ ما يتقبّل**»[٣].

وما ورد عن الصادق عليه السلام في وصيته لعمرو بن سعيد الثقفي قال: «**أوصيك بتقوى الله والورع والاجتهاد واعلم أنّه لا ينفع اجتهاد لا ورع فيه**»[٤].

وليس أدلّ على أهميّة التقوى في أحاديث الرسول صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام من تكرار الوصية بها، والحثّ عليها، والأمر بها، بحيث يصعب حصر عدد هذه الأحاديث ويطول المقام لو

(١) التغابن: ١٦.
(٢) الحجرات: ١٣.
(٣) **أُصول الكافي**: ج ٢، ص ٦٠، باب الطاعة والتقوى، ح ٣.
(٤) **أُصول الكافي**: ج ٢، ص ٦٢، باب الورع، ح ٣.

أردنا ذكرها كلّها.

وخلاصة القول: إنّ للتقوى آثاراً مهمّة وعديدة أشارت إليها الآيات والروايات.

غير أنّ بعض الناس يعتقد أنّ أثر التقوى إنّما يظهر في الحياة الآخرة فقط ولا يشمل الحياة الدنيا. ولكن هذه النظرة تخالف بشكل واضح ما يطرحه القرآن الكريم، حيث أنّه لم يخصّص أثر التقوى على الإنسان في النشأة الأخرى ومن حيث الثواب والعقاب الأخروي، وإنّما عمّم أثرها لكلتا النشأتين، وفي قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى* وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى* فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾(١) إشارة إلى أنّ حياة المتّقي في هذه الدنيا حياة يسيرة سهلة طيّبة لا ضنك فيها، وهكذا في قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٢).

فحياة المؤمن ليست حياة طيّبة في الدار الآخرة فقط وإنّما هي كذلك في هذه النشأة الدنيوية أيضاً.

وهكذا في الآية مورد البحث (اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) حيث جعلت الآية التقوى مقدمة للكون مع الصادقين.

فأي أهميّة وأي دور أعظم من هذا الدور يمكن أن يتصوّر

---

(١) الليل: ٥ ـ ٧.

(٢) النحل: ٩٧.

للتقوى مع وضوح أنّ هذا الأمر ناظر إلى الحياة الدنيا لا الآخرة.

ولبيان دور وأهميّة التقوى في عملية الكون مع الصادقين بصورة أوضح نقول: إنّنا إذا استطعنا أن نثبت أنّ الصادقين هم المعصومون وأنّ مصداقهم هو النبي صلى الله عليه وآله وعترته أهل بيته عليهم السلام، فإنّه سيتبيّن لنا حينذاك وبصورة أجلى أهميّة التقوى وسرّ اشتراطها كمقدّمة لاتّباع الصادقين وللكون معهم، وذلك لأنّ الإنسان مسافر إلى الله تعالى وكادح إليه كدحاً من أجل الوصول إليه والقرب منه واللقاء به ﴿يَا أَيُّهَا الإنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاَقِيهِ﴾(١) وأنّ هذا الكدح لا يحقّق ثمرته إلاّ إذا كان على الصراط المستقيم ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾(٢) ولا يزداد السائر على غير هذا الطريق إلاّ ضلالة وبعداً عن الهدف على حدّ قول الإمام الصادق عليه السلام: «**العامل على غير بصيرة كالسائر على غير الطريق لا يزيده سرعة السير إلاّ بعداً**»(٣).

ثمّ إن تحقّق السير على هذا الصراط المستقيم بيّنه القرآن الكريم من خلال قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ..﴾(٤) وإنّ هذا الاتّباع للخاتم صلى الله عليه وآله لا يتحقّق إلاّ

(١) الانشقاق: ٦.
(٢) الحمد: ٦.
(٣) **الكافي**: ج ١، ص ٤٣، باب من عمل بغير علم، ح ١.
(٤) آل عمران: ٣١.

بالأخذ بكلّ ما جاء عنه صلى الله عليه وآله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾(١) وما ذلك إلاّ لأنّه صلى الله عليه وآله ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى * إنْ هُوَ إلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾(٢).

وممّا جاء به صلى الله عليه وآله قوله الذي بيّن فيه كيفية اتّباعه من أجل السير على الصراط المستقيم والخلاص من الضلالة حيث قال صلى الله عليه وآله: «**إنّي تارك فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر وهو كتاب الله حبل ممدود من الأرض إلى السماء، وعترتي أهل بيتي، لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما**»(٣).

فهناك سير وسفر إلى الله تعالى على الصراط المستقيم يتمسّك فيه الإنسان بالقرآن والعترة الطاهرة الصادقة المعصومة. ولأنّ كلّ سفر لابدّ له من زاد، فإن زاد هذا السفر هو التقوى؛ قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾(٤).

وعن علي عليه السلام: «**أوصيكم عباد الله بتقوى الله التي هي الزاد وبها المعاذ، زاد مبلغ ومعاذ منجح..**»(٥).

---

(١) الحشر: ٧.

(٢) النجم: ٣ ـ ٤.

(٣) **بحار الأنوار**: ج ٢٣، ص ١١٨، باب ٧: فضائل أهل البيت والنصّ عليهم، ح ٣٦.

(٤) البقرة: ١٩٧.

(٥) **نهج البلاغة**: الخطبة ١١٤.

وهكذا كانت التقوى وباعتبارها زاد هذا السفر إلى الله تعالى شرطاً وطريقاً من أجل أن يتمكّن الإنسان من اتّباع القرآن والعترة اتّباعاً صحيحاً، وليكون مع الصادقين حقّاً، وليسير على الصراط المستقيم ليصل إلى الهدف الذي يبتغيه من سيره نحوه عزّ وجلّ، ومن هنا ورد عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال: «**يا جابر أيكتفي من انتحل التشيّع أن يقول بحبّنا أهل البيت، فوالله ما شيعتنا إلاّ من اتّقى الله وأطاعه..**»(١) وعن أبي عبدالله عليه السلام أنّه قال: «**عليكم بالورع فإنّه لا ينال ما عند الله إلاّ بالورع**»(٢).

---

(١) **أُصول الكافي**: ج ٢، ص ٦٠، باب الطاعة والتقوى، ح ٢.
(٢) **أُصول الكافي**: ج ٢، ص ٦٢، باب الورع، ح ٣.

ثانياً: معنى (الصدق والصادقين)

ذكرنا سابقاً أنّ الآية الشريفة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ أمرت المؤمنين بتقوى الله والكون مع الصادقين، فما هو المراد بالصدق وما هو المراد بالصادقين.

١ ـ المعنى اللغوي والعرفي لهما

أ: قال الراغب في مفرداته: «الصدق والكذب أصلهما في القول فلا يكونان بالقصد الأوّل إلاّ فيه» - أي في القول - فالصادق هو من يكون صادق القول، وهذا هو الأصل في استخدام لفظة الصادق أيضاً، وهو المعنى العرفي المتداول لهذه اللفظة فيما بيننا.

«وقد يستعمل الصدق والكذب ـ توسعة ـ في أفعال الجوارح فيقال صدق في القتال إذا أدّى حقّه وفعل ما يجب وكما يجب وكذب في القتال إذا كان بخلاف ذلك»[1]، وهكذا.

ب: الصدق والكذب الخبري والمخبري: ونعني بالصدق والكذب الخبري، مطابقة الخبر للخارج في الصدق وعدم مطابقته له في

(١) **مفردات الراغب**، مادّة صدق، ص ٢٨٤.

الكذب، كما نعني بهما مطابقة الخبر لاعتقاد المخبر في الصدق وعدم مطابقته له في الكذب.

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾(١)، فقول المنافقين في نفسه صدق، فهو خبر صادق ونطلق عليه صدق خبري، وأمّا قولهم بالنسبة لاعتقادهم فهو كذب، ونطلق عليه كذب مخبري، وعلى هذا فقس.

ومن هنا قال الراغب في مفرداته: «والصدق مطابقة القول الضمير والمخبر عنه معاً، ومتى انخرم شرط من ذلك لم يكن صدقاً تامّاً بل إمّا أن لا يوصف بالصدق وإمّا أن يوصف تارةً بالصدق وتارةً بالكذب على نظرين مختلفين»(٢).

وقد بيّن العلاّمة الطباطبائي قدّس سرّه هذا المعنى بصورة واضحة في قوله: «والكذب خلاف الصدق وهو عدم مطابقة الخبر للخارج فهو وصف الخبر كالصدق، وربما اعتبرت مطابقة الخبر ولا مطابقته بالنسبة إلى اعتقاد المخبر... فيقال فلان كاذب إذا لم يطابق خبره الخارج وفلان كاذب إذا أخبر بما يخالف اعتقاده، ويسمّى النوع الأوّل صدقاً وكذباً خبريين والثاني صدقاً وكذباً مخبريين»(٣).

---

(١) المنافقون: ١.

(٢) **مفردات الراغب**، مادّة صدق، ص ٢٨٤.

(٣) **الميزان** للطباطبائي: ج ١٩، ص ٢٧٩.

٢ ـ المعنى القرآني للصدق والصادقين

إنّ ما سبق كان المعنى اللغوي والعرفي للصدق والصادقين، ولكنّنا بالرجوع إلى القرآن الكريم نراه يحدّد معنى آخر لهما، ويمكن استفادة هذا المعنى من خلال عدّة آيات كريمة، غير أنّنا قبل التعرّض إلى هذا المعنى، نشير إلى أنّ الأسلوب القرآني في هذا المجال يقوم على طرح المفاهيم من خلال مصاديقها الخارجية، فلسان حاله ليس لسان حال تعريف الألفاظ وطرح مفاهيمها المجرّدة بل هو لسان حال إيجاد القدوة والأسوة الصالحة، فهو لا يريد من الإنسان أن يكون مجرّد موسوعة لمعرفة المصطلحات، وإنّما يريد منه الاتّباع، والاتّباع هو فرع وجود القدوة والأسوة في الواقع الخارجي. وهذا دأب القرآن في جميع بياناته فإنّه يبيّن المقامات ويشرح الأحوال بتعريف رجالها من غير أن يقنع ببيان المفهوم فحسب.

إذا تبيّن هذا لنا، نعود إلى الآيات الكريمة التي تعرّض فيها القرآن الكريم إلى بيان المراد من الصدق والصادقين والتي منها:

• قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[1].

(١) الحجرات: ١٥.

• وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾(١).

تحدّثت الآية الأولى عن صفات المؤمنين ثمّ وصفتهم بأنّهم ﴿أُولئك هم الصادقون﴾، وتحدّثت الآية الثانية عن صفات الأبرار ثمّ قالت: ﴿أُولئك الذين صدقوا﴾ ومن هنا، وبمساعدة هاتين الآيتين، يتبيّن لنا أنّ صفات الصادقين ـ بعد الفراغ من صدقهم في القول ـ هي:

أ ـ على مستوى الاعتقاد: هم أصحاب الاعتقاد الكامل الحقّ الذين لم يشكّوا ولم يرتابوا فيما آمنوا واعتقدوا به، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾(٢) وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾(٣).

ب ـ على مستوى الأعمال: هم من كانت أعمالهم كاملة لا نقص فيها وتابعة لما يعتقدون به، وفي قوله تعالى: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ

(١) البقرة: ١٧٧.
(٢) البقرة: ١٧٧.
(٣) الحجرات: ١٥.

ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾(٢)، ذكر لبعض ما يقوم به هؤلاء الصادقون.

جـ ـ على مستوى الأخلاق: هم مَن كانت أخلاقهم نابعة من معتقداتهم الكاملة الحقّة، من قبيل ما ذُكر في قوله تعالى: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾(٣).

فالصادق قرآنياً إذن هو من كان صادقاً في قوله؛ فلا يخبر إلاّ عن الواقع، وصادقاً في اعتقاده، أي يعتقد بما هو الحقّ ويعمل به، وصادقاً في أعماله؛ إذ تتطابق مع اعتقاداته الحقّة، وصادقاً في أخلاقه؛ إذ تنبع عن تلك الاعتقادات الحقّة.

وبتعبير آخر هو من صدّق قوله فعله وصدّق فعله قوله وصدّق اعتقاده فعله في كلّ الأحوال وعلى حدّ سواء.

وهكذا يكون ظاهره وباطنه واحداً، حتّى ورد في المأثور: أنّ (من **استوت ظواهرهم وبواطنهم هم الصادقون**). فإذا صار ظاهر الإنسان وباطنه مطابقاً لما يريد الله منه فإنّ هذا الإنسان يصبح صادقاً بحسب التعبير القرآني.

---

(١) البقرة: ١٧٧.
(٢) الحجرات: ١٥.
(٣) البقرة: ١٧٧.

وقد تعرّض العلاّمة الطباطبائي قدس سره[١] في ذيل تفسيره لقوله تعالى ﴿ليس البر..﴾ إلى بيان هذا المعنى للصادق بصورة مفصّلة من خلال بيانه لتعريف الأبرار وربطه بتعريف الصادقين، ليستنتج بعد ذلك أنّ الأبرار هم الذين صدقوا، فقال قدس سره: «وبالجملة قوله تعالى: (ولكن البرّ من آمن بالله واليوم الآخر) تعريف للأبرار وبيان لحقيقة حالهم، وقد عرّفهم أوّلاً في جميع المراتب الثلاث من الاعتقاد والأعمال والأخلاق...».

ثمّ قال قدس سره: «فأمّا ما عرّفهم به أوّلاً فابتدأ فيه بقوله تعالى: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾، وهذا جامع لجميع المعارف الحقّة التي يريد الله سبحانه من عباده الإيمان بها، والمراد بهذا الإيمان الإيمان التامّ الذي لا يتخلّف عنه أثره، لا في القلب بعروض شكّ أو اضطراب أو اعتراض أو سخط في شيء ممّا يصيبه ممّا لا ترتضيه النفس، ولا في خلق ولا في عمل، والدليل على أنّ المراد به ذلك قوله في ذيل الآية ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ فقد أطلق الصدق ولم يقيّده بشيء من أعمال القلب والجوارح فهم مؤمنون حقّاً صادقون في إيمانهم كما قال تعالى: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾[٢]، وحينئذ ينطبق حالهم على المرتبة الرابعة من

---

(١) راجع **الميزان**: ج ١، ص ٤٢٨.

(٢) النساء: ٦٥.

مراتب الإيمان»؛ إذ للإيمان مراتب أربع[١] هي:

• المرتبة الأولى: مرتبة الإذعان القلبي بمضمون الشهادتين إجمالاً، ويلزمه العمل في أغلب الفروع.

• المرتبة الثانية: وهي مرتبة الاعتقاد التفصيلي لا عن تقليد بل عن أساس يقينيّ واجتهاديّ بالحقائق الدينية؛ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٢] وفيه إرشاد المؤمنين إلى الإيمان فالإيمان هذا غير إيمان المرتبة السابقة.

ومن الطبيعي أن يتبع هذا الإيمان الكثير من الأعمال الصالحة وإن تخطّى المؤمن بعضها في بعض الموارد.

• المرتبة الثالثة: ويصلها المؤمن بعد أن يأنس بإيمان الدرجة الثانية ويتخلّق بأخلاقها وتتمكّن منه تلك الأخلاق بحيث تنقاد لنفسه العاقلة سائر القوى البهيمية والسبعية حتّى يصل إلى المستوى الذي تصفه الروايات بأنّه (**يعبد الله كأنّه يراه فإن لم يكن يراه فإنّ الله يراه**)، وحتّى يصل إلى المستوى الذي لا يجد في باطنه وسرّه ما لا ينقاد إلى أمر الله تعالى ونهيه أو يسخط من قضائه وقدره، قال تعالى: ﴿فَلاَ

---

(١) راجع **الميزان**: ج ١، ص ٣٠١ ـ ٣٠٣.

(٢) الصف: ١٠ ـ ١١.

وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾[١].

● المرتبة الرابعة: وفيها يعبد المؤمن ربّه لا كأنّه يراه بل هو على يقين قلبيّ من أنه يراه، وهو الذي قال عنه علي عليه السلام لمن سأله: هل رأيت ربّك حين عبدته؟ فقال عليه السلام: **ويلك ما كنت أعبد ربّاً لم أره**[٢]. وهكذا قوله عليه السلام: «**لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً**»[٣]. إذ يُكشف لمن هم في هذه المرتبة ملكوت السماوات والأرض ويصلون إلى مقام اليقين الذي هو مقام الوقوف على حقائق الأشياء؛ قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنْ الْمُوقِنِينَ﴾[٤]، ومثل هذا اليقين يوصل أصحابه إلى التوحيد في جميع مراتبه الفعلية والصفاتية والذاتية، فيرون أنّ كلّ الوجود لا يوجد فيه شيء إلاّ بحول الله وقوّته، حتّى ذواتهم وصفاتهم وأفعالهم فهي بحول الله وقوّته، فهم يرون من خلال حقائق الأشياء وأعيانها أن لا مستقلّ في الوجود إلاّ الله؛ قال العلاّمة: «فالإنسان ربما أخذته العناية الربّانية فأشهدت له أنّ الملك لله وحده لا يملك شيء سواه لنفسه شيئاً إلاّ به، لا ربّ سواه، وهذا معنىً وهبيّ وإفاضة إلهية

---

(١) النساء: ٦٥.

(٢) **الكافي**: ج ١، ص ٩٧، باب في إبطال الرؤية، ح ٦.

(٣) **بحار الأنوار**: ج ٤٠، ص ١٥٣، باب ٩٣.

(٤) الأنعام: ٧٥.

لا تأثير لإرادة الإنسان فيه...» فيكون معنى الإيمان حينئذ هو «استيعاب هذا الحال لجميع الأحوال والأفعال؛ قال تعالى: ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾[(١)] فإنّ هؤلاء المؤمنين المذكورين في الآية يجب أن يكونوا على يقين من أن لا استقلال لشيء دون الله ولا تأثير لسبب إلاّ بإذن الله حتّى لا يحزنوا من مكروه واقع ولا يخافوا محذوراً محتملاً، وإلاّ فلا معنى لكونهم بحيث لا يخوّفهم شيء ولا يحزنهم أمر»[(٢)].

وهذه المرتبة هي المرتبة العالية من الإيمان، الثابتة للأبرار والصادقين.

ثمّ استمرّ قدس سره في بيان صفات الأبرار فقال: «ثمّ ذكر تعالى نبذاً من أعمالهم بقوله: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾. ثمّ ذكر سبحانه نبذاً من جمل أخلاقهم بقوله: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾.

وأمّا ما عرّفهم به ثانياً بقوله: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾، فهو وصف جامع لجمل فضائل العلم والعمل، فإنّ الصدق خلق يصاحب جميع الأخلاق من العفّة والشجاعة والحكمة والعدالة وفروعها، فإنّ الإنسان ليس له إلاّ الاعتقاد والقول والعمل، وإذا صدق تطابقت الثلاثة فلا

---

(١) يونس: ٦٢ ـ ٦٣.

(٢) الميزان للطباطبائي: ج ١، ص ٣٠٣ ـ ٣٠٤.

يفعل إلاّ ما يقول ولا يقول إلاّ ما يعتقد، والإنسان مفطور على قبول الحقّ والخضوع له باطناً وإن أظهر خلافه ظاهراً، فإذا أذعن بالحقّ وصدق فيه قال ما يعتقده وفعل ما يقوله، وعند ذلك تمّ له الإيمان الخالص والخلق الفاضل والعمل الصالح؛ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[1]، والحصر في قوله أُولئك الذين صدقوا يؤكّد التعريف وبيان الحدّ، والمعنى ـ والله أعلم ـ إذا أردت الذين صدقوا فأُولئك هم الأبرار»[2].

وعلى هذا يتّضح لنا سرّ جعل القرآن الكريم الصدّيقين في عرض الأنبياء في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ..﴾[3] لأنّ ما يدلّ عليه لفظ الصدّيقين هو مبالغة من الصدق، وهو على ما بيّناه سابقاً وعلى حدّ قول الطباطبائي: (من لا يكذب أصلاً فهو الذي لا يفعل إلاّ ما يراه حقّاً من غير اتّباع لهوى النفس ولا يقول إلاّ ما يرى أنّه حقّ، ولا يرى شيئاً إلاّ ما هو حقّ، فهو يشاهد حقائق الأشياء ويقول الحقّ ويفعل الحقّ)[4] ويمكن توضيح قوله قدس سره: (يشاهد حقائق الأشياء) بالإضافة إلى ما ذكرناه سابقاً في بيان المرتبة الرابعة من الإيمان، فنقول: إنّنا إذا قسنا

---

(١) التوبة: ١١٩.

(٢) **الميزان** للطباطبائي: ج ١، ص ٤٢٩.

(٣) النساء: ٦٩.

(٤) **الميزان**: ج ٤، ص ٤٠٨.

رؤية الأشياء إلى أنفسنا فإنّنا لا نرى في كثير من الأحيان هذه الأشياء متعلّقة بالمبدأ الأعلى سبحانه وتعالى، وإنّما نبحث عن علّة هذا الشيء أو ذاك من خلال الأدلّة، وهذا الأمر هو من مميّزات العلم الحصولي، وهو بخلاف العلم الحضوري الذي يرى الأشياء على ما هي عليه في الواقع ونفس الأمر، فهو يرى أنّ الأشياء الممكنة كلّها قائمة بقيّومها سبحانه وتعالى؛ قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ﴾[1] وقال: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾[2] وقال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾[3] وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[4] فلا يوجد في الدار غيره ديار، وكلّ ما سواه هو عين الفقر والحاجة إليه تعالى؛ ومن هنا ورد عن الرسول صلى الله عليه وآله: «**اللهمّ أرني الأشياء كما هي**»[5].

وعن علي عليه السلام: «**ما رأيت شيئاً إلاّ ورأيت الله قبله ومعه وفيه وبعده**».

فنحن دائماً عندنا من الأشياء مفاهيمها لا حقائقها، وهذه المفاهيم قد تطابق الواقع وقد لا تطابقه، وقد تكون هي عين الواقع وقد لا

(١) الحديد: ٤.
(٢) الحديد: ٣.
(٣) القصص: ٨٨.
(٤) فاطر: ١٥.
(٥) الأسفار: ج ١، ص ٢١.

تكون بل تكون خطأ ووهماً وسراباً.

ومن هنا قد نخبر بما لا يطابق الواقع فلا نكون صادقين خبرياً وإن كنّا صادقين مخبرياً لأنّنا لم نتعمّد الكذب بمعنى الإخبار خلاف الواقع عمداً يستتبع المذمّة والعقاب، وأمّا الصادق بالمعنى القرآني الذي يرى حقائق الأشياء فلا يمكن أن يصدر منه إلاّ الصدق الخبري والمخبري معاً، فلا يقول إلاّ الحقّ ولا يفعل إلاّ الحقّ ولا يعتقد إلاّ بما هو الحقّ، وحينئذ لا يتصوّر في حقّه صدور الخطأ أياً كان وعلى أيّ نحو كان. فلا غرابة إذن في أن يكون مثل هذا الصادق قد ذكر في عرض النبيين في الآية الشريفة.

وعلى حدّ تعبير عرفائنا فإنّ مثل هذا الإنسان هو مظهر الاسم الأعظم سبحانه وتعالى في عالم الإمكان، لأنّه تعالى هو الحقّ ولا يقول إلاّ الحقّ ولا يفعل إلاّ الحقّ، فكذلك مظهره لا يكون إلاّ كذلك، ولكنّه سبحانه وتعالى هو الصادق بالذات والاستقلالية، وغيره بالعرض والتبعية.

ثالثاً: (المتّقون ومعيّة الصادقين)

وهنا أمران لابدّ من بحثهما وهما:

١. الفرق بين «مع» و «من»

يتّضح من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾(١) أنّ المتّقين طائفة غير طائفة الصادقين، ولو كانت الطائفتان طائفة واحدة لقال تعالى (اتّقوا الله وكونوا صادقين) لأنّهم هم هم وليسوا غيرهم. ومن هنا فإنّ دلالة هذه الآية من قبيل دلالة قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأمرِ مِنْكُمْ﴾(٢) حيث إنّ المؤمنين طائفة ومن أُمروا بطاعتهم طائفة أُخرى، بداهة أنّ الولي لا يمكن أن يكون نفس المولى عليه ولا المولى عليه يمكن أن يكون نفس الولي، فلسائر المؤمنين طبقة ودرجة ولولاة الأمر طبقة ودرجة أعلى.

ثمّ إنّ في استخدام «مع» في الآية الشريفة دلالة على أنّ المتّقين لا

---

(١) التوبة: ١١٩.

(٢) النساء: ٥٩.

يمكنهم أن يكونوا من الصادقين وفي عَرَض واحد وإيّاهم بل علـيهم أن يكونوا ملتحقين بهم وفي رفقتهم وصحبتهم، إذ هناك فرق بيّن بين استخدام «مع» واستخدام «من»، هذا الفرق الذي يمكـن بيانـه بصـورة واضحة من خلال قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقاً﴾[1] حيث بيّنت الآية أنّ مـن يطـع الله والرسـول يكون ملحقاً وملتحقاً بالذين أنعم الله عليهم ورفيقاً وصاحباً وتابعاً لهم لا أنّه فرد منهم؛ إذ لا يعقل أنّ كلّ من يطيع الله والرسول يكـون نبيّـاً مثلاً، وفي قوله تعالى ﴿وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقاً﴾ قرينة أكيدة على المعنى الذي أشرنا إليه، من دلالة «مع» على اللحوق والرفقـة والصـحبة. قـال العلاّمة في الميزان: «وقوله: ﴿فأُولئك مع الذين أنعم الله علـيهم﴾ يدلّ على اللحوق دون الصيرورة، فهؤلاء ملحقون بجماعة المنعَم علـيهم... غير صائرين منهم»[2].

وهذا كلّه بخلاف ما لو قالت الآية الشريفة (اتّقوا الله وكونـوا مـن الصادقين) فإنّهـا سـتدلّ حينئـذ علـى أنّ المتّقـي سـيكون فـرداً مـن الصادقين لدلالة «من» على البعضية والجزئية.

ومن هنا يتبيّن أنّ بعض الروايات التي تـرد بلسـان (إنّ مـن قـام بالعمل الكذائي فهو معنا ـ أي مع المعصومين ـ في الجنّة) ومـا شـابه

(١) النساء: ٦٩.

(٢) **الميزان** للطباطبائي: ج ٤، ص ٤٠٧.

ذلك، لا تعني أنّ من يقوم بهذه الأعمال سيكون كالمعصومين بل سيكون ملحقاً بهم، وله درجة غير درجتهم لبداهة رجحان درجة الملحوق على درجة من يلحق به.

٢. معنى المعيّة في قوله تعالى ﴿وكونوا مع الصادقين﴾

ولنا أن نتساءل هنا عن معنى (المعيّة) التي أوجبت الآية الشريفة على المتّقين أن يكونوا بها مع الصادقين، إذ أنّ للمعيّة معنيين هما:

• المعنى الأوّل: هو المعيّة الجسمية، بحيث يكون أحد الشيئين بجانب الآخر ومصطحباً وصاحباً له بجسمه فقط دون أي أمر آخر.

وقد حاول جملة من الباحثين إثبات هذه المعيّة لكي يثبتوا من خلالها المناقب والفضائل لأصحاب الرسول صلى الله عليه وآله حتّى وإن لم يكونوا معه صلى الله عليه وآله اعتقاداً وعملاً وسلوكاً.

ومن الواضح، أنّ مثل هذه المعيّة ليست عاجزة فقط عن إثبات منقبة وفضيلة لصاحبها، بل لعلّها تكون وبالاً عليه إذا لم يؤدّ حقّها؛ لأنّ بمثل هذه الصحبة يتمّ على الإنسان من الحجّة ما لا يتمّ على غيره.

ثمّ إنّنا لم نجد من النقل ما يؤيّد مثل هذه الدعوى أيضاً.

وعلى هذا فلا دليل عقليّاً ولا نقليّاً على أنّ هناك فضيلة لصحبة المتّقين للصادقين جسمياً فقط، ولا يتحقّق من خلالها أمر أو غاية

مهمّة، فلا معنى حينئذ للأمر بها وإيجابها على المتّقين.

• المعنى الثاني: وهو أن يكون المتّقي مع الصادقين على نحو التابع لهم والمقتدي بهم في الأقوال والاعتقادات والسلوكات، وهذا المعنى هو المعنى المختار.

ثمّ إنّ استخدام (مع) وأمر المتّقين بالكون (مع) الصادقين هنا يدلّ على أنّ الصادقين هم الأصل الذي يجب اللحوق بهم والرجوع إليهم والاقتداء بهم واتّباعهم؛ قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[(١)] وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾[(٢)].

---

(١) الأحزاب: ٢١.

(٢) آل عمران: ٣١.

الفصل الثاني

في الاستدلال بالآية المباركة على الإمامة

وفيه بحثان

* البحث الأوّل: ويرتبط بجوانب (الإمامة العامّة).

* البحث الثاني: ويرتبط بجوانب (الإمامة الخاصّة).

البحث الأوّل: في الإمامة العامّة

يمكن تقسيم هذا الفصل وهو فصل الاستدلال بالآية المباركة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ إلى بحثين: البحث الأوّل في (الإمامة العامّة) والبحث الثاني في (الإمامة الخاصّة) حيث سنتعرّض في بحث (الإمامة العامّة) إلى:

أ: كيفية الاستدلال على عصمة الصادق ووجوده، أولاً.

ب: إقامة الدليل على وجوده في كلّ زمان، ثانياً.

وكما هو واضح فإنّ هذه المرحلة من البحث ترتبط بمفهوم الإمامة العامّة ولا علاقة لها بتحديد مصاديق الأئمّة عليهم السلام وبيان هويّتهم وأسمائهم وعددهم عليهم السلام، وما شاكل ذلك.

١. في كيفية الاستدلال على عصمة الصادق ووجود المعصوم

بالإمكان أن نسلك في هذا الخصوص أحد طريقين هما:

الطريق الأوّل: يتمّ الاستدلال فيه على عصمة الصادق مباشرة من خلال ما توصّلنا إليه من معنى الصادق قرآنياً، حيث قلنا إنّ الصادق

قرآنياً هو من لا يعتقد إلاّ الحقّ ولا يقول إلاّ الحقّ ولا يفعل إلاّ الحقّ، فهو صادق على مستوى الاعتقاد والعمل والأخلاق، بحيث استوى ظاهره وباطنه وكان كما يريد الله تعالى منه، فكيف يتصوّر صدور الخطأ عمداً أو سهواً أو اشتباهاً من مثل هذا الإنسان، وكيف لا يكون معصوماً؟

وبعد أن يثبت لنا أن الصادق قرآنياً هو المعصوم، فإنّنا وبدليل الأمر بالكون معه واتّباعه والاقتداء به نستنتج ضرورة وجوده، وإلاّ لما كان بمقدور المكلّف أن يمتثل هذا الأمر، والأمر بغير المقدور غير جائز.

الطريق الثاني: ويتمّ الاستدلال فيه من خلال عدّة خطوات:

• الخطوة الأولى: وتقوم على أساس التدبّر في قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ...﴾ حيث يتبيّن أنّ هذه الطائفة التي أمرت بالتقوى وبأن تكون مع الصادقين وأن تتبعهم وتتّخذهم قدوة لها هي سنخ طائفة يمكن أن يصدر عنها الخطأ، ولو لم تكن جائزة الخطأ لما كان هناك معنى لأمرها بالتقوى، فلأنّها يمكن أن تخطئ ويمكن أن لا تخطئ أُمرت بالتقوى والتحرّز عن الوقوع في الخطأ.

• الخطوة الثانية: وتقوم على أساس التحقيق في إطلاق أو تقييد الأمر بالكون مع الصادقين، حيث يتبيّن بعد ذلك أنّ هذا الأمر الصادر إلى المتّقين أمر مطلق باتّباع الصادقين وغير مقيّد بأي شرط، لا بشرط زمان أو مكان أو عمل معيّن وما شابه ذلك.

• الخطوة الثالثة: وفيها نتساءل، بعد أن أثبتنا في الخطوتين السابقتين أنّ الخطأ جائز في حقّ من أمر باتّباع الصادق وأنّ هذا الأمر بالاتّباع اتّباع مطلق، نتساءل: هل يمكن أن يكون الصادقون ممّن يجوز أن يصدر الخطأ منهم أيضاً؟

والجواب: إنّه لا يمكن أن يكون الصادقون من الذين يجوز أن يصدر الخطأ منهم ولو نسياناً أو اشتباهاً، إذ لو جاز ذلك لما صحّ أن يؤمر المتّقون باتّباعهم اتّباعاً مطلقاً، وذلك لأنّ الله تعالى يكون قد أمرنا باتّباع الخطأ في حالة صدوره منهم وبأي شكل كان، والخطأ لا يمكن أن يأمر الله تعالى به. فتحصّل أنّه لا مجال لافتراض صدور الخطأ مطلقاً من الصادقين، لأنّه يؤدّي بالنتيجة إلى اجتماع النقيضين، وهو محال.

وهكذا تثبت عصمة الصادقين في الآية المباركة، ويكون معناها حينئذ: يا أيّها الذين يجوز صدور الخطأ منكم إذا أردتم أن تعصموا أنفسكم من الخطأ والزلل والضلال فاتّقوا الله وكونوا مع الذين لا يخطئون مطلقاً، وبتعبير آخر: إنّ الآية تريد أن تقول: يا أيّها الذين آمنوا اتّقوا الله وكونوا مع المعصومين.

• الخطوة الرابعة: ولا شكّ أنّ هذا الاستدلال في حال كونه يثبت أنّ الصادقين معصومين، يثبت وجود المعصوم في أُمّة النبي صلى الله عليه وآله وإلاّ كيف يؤمر المتّقين أمراً مطلقاً بالكون مع المعصوم واتّباعه وهو غير موجود؟ وهل هذا إلاّ تكليف بغير المقدور وهو غير جائز؟

استدلال ابن شهر آشوب والفخر الرازي

استدلّ كلّ من ابن شهرآشوب (٤٨٠ ـ ٥٨٣هـ) – من علماء مدرسة أهل البيت عليهم السلام – والفخر الرازي (٥٤٤ ـ ٦٠٦هـ) – من علماء مدرسة الخلفاء – على عصمة الصادق ووجوده باستدلال مشابه يقترب ممّا ذكرناه سابقاً:

قال ابن شهر آشوب في «متشابه القرآن ومختلفه»:

«قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ فأمرنا سبحانه بالكون مع الصادقين، والأمر بالكون معهم في المكان لا فائدة فيه، فتقتضي الآية وجوب الاقتداء بهم؛ لأنّه أمر مطلق من غير تخصيص، وذلك يقتضي عصمتهم؛ لقبح الأمر على هذا الوجه باتّباع من لا يؤمَن منه القبيح، من حيث يؤدّي ذلك إلى الأمر بالقبيح. وإذا ثبت ذلك في الآية ثبت تخصيصها بالأئمّة المعصومين»[١].

وأمّا الفخر الرازي، فقد قال في تفسيره الكبير: «.. إنّ قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ﴾ أمر لهم بالتقوى، وهذا الأمر إنّما يتناول من يصحّ منه أن لا يكون متّقياً، وإنّما يكون كذلك لو كان جائز الخطأ، فكانت الآية دالّة على أنّ من كان جائز الخطأ وجب كونه مقتدياً بمن كان واجب العصمة وهم الذين حكم الله بكونهم صادقين»[٢].

---

(١) **متشابه القرآن ومختلفه**، لابن شهر آشوب: ج ٢ ، ص ٤٩ / ط: بيدار.
(٢) **التفسير الكبير**، للفخر الرازي: ج ١٦ ، ص ٢٢١.

وهكذا يتبيّن أنّ فكرة وجود المعصوم فكرة إسلامية عامّة إلاّ أنّ الاختلاف إنّما يقع من جهة مصداق المعصوم ومن هو الذي يمثّله، على ما سيتبيّن لنا لاحقاً.

٢. الاستدلال على استمرار وجود المعصوم في كلّ زمان

يمكن إثبات وجود المعصوم في كلّ زمان من خلال قوله تعالى ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ وذلك لأنّ الأمر بالكون أمر مطلق غير محدّد بزمان معيّن، كما أنّه أمر مشروط بوجود الصادق المعصوم، وإلاّ كيف يتسنّى اتّباعه وهو غير موجود، فثبت وجوب وجود المعصوم في كلّ زمان لأنّه ـ أي وجوده ـ الشرط الذي يتمّ به الواجب ـ أي الكون معه ـ وما لا يتمّ الواجب إلاّ به فهو واجب.

ويمكن تقريب هذا الاستدلال بشكل آخر فنقول: إنّ وجود المتّقين الذين يجوز الخطأ منهم، وحاجتهم إلى الاقتداء بالمعصوم الذي لا يصدر عنه الخطأ مطلقاً، (هذا الوجود وهذه الحاجة) أمران قائمان ومستمرّان في كلّ الأزمان، ولا يمكن ترجيح وجودهما في آن على آن، ولهذا كانت الضرورة داعية إلى وجود المعصوم في كلّ زمان، لسدّ هذه الحاجة، ولا يمكن الاستغناء عنه في أي زمان كان.

وقد استدلّ الفخر الرازي بمثل هذا في تفسيره، فهو بعد أن يثبت أنّ الصادقين هم المعصومون يقول: «فهذا يدلّ على أنّه واجب على جائز الخطأ كونه مع المعصوم عن الخطأ، حتّى يكون المعصوم عن الخطأ مانعاً لجائز الخطأ عن الخطأ، وهذا المعنى قائم في جميع

الأزمان فوجب حصوله في كلّ الأزمان»(١).

وهكذا يتبيّن لنا كم يكون القول بولادة المهدي عجل الله فرجه، واستلامه للإمامة بعد أبيه العسكري عليه السلام مباشرة وبقائه حيّاً إلى يومنا هذا، منسجماً مع ما دلّت عليه الآية الشريفة من ضرورة وجود المعصوم عليه السلام على الأرض في كلّ زمان.

خلاصة الاستدلال

الخلاصة: إنّ الآية الشريفة ﴿كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ قد أثبتت أصلين عقائديين مهمّين هما:

الأوّل: وجود المعصوم عليه السلام بعد النبي صلى الله عليه وآله.

الثاني: ضرورة وجود المعصوم في كلّ زمان.

وبتتبّع أقوال علماء كلتا المدرستين يتبيّن لنا أنّ هاتين المقولتين ليستا من مختصّات الفكر الشيعي، بل هما مشتركتان بين كلتا المدرستين وإن اختلفت إحداهما عن الأخرى في تحديد مصداق المعصوم وشخصه.

وأمّا ما يبدو للكثيرين من أنّ هذه الأفكار هي من مختصّات الفكر الشيعي فلا أساس له من الصحّة، لأنّه تصورٌ نابع إمّا من خطأ المنهج المتَّبع في البحث، أو من تعمّد طمس الحقائق وكتمانها وتحريفها.

---

(١) **التفسير الكبير**، للرازي: ج ١٦، ص ٢٢١.

البحث الثاني: في (الإمامة الخاصّة)

يتولّى هذا البحث دراسة أبعاد الإمامة الخاصّة فيدرس من هم الأئمّة؟ وما عددهم؟ وما هي صيغ إثبات إمامتهم؟ وما خصائص كلّ منهم؟ ومن هو الإمام في عصرنا الحاضر؟ إلى غير ذلك من الأسئلة المرتبطة - إن صحّ التعبير - في المصداق الخارجي للإمامة لا بمفهومها العام. وسنحاول ـ إن شاء الله تعالى ـ التعرّض إلى أهمّ المسائل في هذا البحث تاركين البحث في غيرها إلى فرصة أُخرى.

أوّلاً: من هم الصادقون؟ وكيف نثبت ذلك؟

تبيّن في البحوث السابقة أنّ الآية الشريفة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ أمرت المؤمنين بالتقوى واتّباع الصادقين وهم المعصومون.

وقد وقع الاختلاف بين علماء المسلمين في مصداق هؤلاء الصادقين المعصومين، ومَن هم؟ حيث تعدّدت الآراء في هذا المجال وتكثّرت، ومن أهمّها:

- الرأي الأوّل: إنّ المراد بالصادقين هنا هم مجموع الأمّة، وهذا

معناه أنّ الأمّة الإسلامية إذا اجتمعت على أمر ما، فإنّ ذلك يكون أمراً صحيحاً، وإذا اختلفوا في أمر ما فلا يمكن اتّباعه، وهذا ما صرّح به الفخر الرازي في تفسيره الكبير، فبعد أن أثبت ـ على حدّ مدّعاه ـ بأنّ الصادق هو المعصوم ولكن ليس الذي تقول به الشيعة، قال: «فثبت أنّ قوله ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ ليس أمراً بالكون مع شخص معيّن، ولمّا بطل هذا بقي أنّ المراد منه الكون مع مجموع الأمّة، وذلك يدلّ على أنّ قول مجموع الأمّة حقّ وصواب ولا معنى لقولنا (الإجماع حجّة) إلاّ ذلك»(١).

ولو كنّا نحن وهذا الاحتمال لما ثبت من الدين إلاّ الشهادتان وبعض الضروريات الأخرى منه، ولما تمكّنا من الأخذ بجلّ المعتقدات وأكثر الأحكام، ولعُطّل الدين في جانب عظيم منه؛ لبداهة أنّ الأمّة لم تجمع إلاّ على عدد محدود من المسائل من بين آلاف المسائل المطروحة بينها.

وقد حاول الرازي أن يجعل مجموع الأمّة متمثّلاً بأهل الحلّ والعقد في محلّ آخر من تفسيره الكبير(٢) بمناسبة تفسير قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأمرِ مِنْكُمْ﴾(٣). غير أنّ هذه المحاولة لا تنفع في ترجيح هذا الرأي لأنّها بالإضافة إلى ابتلائها

---

(١) **التفسير الكبير**، للرازي: ج ١٦، ص ٢٢١.
(٢) **التفسير الكبير**، للرازي: ج ، ص ١٤٤.
(٣) النساء: ٥٩.

بالإشكال المثار أوّلاً، فإنّنا نتساءل أيضاً عن خصوصيات أهل الحلّ والعقد هؤلاء، وما هو عددهم؟ وكيف يتمّ اختيارهم؟ وفي أي مكان نعتمدهم؟ إلى غير ذلك من التساؤلات، ولمّا كانت الإجابة عن هذه التساؤلات متعدّدة ومختلفة ومتضاربة، فإنّه يتعذّر الوصول إلى أهل العقد والحل هؤلاء، ولا يمكن معرفتهم والقطع بهم، فكيف نؤمر باللحوق بهم واتّباعهم؟

• الرأي الثاني: ذهب أصحاب هذا الاحتمال إلى أنّ المراد بالصادقين هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، فإذا اجتمعوا أخذ الناس بما اجتمعوا عليه وإن اختلفوا فلا.

ولكن هذا الرأي يصطدم بالأمر الواقع أيضاً، فمتى اجتمع أصحاب الرسول صلى الله عليه وآله في أُمّهات المسائل التي واجهت الأمّة؟ وعلى كم اجتمعوا؟ لكي يتمكّن من أمِر بالتقوى أن يكون معهم وأن يتّبعهم؟

ولعلّ هذه الحقيقة، ونعني بها عدم اجتماع الصحابة تأريخياً على ما يهمّ الأمّة من المسائل، هي التي أدّت إلى أن يجهد القوم أنفسهم وبأي شكل كان لكي يثبتوا وقوع الإجماع في سقيفة بني ساعدة ليصحّحوا بهذا الإجماع بعد ذلك الخلافة التي انبثقت عنها، والحقّ أنّ دون إثبات هذا الإجماع خرط القتاد.

• الرأي الثالث: إنّ الصادقين هم الأنبياء السابقون، فما على الإنسان إلاّ أن يبحث عن مواقف مئة وأربعة وعشرين ألف نبي ليكون

معهم وتابعاً لهم.

ولا أدلّ على استبعاد هذا الاحتمال من كونه من الأمور غير المقدور عليها عملياً ولا طاقة للمكلّف بها.

وهكذا يستمرّ طرح الاحتمالات، التي تواجه الواحدة تلو الأخرى منها بالعديد من الاعتراضات والإشكالات.

ومن هنا كان لزاماً علينا أن نرجع إلى القرآن الكريم والروايات الشريفة لنتبيّن من خلال ذلك حقيقة مصداق الصادقين، ومن هم المعنيّون بذلك، ولنقف على حقيقة ما تنازعنا فيه؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ﴾[1].

ففي قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ ذكرت الآية خواصّ عديدة للأبرار ثمّ بيّنت أنّ مرادها من الأبرار هم الصادقون، فقالت: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا..﴾ فالأبرار هم الصادقون والصادقون هم الأبرار، وهذا ما بيّناه سابقاً بصورة مفصّلة.

ثمّ إنّ لفظة (الأبرار) قد وردت في آيات عديدة كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الأبرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْس كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً * عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ[2] اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً * يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ

(١) النساء: ٥٩.

(٢) الظاهر أنّ مراده ـ والله أعلم ـ من عباد الله المعنى الخاصّ للعباد لا المعنى العامّ لأنّ مطلق العبودية لا اختصاص لها بهم؛ لوجودها فيهم وفي غيرهم. ومثل هذا الأمر متعارف في القرآن الكريم، فله تعالى رحمة خاصّة وعامّة ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ

شَرُّهُ مُسْتَطِيراً * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً﴾(١).

إنّ البحث في أسباب نزول آيات سورة الدهر، سوف يبيّن لنا مصداق الأبرار ومن هم الأبرار المذكورون في هذه الآيات الشريفة، وحينها سيتبيّن لنا أنّه لا اختلاف بين علماء الإسلام ومن كلا الفريقين في أنّ هذه الآيات قد نزلت في عليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، فهم الأبرار إذن وهم الصادقون لا غيرهم؛ قال العلاّمة الطباطبائي: «والذي يجب أن يُتنبّه له أنّ سياق هذه الآيات سياق الاقتصاص، تذكر قوماً من المؤمنين تسمّيهم الأبرار وتكشف عن بعض أعمالهم وهو الإيفاء بالنذر وإطعام مسكين ويتيم وأسير، وتمدحهم وتعِدُهم الوعد الجميل.

فما تشير إليه من القصّة سبب النزول، وليس سياقها سياق فرض موضوع وذكر آثاره الجميلة، ثمّ الوعد الجميل عليها، ثمّ إنّ عدّ الأسير فيمن أطعمه هؤلاء الأبرار نعم الشاهد على كون الآيات مدنية فإنّ الأسير إنّما كان بعد هجرة النبي صلى الله عليه وآله وظهور الإسلام على الكفر والشرك لا قبلها»(٢).

كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ وله معيّة عامّة ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ﴾ وله معيّة خاصّة ﴿إِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمحسنِينَ﴾ وهكذا.

(١) الدهر: ٥ ـ ٩.

(٢) **الميزان** للطباطبائي: ج ٢٠، ص ١٢٧.

وقد ذكر العلاّمة في الميزان عدداً كبيراً من المصادر التي ذكرت القصّة، قال: «ففي الكشّاف[1]: (وعن ابن عباس أنّ الحسن والحسين مرضا فعادهما رسول الله صلى الله عليه وآله في ناس معه فقالوا: يا أبا الحسن لو نذرت على ولدك (ولديك ظ) فنذر علي وفاطمة وفضّة جارية لهما إن برئا ممّا بهما أن يصوموا ثلاثة أيّام، فشفيا وما معهم شيء.

فاستقرض عليّ من شمعون الخيبري اليهودي ثلاث أصوع من شعير فطحنت فاطمة صاعاً واختبزت خمسة أقراص على عددهم فوضعوها بين أيديهم ليفطروا فوقف عليهم سائل وقال: السلام عليكم أهل بيت محمّد! مسكين من مساكين المسلمين، أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنّة. فآثروه وباتوا لم يذوقوا إلاّ الماء وأصبحوا صياماً.

فلمّا أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديهم وقف عليهم يتيم فآثروه، ووقف عليهم أسير في الثالثة ففعلوا مثل ذلك.

فلمّا أصبحوا أخذ عليّ بيد الحسن والحسين وأقبلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فلمّا أبصرهم وهم يرتعشون كالفراخ من شدّة الجوع قال: ما أشدّ ما يسوءني ما أرى بكم، فانطلق معهم فرأى فاطمة في محرابها قد التصق ظهرها ببطنها وغارت عيناها، فساءه ذلك، فنزل جبرئيل وقال: خذها يا محمّد هنّاك الله في أهل بيتك. فأقرأه السورة).

(١) **الكشّاف**: ج ٤، ص ٦٧٠، ط بيروت.

أقول: الرواية مروية بغير واحد من الطرق عن عطاء عن ابن عباس ونقلها البحراني في غاية المرام عن أبي المؤيّد الموفّق بن أحمد في كتاب فضائل أمير المؤمنين بإسناده عن مجاهد عن ابن عباس، وعنه بإسناد آخر عن الضحّاك عن ابن عباس، وعن الحمويني في كتاب فرائد السمطين بإسناده عن مجاهد عن ابن عباس، وعن الثعلبي بإسناده عن أبي صالح عن ابن عباس، ورواه في المجمع عن الواحدي في تفسيره.

وفي مجمع البيان أيضاً عن أبي حمزة الثمالي في تفسيره قال: حدّثني الحسن بن الحسن أبو عبدالله بن الحسن أنّها مدنية نزلت في عليّ وفاطمة السورة كلّها.

وفي تفسير القمّي عن أبيه عن عبد الله بن ميمون عن أبي عبدالله عليه السلام قال: كان عند فاطمة عليها السلام شعير فجعلوه عصيدة فلمّا أنضجوها ووضعوها بين أيديهم جاء مسكين فقال: مسكين رحمكم الله. فقام عليّ عليه السلام فأعطاه ثلثاً فلم يلبث أن جاء يتيم فقال: اليتيم رحمكم الله فقام علي عليه السلام فأعطاه الثلث ثمّ جاء أسير، فقال الأسير: رحمكم الله. فأعطاه علي عليه السلام الثلث، وما ذاقوها، فأنزل الله سبحانه الآيات فيهم وهي جارية في كلّ مؤمن فعل ذلك لله عزّ وجلّ»(١).

---

(١) **الميزان** للطباطبائي: ج ٢٠، ص ١٣٣.

كما يمكن مراجعة القصّة في:

١ ـ (شواهد التنزيل) للحسكاني الحنفي ج٢ ص٢٩٨.

٢ ـ (تذكرة الخواص) للسبط بن الجوزي الحنفي ص٣١٢ ـ ٣١٧.

٣ ـ (أُسد الغابة) لابن الأثير الجزري الشافعي ج٥ ص٥٣٠ ـ ٥٣١.

٤ ـ (تفسير الفخر الرازي) ج١٣ ص٢٤٣ ط البهية / مصر.

٥ ـ (فتح القدير) للشوكاني ج٥ ص٣٤٩ ط١.

٦ ـ (الدرّ المنثور) للسيوطي ج٦ ص٢٩٩.

٧ ـ (ذخائر العقبى) ص٨٨ وص١٠٢.

٨ ـ (العقد الفريد) لابن عبد ربّه المالكي ج٥ ص٩٦ ط٢.

٩ ـ (معالم التنزيل) للبغوي الشافعي بهامش تفسير الخازن ج٧ ص١٥٩.

١٠ ـ (الإصابة) لابن حجر، ج٤ ص٣٨٧ ط: السعادة.

١١ ـ (تفسير البيضاوي) ج٥ ص١٦٥ ط: بيروت.

١٢ ـ (الغدير) للأميني ج٣ ص١٠٧ ـ ١١١.

١٣ ـ (إحقاق الحقّ) للتستري ج٣ ص١٥٨ ـ ١٦٩.

١٤ ـ (ينابيع المودّة) للقندوزي الحنفي ص٩٣ و٢١٢ ط: إسلامبول.

١٥ ـ (شرح نهج البلاغة) لابن أبي الحديد، ج١ ص٢١ وج١٣ ص٢٧٦ ط: مصر.

١٦ ـ (فضائل الخمسة من الصحاح الستّة) ج١ ص٢٥٤.

وغيرها من المصادر المعتبرة لدى الفريقين.

ومن الآيات الأخرى التي تعرّضت لذكر (الابرار) قوله تعالى: ﴿إِنَّ الأَبرَارَ لَفِي نَعِيم * عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيق مَخْتُوم * خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسْ الْمُتَنَافِسُونَ * وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيم * عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾[١] [٢].

ثمّ وصف تعالى المقرّبين بقوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾[٣].

(فالأبرار) إذن هم: (المقرّبون) وهم (السابقون) وبالرجوع إلى الروايات الشريفة ـ ولدى المدرستين معاً ـ نجد أنّ المقرّبين والسابقين ما هم إلاّ أهل البيت عليهم السلام فنخلص إلى أنّ (الأبرار الصادقين) ما هم إلاّ أهل البيت عليهم السلام.

في تفسير القمّي في قوله تعالى ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**هم رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين والأئمّة عليهم السلام**»[٤].

---

(١) المطفّفين: ٢٢ ـ ٢٨.

(٢) يذكر عادةً أنّ فوق درجة الأبرار هناك درجة المقرّبين ومن هنا أرادت الآية أن تبيّن أنّ اتّصاف هؤلاء بصفة الأبرار لا يعني أنّهم ليسوا من المقرّبين ، فهم أبرار وعباد الله ومقرّبون و....

(٣) الواقعة: ١٠ ـ ١٢.

(٤) **تفسير القمّي**: ج ٢ ، ص ٤١١.

وفيه عن علي بن إبراهيم عن أبي جعفر عليه السلام قال: «**أشرف شراب أهل الجنّة يأتيهم في عالي تسنيم وهي عين يشرب بها المقرّبون، والمقرّبون آل محمّد، يقول الله** ﴿السَّابقُونَ السَّابقُونَ. أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ **رسول الله وخديجة وعلي بن أبي طالب وذرّياتهم تلحق بهم**»[1].

وفي القمّي أيضاً، عن حذيفة بن اليمان، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ **فأنا من السابقين وأنا خير السابقين**[2].

وأمّا من كتب العامّة فيمكن مراجعة المصادر التالية في شأن نزول قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ وأنّها نزلت في علي بن أبي طالب عليه السلام:

١ ـ شواهد التنزيل للحسكاني ج٢ ص٢١٣ ح٩٢٤ ـ ٩٣١.

٢ ـ الدرّ المنثور للسيوطي ج٦ ص١٥٤.

٣ ـ الصواعق المحرقة لابن حجر الشافعي ص١٢٣ ط: المحمّدية.

٤ ـ ينابيع المودّة للقندوزي الحنفي ص٦٠ ص١١٥ ط: اسلامبول.

٥ ـ تفسير ابن كثير ج٤ ص٢٨٣.

٦ ـ روح المعاني للآلوسي ج٢٢ ص١١٤.

٧ ـ البداية والنهاية لابن كثير ج١ ص٢٣١.

---

(١) **تفسير القمّي**: ج ٢، ص ٤١٢.

(٢) **تفسير القمّي**: ج ٢، ص ٣٤٧.

٨ ـ فضائل الخمسة ج١ ص١٨٤.

٩ ـ منتخب كنز العمّال بهامش مسند أحمد ج٥ ص٣٠.

هذا بالإضافة إلى أنّ هناك العديد من الروايات التي وردت بخصوص الآية مورد البحث ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ وبيّنت بصورة مباشرة أنّ المراد من الصادقين هنا هم النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام؛ منها:

١ ـ ما ورد في كتاب إحقاق الحقّ:

قال: «الحادي والثلاثون: قوله تعالى: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ الآية ١١٩ في سورة التوبة. روى الجمهور أنّها نزلت في عليّ. وكذا قوله: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾»[1].

ثمّ ذكر صاحب إحقاق الحقّ في الحاشية ما يلي: «ذكر ذلك أنّها نزلت في أمير المؤمنين جماعة من أكابر القوم ـ من علماء مدرسة أتباع الخلفاء ـ منهم:

• العلاّمة الثعلبي في تفسيره المشهور، قال: قال ابن عباس في هذه الآية ﴿اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا..﴾: يعني مع علي بن أبي طالب وأصحابه.

• العلاّمة الكنجي في كفاية الطالب، ذكر ذلك أيضاً عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام في قوله عزّوجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ﴾ قال: مع علي بن أبي طالب.

---

(١) **إحقاق الحقّ**: ج ٣، ص ٢٩٦.

• ورواه محدّث الشام في تاريخه في ترجمة علي عليه السلام وذكر طرقه.

• ومنهم العلاّمة سبط بن الجوزي في التذكرة، قال: قال علماء السير معناه كونوا مع علي وأهل بيته.

• ومنهم العلاّمة صاحب كتاب شرف النبيّ.

• ومنهم العلاّمة الخركوشي في شرف المصطفى.

• ومنهم العلاّمة أبو يوسف يعقوب بن سفيان روى عن أنس بن مالك عن عمر ﴿كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾: مع محمّد وأهل بيته عليهم السلام.

• ومنهم العلاّمة أخطب خوارزم في فضائل علي كما في كفاية الخصام، قال روى بسنده عن ابن عباس أنّها نزلت في علي.

• ومنهم العلاّمة السيوطي في الدرّ المنثور، قال: مع علي بن أبي طالب.

• وهكذا أخرج ابن عساكر عن الباقر ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ يعني مع علي.

• ومنهم العلاّمة الشوكاني في تفسيره.

• ومنهم الآلوسي في روح المعاني.

• ومنهم الشيخ سليمان القندوزي في ينابيع المودّة، قال: أخرج معرفت بن أحمد الخوارزمي عن أبي صالح عن ابن عباس وأخرج

أبو نعيم الحافظ الحمويني أخرجاه عن ابن عباس وأخرج أبو نعيم أيضاً عن جعفر الصادق وأخرج أبو نعيم أيضاً وصاحب المناقب عن الباقر والرضا، قال: الصادقون هم الأئمّة من أهل البيت.

- ومنهم صاحب كتاب أرجح المطالب.
- ومنهم العلاّمة أبو اليقظان في صفوة الزلال المعين.
- ومنهم العلاّمة المير محمّد صالح الكشفي الترمذي.

وغيرهم كثير.

٢ ـ ما ورد في تفسير البرهان للسيّد هاشم البحراني(١):

- عن بريدة بن معاوية العجلي: قال سألت أبا جعفر عن قول الله عزّوجلّ: ﴿اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ قال: إيّانا عنى.
- وقوله أيضاً عن أبي الحسن الرضا، قال سألته عن قول الله عزّوجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ قال: الصادقون هم الأئمّة.
- عن جابر بن أبي جعفر في قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ قال: يعني مع علي بن أبي طالب.
- وفي حديث المناشدة، قال أمير المؤمنين عليه السلام: **أنشدتكم الله أتعلمون أنّ الله أنزل:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ

(١) **البرهان** للبحراني: ج ٢ ، ص ١٧٠.

الصَّادِقِينَ﴾ فقال سلمان: يا رسول الله أعامّة هي أم خاصّة؟ قال: **أمّا المأمورون فالعامّة من المؤمنين أُمروا بذلك، وأمّا الصادقون فخاصّة لأخي علي والأوصياء من بعده إلى يوم القيامة؟** قالوا: اللهمّ نعم.

• وعن أبي حمزة الثمالي، قال: قال أبو جعفر: **يا أبا حمزة إنّما يعبد الله من عرف الله وأمّا من لم يعرف الله كأنّما يعبد غيره هكذا ضالاً**، قلت: أصلحك الله وما معرفة الله؟ قال: **يصدق الله ويصدق محمّداً، يصدّقه في موالاة علي والائتمام به وبأئمّة الهدى من بعده، والبراءة من عدوّهم. وكذلك عرفان الله.** قلت: أصلحك الله، أي شيء إذا علمته أنا استكملت حقيقة الإيمان؟ قال: **توالي أولياء الله وتعادي أعداء الله وتكون مع الصادقين كما أمرك الله**، قال: قلت من أولياء الله ومن أعداء الله؟ فقال: **أولياء الله محمّد رسول الله وعلي والحسن والحسين ثمّ انتهى الأمر إلينا ثمّ ابني جعفر** وأومأ إلى جعفر وهو جالس، **فمن والى هؤلاء فقد والى أولياء الله وكان مع الصادقين كما أمره الله بذلك.**

الخلاصة

يتبيّن لنا بصورة قاطعة وبمساعدة الآيات والروايات أنّ الصادقين الذين هم الأبرار وهم السابقون وهم المقرّبون ليسوا هم إلاّ رسول الله صلى الله عليه وآله والأئمّة المعصومون من أهل بيته عليهم السلام.

ثم بعد أن تبيّن لنا أنّ (الصادقين) في الآية المباركة هم النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام، وبعد أن تعرّفنا على أسماء عدد

منهم عليهم السلام من خلال بعض الروايات التي أوردناها، لابدّ وأن نتطرّق إلى الأمور الأخرى التي لابدّ من بحثها في (الإمامة الخاصّة)، ومن أهمّها: حصر عدد الأئمّة عليهم السلام باثني عشر إماماً، وتسمية هؤلاء الأئمّة بأسمائهم، وأنّ الإمام المعصوم في زماننا هو المهدي الحجّة بن الحسن (عجل الله فرجه) وأنّه حيّ غائب منتظر سيظهر بعد أن يأذن الله له تعالى بذلك.

ثانياً ـ عدد الأئمّة اثنا عشر إماماً

تبنّى أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام حصر عدد الأئمّة باثني عشر إماماً تبعاً لما بين أيديهم من الروايات الصحيحة الدالّة على ذلك.

وقد ذكر المحقّق آية الله الصافي في كتابه القيّم (منتخب الأثر) أنّ الروايات التي ذكرت أنّ الخلفاء من بعد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله هم اثنا عشر، قد تصل إلى ما يتجاوز (٢٧٠ رواية) من طرق الفريقين(١).

ولعلّ العدد أكثر من ذلك بكثير، كما ورد في «معجم أحاديث الإمام المهدي»(٢).

---

(١) **منتخب الأثر في الإمام الثاني عشر**: ط٣، ص١٠.

(٢) **معجم أحاديث الإمام المهدي** عجل الله فرجه: ج ٢، ص ٢٦٥، نشر مؤسّسة المعارف الإسلامية.

وكنموذج على ذلك فقد خرّج مضمون هذا الحديث كلّ من: صحيح البخاري، وصحيح مسلم، ومسند أحمد، وسنن الترمذي، وسنن أبي داود، والمعجم الكبير للطبراني، وحلية الأولياء، ومستدرك الحاكم، وصحيح مسلم بشرح النووي، ومشكاة المصابيح، والسلسلة الصحيحة للألباني، وعود المعبود في شرح سنن أبي داود، والصواعق المحرقة، وتاريخ الخلفاء، وكنز العمّال، وغيرهم كثير[1].

ومن هذه الروايات: أخرج البخاري بسنده عن جابر بن سمرة قال: سمعت النبي صلى الله عليه وآله يقول: «**يكون اثنا عشر أميراً** ـ فقال كلمة لم أسمعها ـ فقال أبي: إنّه قال: **كلّهم من قريش**»[2].

وفي صحيح مسلم عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**لا يزال الدين قائماً حتّى تقوم الساعة أو يكون عليكم إثنا عشر خليفة كلّهم من**

---

(١) **صحيح البخاري**، كتاب الأحكام، باب الاستخلاف: ج٤ ص١٦٤؛ **صحيح مسلم**: ج٢ ص١١٩، كتاب الإمارة، أخرجه بتسعة طرق؛ **مسند أحمد**: ج٥ ص٩٠ و٩٣ و٩٧ و١٠٦ و١٠٧؛ **سنن الترمذي**: ج٤ ص٥٠١؛ **سنن أبي داود**: ج٤ ص١٠٦ ح٧٢٧٩ و٤٢٨١؛ **المعجم الكبير** للطبراني: ج٢ ص٢٣٨ ح١٩٩٦؛ **حلية الأولياء**: ج٤ ص٣٣٢؛ **مستدرك الحاكم**: ج٣ ص٦١٨؛ **صحيح مسلم بشرح النووي**: ج١٢ ص٢٠١؛ **مشكاة المصابيح** للتبريزي: ج٣ ص٣٢٧ ح٥٩٨٣؛ **السلسلة الصحيحة** للألباني: ح٣٧٦ ؛ **عون المعبود في شرح سنن أبي داود**: ج١١، ص٢٦٢، شرح الحديث ٤٢٥٩؛ **الصواعق المحرقة**: ص١٢؛ **تاريخ الخلفاء**: ص١٠؛ **كنز العمّال**: ج١٣ ص٢٧.

(٢) **صحيح البخاري**: ج٤ ص١٦٤، كتاب الأحكام، باب الاستخلاف.

قريش»[1].

ويقول أحمد بن حنبل في مسنده عن مسروق، قال: كنّا جلوساً عند عبد الله بن مسعود وهو يقرأ القرآن، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن! هل سألتم رسول الله (صلى الله عليه وآله) كم يملك هذه الأمّة من خليفة؟ فقال عبدالله: ما سألني عنها أحد منذ قدمت العراق قبلك، ثمّ قال: نعم، ولقد سألنا رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: «**اثنا عشر كعدّة نقباء بني إسرائيل**»[2].

هذا بالإضافة إلى عشرات المصادر الشيعية.

خصائص هذه الروايات

تمتاز هذه الروايات التي ذُكرت بهذه الكيفية، وهذا العدد من الأسانيد والطرق من الصدر الأوّل إلى يومنا هذا، بمجموعة من الخصوصيات هي:

الخصوصية الأولى: أنّ هذه الروايات لا يمكن لأحد أن يتّهم أتباع أهل البيت عليهم السلام بوضعها واختلاقها، بعد أن آمنوا بأنّ عدد الأئمّة اثنا عشر، وذلك لورودها في أهمّ الصحاح والمسانيد السنّية قبل ذكرها في المصادر الشيعية، وأنّ جملة من طرقها تعدّ موثوقة لديهم حسب الموازين الرجالية عندهم، مضافاً إلى أنّ هذا العدد ذكر قبل أن

(١) **صحيح مسلم**: ج٢ ص١١٩، باب: الناس تبع لقريش، أخرجه من تسعة طرق.
(٢) **مسند أحمد**: ج٥ ص٩٠.

يكتمل عدد الأئمّة عند مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

الخصوصية الثانية: أنّ عدداً كبيراً من هذه الروايات من طرق الفريقين شبّهت هؤلاء الأئمّة والخلفاء بأنّهم كنقباء بني اسرائيل،... ومقتضى هذا التشبيه كما يقول السيّد محمّد تقي الحكيم أن يكون هؤلاء الأمراء معيّنين بالنصّ، وذلك لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً﴾[1] وعلى هذا الأساس فلا يمكن الوقوف على هؤلاء الخلفاء والأئمّة من خلال اختيار الأمّة أو انتخاب أهل الحلّ والعقد، بل لابدّ من الرجوع إلى من لا ينطق عن الهوى للتعرّف عليهم.

الخصوصية الثالثة: إنّ هذه الروايات افترضت لهم البقاء ما بقي الدين الإسلامي أو حتّى تقوم الساعة.

الخصوصية الرابعة: إنّ هذه الروايات أكّدت أنّ هؤلاء الخلفاء كلّهم من قريش.

ثالثاً: تعيين أسماء الأئمّة عليهم السلام

صرّح الرسول صلى الله عليه وآله بأنّ عدد الأئمّة من بعده هو: اثنا عشر إماماً، ثمّ شبّههم بـ (نقباء بني اسرائيل) ممّا يدلّ على أنّ تعيينهم لابدّ وأن يكون بالنصّ لا باختيار الأمّة، ومن هنا فإنّه ومن

---

(١) المائدة: ١٢.

الطبيعي أن نجد العديد من الروايات التي تعيّنهم وتسمّيهم للأمّة، وهذا ما نجده واضحاً في التراث الحديثي الشيعي الذي تكلّم عن هذه الحقيقة بجلاء وسنتعرّض هنا بإيجاز إلى طريقين يمكن من خلالهما تعيين مصاديق الأئمّة عليهم السلام، وهما:

● الطريق الأوّل: وهو الطريق المباشر لتعيينهم من خلال الروايات المنقولة عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والتي تنصّ عليهم بأسمائهم.

منها: ما ذكره في «ينابيع المودّة» عن كتاب «فرائد السمطين» بسنده عن مجاهد، عن ابن عباس، قال: قدِم يهودي يقال له نعثل، فقال: يامحمّد أسألك عن أشياء تلجلج في صدري منذ حين، فإن أجبتني عنها أسلمت على يديك. قال: سل يا أبا عمارة ـ إلى أن قال السائل ـ: صدقت. فأخبرني عن وصيّك من هو؟ فما من نبي إلاّ وله وصي، وإنّ نبيّنا موسى بن عمران أوصى إلى يوشع بن نون، فقال صلى الله عليه وآله: «**إنّ وصيّي علي بن أبي طالب، وبعده سبطاي الحسن والحسين، تتلوه تسعة أئمّة من صلب الحسين**»، قال: يا محمّد، فسمّهم لي، قال: «**إذا مضى الحسين فإبنه علي، فإذا مضى علي فابنه محمّد، فإذا مضى محمّد فابنه جعفر، فإذا مضى جعفر فابنه موسى، فإذا مضى موسى فابنه علي، فإذا مضى علي فابنه محمّد، فإذا مضى محمّد فابنه علي، فإذا مضى علي فابنه الحسن، فإذا مضى الحسن فابنه الحجّة محمّد المهدي**»[١].

(١) **منتخب الأثر**: ص٩٧، الباب الثامن، فيما يدلّ على الأئمّة الاثني عشر بأسمائهم.

وعن جابر بن يزيد الجعفي، قال: سمعت جابر بن عبد الله الأنصاري يقول:

«لمّا أنزل الله عزّ وجلّ على نبيّه محمّد صلى الله عليه وآله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأمرِ مِنْكُمْ﴾(١) قلت: يا رسول الله، عرفنا الله ورسوله، فمن أُولو الأمر الذين قرن الله طاعتهم بطاعتك؟ فقال صلى الله عليه وآله: «هم خلفائي ياجابر، وأئمّة المسلمين من بعدي، أوّلهم علي بن أبي طالب، ثمّ الحسن، ثمّ الحسين، ثمّ علي بن الحسين، ثمّ محمّد بن علي المعروف [في التوراة] بالباقر، وستدركه ياجابر فإذا لقيته، فاقرأه منّي السلام، ثمّ الصادق جعفر بن محمّد، ثمّ موسى بن جعفر، ثمّ علي بن موسى، ثمّ محمّد بن علي، ثمّ علي بن محمّد، ثمّ الحسن بن علي، ثمّ سميّي وكنيّي حجّة الله في أرضه، وبقيته في عباده، ابن الحسن بن علي، ذاك الذي يفتح الله (تعالى ذكره) على يديه مشارق الأرض ومغاربها، ذاك الذي يغيب عن شيعته وأوليائه، غيبة لا يثبت فيها على القول بإمامته إلاّ من امتحن الله قلبه للإيمان.

قال جابر: فقلت: يا رسول الله، فهل ينتفع الشيعة به في غيبته؟

فقال: [إي] والذي بعثني [بالنبوّة] يستضيئون بنوره، وينتفعون بولايته في غيبته، كانتفاع الناس بالشمس وإن تجلّلها سحاب، ياجابر هذا من مكنون سرّ الله، ومخزون علم الله، فاكتمه إلاّ عن أهله»(٢).

---

(١) النساء: ٥٩.

(٢) إعلام الورى بأعلام الهدى ، للطبرسي: ص٣٧٥ ط. دار التعارف.

وروايات المعراج التي تحدّثت عن هذه الحقيقة وذكرت أسماء الأئمّة عليهم السلام كثيرة جدّاً[١].

وقد أحصى الصافي الگلپايگاني في كتابه (منتخب الأثر) أكثر من خمسين رواية في هذا المجال، وقال بعد ذلك: «النصوص الواردة في ساداتنا الأئمّة الاثني عشر، بلغت في الكثرة حدّاً، لا يسعه مثل هذا الكتاب، وكتب أصحابنا في الإمامة وغيرها مشحونة بها، واستقصاؤها صعب جدّاً»[٢].

• الطريق الثاني: وهو طريق نقليّ أيضاً، ولكنّه طولي، ونعني به: أنّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يعيّن بعضاً من هؤلاء الأئمّة من بعده، ثمّ يقوم كلّ واحد من هؤلاء بتعيين الخليفة الذي يأتي بعده وهكذا، وهذا ما نجده واضحاً في كثير من الروايات التي عيّن فيها كلّ إمام سابق الإمام اللاحق له ونصّ عليه.

إشكال وجواب

وقد يستشكل على هذا الطريق بأنّ رواياته إمّا ضعيفة السند أو على فرض صحّتها فإنّها روايات آحاد لا يمكن الاعتماد عليها في الأصول الاعتقادية كمبحث الإمامة.

---

(١) راجع ـ مثلاً ـ **إكمال الدين**: ج١ ص٢٥٢ باب٢٣ ح٢.

(٢) **منتخب الأثر**: ص١٤٥.

ولنا أن نجيب على هذا الإشكال:

أوّلاً: بأنّنا لا نعتمد على خصوص هذه الروايات لتعيين الأئمّة عليهم السلام، بل نضيف لها عشرات الروايات التي تحدّثت عن أسمائهم جميعاً، كما في الطريق الأوّل.

ثانياً: إضافة الدليل التاريخي: بالإمكان أن نضيف لهذه الأدلّة دليل آخر لإثبات إمامتهم عليهم السلام هو الدليل التأريخي، وقد قرّره السيّد محمّد تقي الحكيم رحمه الله في كتابه «الأصول العامّة» حيث قال: «إنّ هؤلاء الأئمّة الاثني عشر، قد ادّعوا لأنفسهم الإمامة في عرض السلطات الزمنية، واتّخذوا من أنفسهم، كما اتّخذهم الملايين من أتباعهم، قادة للمعارضة السلميّة للحكم القائم في زمنهم وكانوا عرضة للسجون والمراقبة وكثير منهم قُتل بالسمّ، وفيهم من استشهد في ميدان الجهاد على أيدي القائمين بالَحكم، وفي هؤلاء من تولّى الإمامة وهو ابن عشرين سنة كالحسن العسكري عليه السلام، بل فيهم من تولّى منصبها وهو ابن ثمان كالإمامين الجواد والهادي عليهما السلام. ومن المعروف عن الشيعة ادّعاؤهم العصمة لأئمّتهم الملازمة لدعوى الإحاطة في شؤون الشريعة جميعها، بل ادّعوا الأعلمية في جميع الشؤون وهم أنفسهم صرّحوا بذلك»[1].

ومن كلماتهم في ذلك:

---

(١) **الأصول العامّة للفقه المقارن:** ص١٨١.

١ ـ عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول: «نحن شجرة النبوّة، ومحطّ الرسالة، ومختلف الملائكة، ومعادن العلم، وينابيع الحكمة»[(١)].

٢ ـ وعنه عليه السلام أيضاً: «أين الذين زعموا أنّهم الراسخون في العلم دوننا، كذباً وبغياً، أن رفعنا الله ووضعهم، وأعطانا وحرمهم، وأدخلنا وأخرجهم، بنا يُستعطى الهدى، ويُستجلى العمى، إنّ الأئمّة من قريش، غرسوا في هذا البطن من هاشم، لا تصلح على سواهم، ولا تصلح الولاة من غيرهم»[(٢)].

٣ ـ وقال الإمام الرضا عليه السلام: «إنّ الإمامة هي منزلة الأنبياء وإرث الأوصياء، إنّ الإمامة خلافة الله وخلافة الرسول صلى الله عليه وآله، ومقام أمير المؤمنين عليه السلام، وميراث الحسن والحسين عليهما السلام، إنّ الإمامة زمام الدين، ونظام المسلمين، وصلاح الدنيا، وعزّ المؤمنين، إنّ الإمامة أُسّ الإسلام النامي، وفرعه السامي ـ إلى أن يقول ـ الإمام واحد دهره، لا يدانيه أحد، ولا يعادله عالم، ولا يوجد منه بدل، ولا له مثل ولا نظير، مخصوص بالفضل كلّه من غير طلب منه له ولا اكتساب، بل اختصاص من المفضّل الوهّاب» «أتظنّون أنّ ذلك يوجد في غير آل الرسول صلى الله عليه وآله، كذّبتهم والله أنفسهم، ومنّتهم الأباطيل، فارتقوا مرتقىً صعباً دحضاً، تزلّ إلى الحضيض أقدامهم، راموا

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة رقم ١٠٩.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة رقم ١٤٤.

إقامة الإمام بعقول حائرة بائرة ناقصة، وآراء مضلّة، فلم يزدادوا منه إلاّ بعداً، ولقد راموا صعباً، وقالوا إفكاً، وضلّوا ضلالاً بعيداً...» «وأنّ العبد إذا اختاره الله عزّوجلّ لأمور عباده، شرح صدره لذلك وأودع قلبه ينابيع الحكمة، وألهمه العلم إلهاماً، فلم يعي بعده بجواب، ولا يحير فيه عن الصواب، فهو معصوم مؤيّد، موفّق مسدّد، قد أمن من الخطايا والزلل والعثار، يخصّه الله بذلك ليكون حجّته على عباده، وشاهده على خلقه، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم»[1].

ونظير هذه الأقوال كثير في كلام أئمّة أهل البيت سلام الله عليهم أجمعين. من هنا قد يقال: «أما كان بوسع السلطة وهي تملك ما تملك من وسائل القمع، أن تقضي على هذه الجبهة من المعارضة ذات الدعاوي العريضة من أيسر طرقها، وذلك بتعريض أئمّتها لشيء من الامتحان العسير في بعض ما يملكه العصر من معارف، وبخاصّة ما يتّصل بغوامض الفقه والتشريع، ليسقط دعواها في الأعلمية من الأساس، أو يعرّضهم إلى شيء من الامتحان في الأخلاق والسلوك ليسقط ادّعاؤهم العصمة. وإذا كان في الكبار منهم عصمة وعلم، نتيجة دربة، فما هو الشأن في ابن عشرين عاماً أو ابن ثمان، فهل تملك الوسائل الطبيعية تعليلاً لتمثّلهم لذلك كلّه. ولو كان هؤلاء الأئمّة في زوايا أو تكايا، وكانوا محجوبين عن الرأي العام كما هو الشأن في أئمّة الإسماعيلية، أو بعض الفرق الباطنية، لكان لإضفاء الغموض

---

(١) **الأصول من الكافي**: ج١ ص٢٠٠ ح١.

والمناقبية على سلوكهم من الأتباع مجال، ولكن ما نصنع وهم مصحرون بأفكارهم وسلوكهم وواقعهم، تجاه السلطة وغيرها من خصومهم في الفكر، والتأريخ حافل بمواقف السلطة منهم ومحاربتها لأفكارهم، وتعريضهم لمختلف وسائل الإغراء والاختبار، ومع ذلك فقد حفل التأريخ بنتائج اختباراتهم المختلفة وسجّلها بإكبار. ولقد حدّث المؤرخون عن كثير من هذه المواقف المحرجة، وبخاصّة مع الإمام الجواد، مستغلّين صغر سنّه عند تولّي الإمامة. وحتّى لو افترضنا سكوت التأريخ عن هذه الظاهرة، فإنّ من غير الطبيعي أن لا تحدث أكثر من مرّة، تبعاً لتكرّر الحاجة إليها، وبخاصّة أنّ المعارضة كانت على أشدّها في العصور العبّاسية. وطريقة إعلان فضيحتهم بإحراج أئمّتهم فيما يدّعونه من علم واستقامة سلوك، وإبراز سخفهم لاحتضانهم أئمّة بهذا السنّ وهذا المستوى لو أمكن ذلك، أيسر بكثير من تعريض الأمّة إلى حروب قد يكون الخليفة نفسه من ضحاياها، أو تعريض هؤلاء الأئمّة إلى السجون والمراقبة أو المجاملة أحياناً... وإذا كان للصدفة ـ وهي مستحيلة ـ مجالها في امتحان ما، بالنسبة إلى شخص ما، فليس لها موقع بالنسبة إليه في مختلف المجالات، فضلاً عن تكرّرها بالنسبة إلى جميع الأئمّة، صغارهم وكبارهم، كما يحدّث في ذلك التأريخ. وأظنّ أنّ في هذه الاعتبارات التي ذكرناها مجتمعة ما يغني عن استيعاب كلّ ما ذكر في تشخيص المراد من أهل البيت»[1].

---

(١) **الأصول العامّة للفقه المقارن**، محمّد تقي الحكيم: ص١٨٢.

وهكذا يخلص السيّد الحكيم قدس سره إلى أنّ السلطة القائمة آنذاك على شدّتها وطغيانها وحاجتها الشديدة لإبطال إمامة أئمّة أهل البيت عليهم السلام، لم تتمكّن هذه السلطة من إحراج أئمّة الشيعة عليهم السلام صغارهم وكبارهم ولو لمرّة واحدة طيلة فترة إمامتهم الظاهرة التي دامت إلى عصر غيبة الإمام الحجّة بن الحسن عجل الله فرجه حوالي منتصف القرن الثالث الهجري، هذه الإمامة التي توالى عليها أئمّة بلغ عمر بعضهم الثماني سنوات حين تولّى الإمامة، وفي كلّ هذا شاهد على صحّة إمامة أئمّة أهل البيت عليهم السلام وصحّة ما ادّعوه لأنفسهم من النصّ عليهم والعصمة والعلمية وباقي صفات وشؤون الإمامة الحقّة.

رابعاً: الإمام الثاني عشر هو الحجّة بن الحسن المنتظر

تعتبر مسألة الإمام المهدي عجّل الله فرجه من المسائل الأساسية في بحث الإمامة الخاصّة، من هنا ورد التركيز عليها في التراث الشيعي بما يناسب موقعها المهمّ هذا. كما إنّ فكرة مجيء المصلح في آخر الزمان، فكرة لا خلاف عليها بين علماء المسلمين عامّة، حيث اتّفقت كلمتهم إلاّ من شذّ منهم، على أنّه لابدّ أن يأتي في آخر الزمان من يصلح الأرض، ويملأها قسطاً وعدلاً، بعد أن ملئت ظلماً وجوراً. وممّن صرّح بأحاديث المهدي:

١ ـ الترمذي في (سننه) ج٤ ص٥٠٥.

٢ ـ الحاكم في (مستدركه) ج٤ ص٥٥٣.

٣ ـ البغوي في (مصابيح السنّة) ص٤٨٨ ح٤١٩٩.

٤ ـ ابن الأثير في (النهاية) ج٥ ص٢٥٤.

٥ ـ ابن تيمية في (منهاج السنّة) ج٤ ص٢١١.

٦ ـ الذهبي في (تلخيص المستدرك) ج٤ ص٥٥٣.

٧ ـ التفتازاني في (شرح المقاصد) ج٥ ص٣١٢.

٨ ـ الهيثمي في (مجمع الزوائد) ج٧ ص٣١٣ ـ ٣١٤. وغيرهم.

وصحّح النيسابوري كثيراً من روايات المهدي، وعبّر عن طائفة منها بأنّها صحيحة على شرط الشيخين ولم يخرّجاه، كحديث أُمّ سلمة حول خسف البيداء الذي يكون في زمن المهدي[(١)]، وحديث ابن مسعود **«لا تذهب الدنيا حتّى يملك العرب رجل من أهل بيتي، يواطئ اسمه اسمي»**[(٢)]، وحديث **«لا تقوم الساعة حتّى تملأ الأرض ظلماً وجوراً وعدواناً، ثمّ يخرج من أهل بيتي من يملأها قسطاً وعدلاً»**[(٣)]، وحديث محمّد ابن الحنفية عن أبيه علي عليه السلام أنّه قال، وقد سأله رجل عن المهدي: **«ذاك يخرج في آخر الزمان»**[(٤)].

---

(١) **مستدرك الحاكم**: ج٤ ص٤٢٩.

(٢) **مستدرك الحاكم**: ج٤ ص٤٤٢.

(٣) **مستدرك الحاكم**: ج٤ ص٥٥٧.

(٤) **مستدرك الحاكم**: ج٤ ص٥٥٤.

بل صرّح بعض الأعلام بتواتر هذه الأحاديث مثل:

١ ـ الأبري في (مناقب الشافعي)، كما نقل ذلك المزّي في تهذيبه ج٢٥ ص١٤٦ / ٥١٨١.

٢ ـ القرطبي في (التذكرة) ص٧٠١.

٣ ـ العسقلاني في (تهذيب التهذيب) ج٩ ص١٢٥ ـ ٢٠١.

٤ ـ والسخاوي في (فتح المغيث) والمتّقي الهندي في (البرهان في علامات مهدي آخر الزمان) وعشرات غيرهم لا مجال لذكرهم في هذه العجالة.

فمثلاً، قال ابن حجر في تهذيب التهذيب، نقلاً عن الأبري في ترجمة محمّد بن خالد الجندي: «وقد تواترت الأخبار، واستفاضت بكثرة رواتها، عن المصطفى صلى الله عليه وآله في المهدي، وأنّه من أهل بيته، وأنّه يملك سبع سنين، ويملأ الأرض عدلاً، وأنّ عيسى عليه السلام يخرج فيساعده على قتل الدجّال، وأنّه يؤمّ هذه الأمّة، وعيسى خلفه»[(١)].

ولم يقتصر الأمر على المتقدّمين من علماء المسلمين، بل نجد ذلك واضحاً في كتابات المتأخّرين أيضاً، حيث صرّح أهل التحقيق منهم، بصحّة أحاديث المهدي، بل بتواترها، كالشيخ محمّد الخضر المصري، والشيخ محمّد فؤاد عبدالباقي، وأبو الأعلى المودودي،

(١) تهذيب التهذيب: ج٩ ص١٢٥ ـ ٢٠١.

وناصر الدين الألباني، والشيخ حمّود التويجري، والشيخ عبدالعزيز بن باز، وغيرهم[١].

وقال الشيخ منصور علي ناصف في كتابه (التاج الجامع للأصول): «اشتهر بين العلماء سلفاً وخلفاً، أنّه في آخر الزمان، لابدّ من ظهور رجل من أهل البيت، يسمّى المهدي، يستولي على الممالك الإسلامية، ويتبعه المسلمون، ويعدل بينهم، ويؤيّد الدين، وبعده يظهر الدجّال، وينزل عيسى عليه السلام فيقتله، أو يتعاون عيسى مع المهدي على قتله. وقد روى أحاديث المهدي جماعة من خيار الصحابة، وخرّجها أكابر المحدّثين، كأبي داود والترمذي، وابن ماجة...، ولقد أخطأ من ضعّف أحاديث المهدي كلّها، كابن خلدون وغيره»[٢].

وقال ابن باز: «فأمر المهدي معلوم، والأحاديث فيه مستفيضة، بل متواترة متعاضدة، وقد حكى غير واحد من أهل العلم تواترها... وهي متواترة تواتراً معنوياً، لكثرة طرقها واختلاف مخارجها، وصحابتها، ورواتها، وألفاظها، فهي تدلّ على أنّ هذا الشخص الموعود به، أمره

(١) **نظرة في أحاديث المهدي** ص٨٢٩ ـ مقال نشرته مجلّة التمدّن الإسلامي، دمشق ١٣٧٠هـ ـ ١٩٥٠م؛ محاضرة نشرت في مجلّة الجامعة الإسلامية للشيخ محمّد فؤاد عبد الباقي، العدد الثالث، السنة الأولى ١٣٨٨هـ السعودية؛ **البيانات** للمودودي ص١١٦؛ **حول المهدي** ـ مقال ـ ٦٤٤، نشرته مجلّة التمدّن الإسلامي ١٣٧١هـ ـ دمشق؛ **الاحتجاج بالأثر على من أنكر المهدي المنتظر**: ص٧٠ ـ ٧١؛ **الاحتجاج بالأثر** للتويجري، كلمة التصدير، بقلم ابن باز: ص٣.

(٢) **التاج الجامع للأصول**: ج٥ ص٣٤١.

حقّ ثابت وخروجه حقّ»[1].

وقد ورد في معجم أحاديث الإمام المهدي ما يقرب من (٢٠٠٠ رواية) عن رسول الله وأهل بيته تعرّضت لمختلف شؤون المهدي، كالأبحاث المتعلّقة بمرحلة ما قبل ظهور المهدي (عجّل الله فرجه)، ثمّ ما يتعلّق بشخصيّته، وحركة ظهوره، وأحداثها، ثمّ ما يكون بعده[2].

إذن، فمسألة ظهور المهدي في آخر الزمان، وأنّه من أهل بيته صلى الله عليه وآله وعترته، وأنّه يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، ممّا لا ريب فيها، ولا مجال للتشكيك والتردّد إزاءها، وبتعبير الشيخ محمود التويجري: (أنّه لا ينكر خروجه إلاّ جاهل أو مكابر)[3].

طرق إثبات أنّ الإمام المهدي عليه السلام حيّ

نعم، الأمر الذي وقع الخلاف فيه بين علماء المسلمين، إنّما هو في جهة أُخرى من البحث، هي: هل المهدي حي؟ ولكنّه غائب مستور، كما ذهب إلى ذلك أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام تبعاً للروايات الصحيحة الواردة عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأئمّة أهل البيت عليهم السلام، أم سيولد بعد ذلك؟ كما هو الاتّجاه العام

---

(١) كلمة ابن باز في آخر محاضرة: عقيدة أهل السنّة والأثر، **مجلّة الجامعة الإسلامية**، المدينة المنوّرة ١٣٨٨.

(٢) **معجم أحاديث المهدي**: ج١ ص١١ ، نشر مؤسّسة المعارف الإسلامية.

(٣) **الاحتجاج بالأثر**: ص١٢٧.

عند مدرسة الخلفاء.

من هنا لابدّ أن ينصبّ الحديث على إثبات أنّ المهدي المنتظر حي أم لا؟ ويمكن ذكر طريقين في هذه العجالة لإثبات حياته:

• الطريق الأوّل: وهو الطريق غير المباشر، إن صحّ التعبير، وذلك بأن يقال: بعد أن ثبتت ضرورة استمرار وجود معصوم لا يفارق الكتاب ولا يفارقه الكتاب، كما هو نصّ حديث الثقلين، وأنّ هؤلاء المعصومين لا يتجاوز عددهم (١٢) كما هو مقتضى أحاديث **خلفائي من بعدي اثنا عشر** وأنّ هؤلاء هم علي والحسن والحسين وتسعة من صلب الحسين عليهم السلام ينتهون بالمهدي المنتظر، كما هو نصّ عشرات الروايات من الفريقين، إذن يثبت بالدلالة الالتزامية العقلية، أنّ الإمام الثاني عشر حيّ يرزق، لكنّه غائب مستور عن الخلق لحكمة إلهية في ذلك.

ومن الواضح أنّ هذا الطريق يثبت لنا وجود إمام معصوم غائب، هو المهدي المنتظر ابن الإمام الحسن العسكري الذي ينتهي نسبه إلى الإمام الحسين بن علي عليهم السلام، ولكنّه لا يتعرّض لتفاصيل سنة ولادته، وكيفية ذلك، ومن هي أُمّه، ومتى غاب، وهل له غيبة واحدة أم أكثر. إلاّ أنّ هذا لا يؤثّر في أصل فكرة إثبات وجوده، وأنّه حي غائب، لأنّ الضرورة النقلية وما يلزمها عقلاً تثبت هذه الحقيقة.

• الطريق الثاني: وهو الطريق المباشر أي طريق إثبات حياة الإمام الحجّة (عجل الله فرجه) من خلال الروايات الشريفة. ولكي يتّضح

ذلك جيّداً لابدّ من الإشارة إلى التسلسل الوارد في الروايات، لإثبات هذه الظاهرة الإلهية، وهذا ما أحصاه المحقّق الشيخ الصافي الگلپايگاني في (منتخب الأثر):

١ ـ الروايات التي تبشّر بظهوره (عجّل الله فرجه): ٦٥٧ رواية.

٢ ـ روايات أنّه يملأ الأرض عدلاً وقسطاً: ١٢٣ رواية.

٣ ـ الروايات التي تثبّت أنّ المهدي المنتظر من أهل البيت: ٣٨٩ رواية.

٤ ـ الروايات التي تبيّن أنّه من ولد أمير المؤمنين عليه السلام: ٢١٤ رواية.

٥ ـ الروايات التي تثبّت أنّه من ولد فاطمة الزهراء (عليها السلام): ١٩٢ رواية.

٦ ـ الروايات التي تقول إنّه من ولد الإمام الحسين عليه السلام: ١٨٥ رواية.

٧ ـ الروايات التي تقول إنّه التاسع من ولد الإمام الحسين عليه السلام: ١٤٨ رواية.

٨ ـ الروايات التي تقول إنّه من ولد علي بن الحسين عليهما السلام: ١٨٥ رواية.

٩ ـ الروايات التي تقول إنّه من ولد محمّد الباقر عليه السلام: ١٠٣ رواية.

١٠ ـ الروايات التي تقول إنّه من ولد الصادق عليه السلام: ١٠٣

رواية.

١١ ـ الروايات التي تقول إنّه السادس من ولد الصادق عليه السلام: ٩٩ رواية.

١٢ ـ الروايات التي تقول إنّه من ولد موسى بن جعفر عليهما السلام: ١٠١ رواية.

١٣ ـ الروايات التي تقول إنّه الخامس من ولد موسى بن جعفر عليهما السلام: ٩٨ رواية.

١٤ ـ الروايات التي تقول إنّه الرابع من ولد علي بن موسى الرضا عليه السلام: ٩٥ رواية.

١٥ ـ الروايات التي تقول إنّه الثالث من ولد محمّد بن علي التقي عليه السلام: ٩٠ رواية.

١٦ ـ الروايات التي تقول إنّه من ولد علي الهادي عليه السلام: ٩٠ رواية.

١٧ ـ الروايات التي تقول إنّه ابن أبي محمّد الحسن العسكري عليه السلام: ١٤٦ رواية.

١٨ ـ الروايات التي تقول إنّه الثاني عشر من الأئمّة وخاتمهم: ١٣٦ رواية.

١٩ ـ في ولادته عليه السلام وبعض حالات أُمّه: ٢١٤ رواية.

٢٠ ـ في أنّ له غيبتين: ١٠ روايات.

٢١ ـ في أنّ له غيبة طويلة: ٩١ رواية.

٢٢ ـ في أنّه طويل العمر جدّاً: ٣١٨ رواية.

ولا شكّ أنّ روايات بعض هذه العناوين، قد تتداخل مع بعضها الآخر كما هو واضح.

إشكال وجواب

وقد يثار استفسار بأنّ الاستدلال بروايات أئمّة أهل البيت عليهم السلام لإثبات إمامة أنفسهم وبيان خصائصها، وعدد الأئمّة، وأنّ الثاني عشر حي، ونحو ذلك، إنّما يلزم منه الدور وبطلان هذا الدليل لأنّ حجّية أقوالهم موقوفة على إمامتهم وعصمتهم، والمفروض أنّ إمامتهم متوقّفة على حجّية أقوالهم.

غير إنّ هذا الإشكال يمكن رفعه والإجابة عنه بأمرين:

الأوّل: أنّنا بعد أن نثبت عصمتهم يمكن الاحتجاج والاستناد إلى أقوالهم لإثبات خصائص إمامة المهدي المنتظر (عجّل الله فرجه)، ولا يلزم محذور في المقام، لاختلاف الموقوف عن الموقوف عليه، فيرتفع الدور.

الثاني: أنّه حتّى لو لم تثبت عصمة أئمّة أهل البيت عليهم السلام في الرتبة السابقة، إلاّ أنّه يمكن الاعتماد على رواياتهم، وذلك من خلال أنّهم رواة ثقات عن الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، فتكون حجّية قولهم على حدّ حجّية قول أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله الذين قبل المسلمون عامّة، الاعتماد على ما ينقلونه عن النبي الأكرم صلى الله

عليه وآله، ولا أظنّ أنّ أحداً من المسلمين يتوقّف في قبول مثل هذا الأمر بشأن أهل البيت عليهم السلام سواء فيما صرّحوا فيه من الروايات، بأنّهم ينقلونه عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، أو التي لم يصرّحوا فيها بذلك، بل اكتفوا بالقاعدة الكلّية التي بيّنوا فيها أنّ حديثهم هو حديث رسول الله صلى الله عليه وآله، كما يقول الإمام الصادق عليه السلام: **«حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدّي، وحديث جدّي حديث الحسين، وحديث الحسين حديث الحسن، وحديث الحسن حديث أمير المؤمنين، وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله صلى الله عليه وآله»**(١).

طرق أخرى لإثبات حياة الإمام المهدي

ولا يخفى أنّ هناك طرقاً أُخرى لإثبات حياته (عجّل الله فرجه) كشهادة من رآه، وهم جمّ غفير، وفيهم الثقات والعلماء، فقد أحصى البعض «عدد من شاهد الإمام المهدي، فبلغوا زهاء ٣٠٤ شخص»(٢). ولعلّ ما فاته أكثر ممّا ذكره.

من هنا جاءت اعترافات عدد كبير من علماء السنّة، تبيّن ولادة المهدي (عجّل الله فرجه)، وقد صرّح بعضهم، أنّه هو الإمام الموعود بظهوره في آخر الزمان. وقد أحصى الشيخ مهدي فقيه إيماني في

(١) **وسائل الشيعة**: ج٢٧ ، باب٨ ، والكافي: ج١ ص٥٣.
(٢) **من هو المهدي**، أبو طالب التجليلي التبريزي: ص٤٦٠ ـ ٥٠٥ ، نقلاً عن كتاب **دفاع عن الكافي**، تأليف ثامر هاشم حبيب العميدي: ج١ ص٥٦٢.

كتابه (المهدي في نهج البلاغة) ما يزيد عن (١٠٠) شخصية، صرّحت بولادته (عجّل الله فرجه).

وكنموذج على ذلك، ما ذكره العلاّمة الشعراني الحنفي في كتابه القيّم «اليواقيت والجواهر» حيث قال: «فهناك يترقّب خروج المهدي عليه السلام وهو من أولاد الإمام الحسن العسكري، ومولده عليه السلام ليلة النصف من شعبان سنة خمسة وخمسين ومائتين، وهو باق إلى أن يجتمع بعيسى بن مريم عليه السلام»[1].

العقيدة بالمنقذ آخر الزمان عقيدة إسلامية، بل إنسانية عامّة

وبهذا تخرج مسألة الإيمان بالإمام المهدي المنتظر (عجّل الله فرجه) وأنّه حي يرزق، عن دائرة اتّهام الشيعة باختلاقها وإيجادها في الفكر الإسلامي، وإنّما هي عقيدة إسلامية عامّة بل العقيدة بالمهدي المنقذ من حيث كونها فكرة تتحدّث عن وصول البشرية إلى مرحلة تعيش فيها الأمن والازدهار التامين والعدل والمساواة بأبهى صورهما، آمنت بها البشرية جمعاء، حتّى تلك التي تمثّل الفكر الإلحادي بأشدّ صوره كالشيوعية كما بيّن ذلك الشهيد محمّد باقر الصدر قدس سره في مقدمة بحثه «بحث حول المهدي».

---

(١) **اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر**، دار إحياء التراث العربي، مؤسّسة التأريخ العربي، بيروت ـ لبنان: ج٢ ص٥٦٢.

الفصل الثالث

في ردّ الإشكالات المثارة

على الاستدلال بالآية المباركة

أُثير على الاستدلال بهذه الآية الشريفة ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ عدّة إشكالات نذكر منها:

• الإشكال الأوّل: لماذا يتعيّن القول باتّباع الصادقين بأشخاصهم في قوله تعالى: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾؟ ولِمَ لا يجوز أن يقال: أنّ المراد كونوا على طريقة الصادقين وسنّتهم وسلوكهم، وحينئذ قد يصار إلى عدم اشتراط وجود المعصوم في كلّ زمان؟

والجواب: إنّ ظواهر الأدلّة هي الحجّة ـ على ما حقّق في محلّه ـ ما لم ترد القرائن المتّصلة أو المنفصلة الصارفة لها عن ظواهرها. وبناءً على هذا نقول: إنّ إرادة معنى (كونوا على طريقة الصادقين) خلاف ظاهر الآية المباركة؛ لأنّنا نحتاج إلى تقدير كلمة (طريقة) أو (سلوك) أو (سنّة) من أجل إثبات هذا المعنى، والتقدير خلاف الظاهر.

نعم، بالإمكان أيضاً فيما لو دلّ دليل من الخارج على عدم اشتراط وجود الصادق المعصوم في كلّ زمان لكان بالإمكان أن نتصرّف في ظاهر هذه الآية وندّعي دلالتها على مثل اتّباع طريقة أو سنّة الصادق لا شخصه.

فتحصّل أنّ المراد من الآية ـ والله أعلم ـ هو الظاهر منها، وهو إرادة الكون مع الصادقين لا مع طريقتهم.

• الإشكال الثاني: قد يقال: بأنّنا بعد قبولنا بأنّ الأمر في الآية الشريفة هو أمر باتّباع شخص الصادق المعصوم، فإنّنا نرى أنّ الآية مختصّة بزمان الرسول صلى الله عليه وآله لا عامّة لكلّ الأزمان، فلا حاجة لوجود المعصوم في كلّ زمان.

والجواب: أوّلاً: إنّ مقتضى الطبيعة الأوّلية للأحكام الشرعية من الأوامر والنواهي أنّها لكلّ فرد ولكلّ زمان ولكلّ مكان. وهذا معنى قولهم (حلال محمّد حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة).

فإذا أردنا أن نخصّص الأحكام الشرعية في بعض الأزمنة دون غيرها فإنّنا نحتاج إلى دليل مخصّص ولا دليل في محلّ كلامنا.

ثانياً: إنّ صيغة الأمر بالكون مع الصادقين الواردة في الآية الشريفة صيغة إطلاق تناولت كلّ الأزمان، والدليل على ذلك صحّة الاستثناء؛ إذ يصحّ أن يستثنى منها الزمان الكذائي أو الشخص الكذائي، ولمّا لم يرد الاستثناء استنتجنا الإطلاق، فشملت كلّ الأزمان ولم تختصّ بزمان الرسول صلى الله عليه وآله.

ثالثاً: لمّا لم يرد لفظ في الآية يدلّ على إرادة زمن الرسول صلى الله عليه وآله فليس هناك ما يرجّح حمل الأمر على زمن دون الأزمنة

الباقية، فإمّا أن لا نحمله على وقت معيّن وحينئذ يتعطّل هـذا الحكـم وهو باطل، أو نحمله على كلّ الأزمان وهو المتعيّن والمطلوب.

• الإشكال الثالث: وقد يقال: بأنّنا حتّى لو سلّمنا بـأنّ الآيـة تـدلّ على وجوب اتّباع المعصوم، وعلى وجـوده فـي كـلّ زمـان مـن دون اختصاص بزمان الرسول صلى الله عليه وآله، ولكنّنا لا نقبل بأن يكون مصداق هذا المعصوم هو الإمام المعصوم الذي تقول بـه الشـيعة، بـل المراد به هو مجموع الأمّة.

والجواب: إنّنا تعرّضنا لمثل هذا الرأي فيما سبق في بحث من هو الصادق، وأجبنا عنه، وغاية ما نريد قوله هنا، هو: أنّنا إذا تنزّلنـا وقلنـا أنّ المراد من الصادقين هنا ليس هو إجماع الأمّة بل هو إجماع علماء الأمّة أو أهل الحلّ والعقد منهم، فما الدليل على أنّ المراد هـو هـؤلاء دون غيرهم؟

هذا أوّلاً، وثانياً: إنّ عمدة ما يذكر هنا في مقام الاستدلال على أنّ المقصود من الصادقين هو إجماع ما رووه عن الرسول صلى الله عليـه وآله: «**لا تجتمع أُمّتي على الخطأ**» أو «**لا تجتمع أُمّتي على ضـلالة**». غيـر أنّه بالإضافة إلى إمكان المناقشة في سـند هـذا الحـديث وفـي متنـه ودلالته على المدّعى، بالإضافة إلى هذا، فإنّنا نمتلك من الأدلّة القرآنية من قبيل ما ذكرناه في بحث (مـن هـم الصـادقون؟) ومـن الروايـات القطعية كحديث الغدير وحديث الثقلين وحديث المنزلة وغيرهـا مـا يثبت أنّ المراد من الصادقين باعتبارهم المعصومين هـم أهـل البيـت

عليهم السلام لا غيرهم.

• الإشكال الرابع: وقد يشكل على من يقول بأنّ المراد من الصادقين هنا هم أهل البيت المعصومين عليهم السلام، ببيان آخر، وهو أنّ الآية الشريفة قد أمرت كلّ المؤمنين المتّقين بالكون مع الصادقين، وإنّما يكون المؤمن مع الصادق لو كان عالماً به ومشخّصاً له، وحيث إنّنا نجهل من هو الصادق؟ ومن هو المعصوم جزماً؟ فلن نقدر على امتثال التكليف باتّباعه، ومن هنا نستنتج بأنّ مراد الآية إذن ليس هو المعصوم الذي تقول به الشيعة وإلاّ لوجب التكليف بغير المقدور وهو غير جائز.

والجواب: إنّنا نسأل من يدّعي عدم معرفته بالإمام المعصوم عليه السلام عن الطريق الذي يمكن أن يعرف به الإمام المعصوم عليه السلام؟

أفلا يكفي أن يرفعه الرسول صلى الله عليه وآله في غدير خمّ حتّى يظهر بياض إبطيه، ويقول صلى الله عليه وآله: «**من كنت مولاه فهذا علي مولاه**»؟ أفلا يكفي أن يكرّر الرسول صلى الله عليه وآله مراراً حديث الثقلين قائلاً: «**إنّي تارك فيكم الثقلين ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً، كتاب الله، حبل ممدود بين السماء والأرض وعترتي أهل بيتي..**»؟

أفلا يكفي أن يضع الرسول صلى الله عليه وآله أهل بيته عليهم السلام تحت الكساء ويقول بمسمع وبمرأى من المسلمين: «**اللهمّ إنّ**

هؤلاء أهل بيتي»؟ أفلا يكفي وقوفه صلى الله عليه وآله على باب علي وفاطمة ولأشهر عديدة ويقول: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾؟

أفلا يكفي حديث المنزلة وقوله صلى الله عليه وآله لعلي: «**أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبي بعدي**»؟.

أفلا يكفي حديث الطير المشوي؟ أفلا يكفي هذا وعشرات مثله، لكي يعرف المسلمون من هم الصادقون المعصومون بعد النبي صلى الله عليه وآله؟

وماذا كان على النبي صلى الله عليه وآله أن يفعله لتعلم الأمّة من هم الأئمّة المعصومون من بعده ولم يفعله صلى الله عليه وآله؟

نعم، إلاّ أن يقول قائل، إنّ ما ذكر سابقاً ليس بكاف لأنّنا لا نجد ذكراً لاسم علي وأولاده المعصومين في القرآن الكريم، فلو كانت الآية الشريفة تقول: (إنّما وليكم الله ورسوله وعلي والأئمّة من بعده)، لكان في ذلك كفاية لنا وحجّة علينا.

وللجواب على هذا نقول: أليس من إجماع أُمّة محمّد صلى الله عليه وآله على أنّ ما يقوله الرسول صلى الله عليه وآله يجب الأخذ به وقبوله وطاعته؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[1] لأنّه وحي: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى * إنْ هُوَ إلاَّ وَحْيٌ

(١) الحشر: ٧.

يُوحَى﴾[١]، فماذا فعل المستشكل هنا بحديث الغدير المتواتر الذي يجب الأخذ به والإذعان له على حدّ آيات القرآن، أو لم يسمّ الرسول صلى الله عليه وآله في هذا الحديث علياً باسمه حين قال: «**من كنت مولاه فهذا علي مولاه**»؟

أو لم يُصرَف هذا الحديث ـ وغيره من الأحاديث ـ عن ظاهره فقيل بأنّ المراد من الولاية هنا هي ولاية المحبّة والمودّة والنصرة؟ فكلّ ما قيل في صرف هذا الحديث عن ظاهره كان سيقال في صرف أيّة آية يرد فيها ذكر اسم علي عليه السلام، أو أحد الأئمّة من ولده عليهم السلام، عن ظاهرها وتأويلها.

وهكذا يتّضح بطلان دعوى عدم معرفة المعصوم بعد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله لعدم ذكر اسمه في القرآن الكريم أو لأي سبب كان، لأنّ بإمكاننا الرجوع إلى القرآن الكريم وإلى السنّة القطعية من أجل معرفة ذلك، حيث بيّن القرآن الكريم في العديد من الآيات كآية (التطهير) وآية ﴿إنّما وليكم..﴾ وآية ﴿كونوا مع الصادقين﴾ وآيات أُخرى أنّ هناك معصومين بعد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله من أهل بيته عليهم السلام، ثمّ جاءت السنّة النبوية القطعية كما في حديث (الغدير) وحديث (الثقلين) وحديث (المنزلة) وغيرها لتنصّ على هؤلاء المعصومين ولتشخّصهم للأمّة تشخيصاً لا لبس فيه أبداً.

---

(١) النجم: ٣ – ٤.

والخلاصة، فإنّ جميع الإشكالات في هذا المجال لا تصمد أمام الدليل القائم على إثبات وجود المعصومين واستمرارهم والنصّ عليهم على أنّهم أهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله والحمد لله ربّ العالمين.

التوبة

دراسة في شروطها وآثارها

فضيلة التوبة في القرآن والحديث

التوبة أوّل مقامات الدين، ورأس مال السالكين، ومفتاح استقامة السائلين ومطلع التقرّب إلى ربّ العالمين، ومدحها عظيم وفضلها جسيم.

• قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[1] والآية مطلقة غير مقيّدة، فتشمل جميع مراتب التوبة والطهارة، ولا يبعد استفادة المبالغة من قوله تعالى **المتطهّرين** كما هو الحال في قوله **التوابين** فينتج استفادة الكثرة في التوبة والطهارة من حيث النوع ومن حيث العدد جميعاً، بمعنى «أنّ الله يحبّ جميع أنواع التوبة سواء كانت بالاستغفار أو بامتثال كلّ أمر ونهي من تكاليفه، أو باتّخاذ كلّ اعتقاد من الاعتقادات الحقّة، ويحبّ جميع أنواع التطهّر سواء كان بالاغتسال والوضوء والغسل، أو التطهّر بالأعمال الصالحة أو العلوم الحقّة، ويحبّ تكرار التوبة وتكرار التطهّر»[2].

(١) البقرة: ٢٢٢.

(٢) **الميزان في تفسير القرآن**، للعلاّمة السيّد محمّد حسين الطباطبائي: ج٢ ص ٢١٢ منشورات مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثالثة.

• وعن ابن أبي عمير عن بعض أصحابنا رفعه قال: «إنّ الله عزّ وجلّ أعطى التائبين ثلاث خصال لو أعطى خصلة منها جميع أهل السماوات والأرض لنجوا بها: قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾(١) فمن أحبّه الله لم يعذّبه، وقوله: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُم وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾(٢) وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً * إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَات وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾(٣)»(٤).

---

(١) البقرة: ٢٢٢.

(٢) غافر: ٧ ـ ٩.

(٣) الفرقان ٦٨ ـ ٧٠.

(٤) **الأصول من الكافي**، لثقة الإسلام أبي جعفر محمّد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي: ج٢ ص٤٣٢، كتاب الإيمان والكفر، باب التوبة، الحديث: ٥، دار صعب، دار التعارف للمطبوعات.

• عن أبي عبيدة الحذّاء قال: سمعت أبا جعفر الباقر عليه السلام يقول: «إنّ الله أشدّ فرحاً بتوبة عبده من رجل أضلّ راحلته وزاده في ليلة ظلماء فوجدها، فالله أشدّ فرحاً بتوبة عبده من ذلك الرجل براحلته حين وجدها»(١).

• وعن جابر عن الإمام الباقر عليه السلام قال: سمعته يقول: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له، والمقيم على الذنب وهو مستغفر منه كالمستهزي»(٢).

ولعلّ المراد من قوله «كمن لا ذنب له» في عدم العقوبة لا التساوي في الدرجة، وإن كان غير مستبعد في بعض أفرادهما.

• وعن معاوية بن وهب قال: «سمعت الإمام الصادق عليه السلام يقول: إذا تاب العبد توبة نصوحاً أحبّه فستر عليه. فقلت: وكيف يستر عليه؟ قال: ينسي ملكيه ما كانا يكتبان عليه ويوحي الله إلى جوارحه وإلى بقاع الأرض أن اكتمي عليه ذنوبه فيلقى الله عزّ وجلّ حين يلقاه وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب»(٣).

---

(١) المصدر السابق: ج٢ ص٤٣٥، الحديث: ٨.

(٢) المصدر السابق: الحديث: ١٠.

(٣) المصدر السابق: ج٢ ص٤٣٦، الحديث: ١٢.

ما هي التوبة

التوبة هي الرجوع الاختياري عن السيّئة إلى الطاعة والعبودية. تفصيل هذا الإجمال: أنّ النفس في بدء فطرتها خالية من كلّ أنواع الكمال والجمال والنور والبهجة، كما أنّها خالية أيضاً من أضداد هذه الصفات المذكورة؛ قال تعالى: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُون أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1] فكأنّ النفس صفحة نقيّة من كلّ رسم ونقش لا توجد فيها الكمالات الروحية ولا تتّصف بالنعوت المضادّة لها، لكن قد أودع الله فيها نور الاستعداد والأهلية لنيل أيّ مقام رفيع أو وضيع: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾[2] وأُنشئت فطرتها على الاستقامة وعجنت طينتها بالأنوار الذاتية؛ قال عزّ وجلّ: ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[3].

---

(١) النحل: ٧٨.

(٢) الشمس: ٦ ـ ٩.

(٣) الروم: ٣٠.

وعندما تجترح سيّئة تحصل في القلب ظلمة وسواد، وكلّما ازدادت المعاصي تضاعف ذلك إلى أن يغشى الظلام والسواد القلب كلّه وينطفئ نور الفطرة ويبلغ مرتبة الشقاء الأبدي.

عن ابن بكير عن زرارة عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: **ما من عبد إلاّ وفي قلبه نكتة بيضاء، فإذا أذنب ذنباً خرج في النكتة نكتة سوداء، فإن تاب ذهب ذلك السواد، وإن تمادى في الذنوب** (أي إذا لجّ ودام على فعله) **زاد السواد حتّى يغطّي البياض، فإذا تغطّى البياض لم يرجع صاحبه إلى خير أبداً، وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾**[1][2].

وهذا معناه أنّ الإنسان إذا انتبه قبل أن يستوعب الظلام والسواد القلب كلّه، ثمّ اجتاز منزلة اليقظة ودخل على منزل التوبة واستوفى حظوظ هذا المنزل حسب الشرائط التي سنأتي على ذكرها، زالت الحالات الظلمانية والكدورات الطبيعية، وعاد إلى الحالة الفطرية النورية الأصيلة، وكأنّما تنقلب النفس إلى صفحة خالية من جميع الكمالات وأضدادها، كما ورد في الحديث المتقدّم: «**التائب من الذنب كمن لا ذنب له**».

وإذا كان كذلك فورود الإنسان منازل الكرامة والاستقرار في

(١) المطففين : ١٤.

(٢) **الأُصول من الكافي**: ج٢ ص٢٧٣، كتاب الإيمان والكفر، باب الذنوب، الحديث: ٢٠.

مستقرّ السعادة يتوقّف على انصرافه عمّا هو فيه من مهبط الشقاء ﴿فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾[١] وانقلاعه عنه برجوعه إلى ربّه ـ وهو توبته إليه ـ في أصل السعادة وهو الإيمان، وفي كلّ سعادة فرعية وهي كلّ عمل صالح، أعني التوبة والرجوع عن أصل الشقاء وهو الشرك بالله سبحانه، وعن فروعات الشقاء وهي سيّئات الأعمال بعد الشرك.

فالتوبة بمعنى الرجوع إلى الله والانخلاع عن ألوان البُعد والشقاء يتوقّف عليها الاستقرار في دار الكرامة بالإيمان، والتنعّم بأقسام نعم الطاعات والقربات، وبعبارة واضحة يتوقّف القرب من الله ودار كرامته على التوبة من الشرك ومن كلّ معصية؛ قال تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٢] فالتوبة بمعنى الرجوع إلى الله تعمّ التوبتين جميعاً، بل تعمّهما وغيرهما على ما سيجيء إن شاء الله.

(١) طه: ١١٧.
(٢) النور: ٣١.

اختصاص التوبة بنشأة الدنيا

تختصّ التوبة بهذه النشأة الدنيوية دون الآخرة، لما عرفت أنّ التوبة هي الرجوع الاختياري عن السيّئة إلى الطاعة والعبودية، ولا يتحقّق هذا إلاّ في ظرف الاختيار وهي الحياة الدنيا، أمّا فيما لا اختيار للعبد في انتخاب كلّ من طريقي الصلاح والطلاح والسعادة والشقاوة فلا مسرح للتوبة فيه؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً * وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾[1].

أشارت الآية الأخيرة إلى مصداقين لعدم قبول توبة العبد:

المصداق الأوّل: أنّ من حضره الموت وشاهد أهواله فإنّ توبته غير مقبولة، ويدلّ عليه ما في هذه الآية حيث يظهر من تقييد قوله ﴿قال إنّي تبت﴾ بقوله: ﴿الآن﴾ أنّ حضور الموت ومشاهدة هذا القائل

---

(١) النساء: ١٧ ـ ١٨.

سلطان الآخرة هما الموجبان له أن يقول تبتُ، سواء ذكره أو لم يذكره، فالمعنى: إنّي تائب لمّا شاهدت الموت الحقّ والجزاء الحقّ، وقد قال تعالى في نظيره عن المجرمين يوم القيامة: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ﴾[1]. فهذه توبة لا تقبل من صاحبها، لأنّ اليأس من الحياة الدنيا وهول المطّلع هما اللذان أجبراه على أن يندم على فعله ويعزم على الرجوع إلى ربّه، ولات حين رجوع؛ حيث لا حياة دنيوية ولا خيرة عملية.

قال الرازي في ذيل هذه الآية: «المانع من قبول التوبة أنّ الإنسان عند القرب من الموت إذا شاهد أحوالاً وأهوالاً صارت معرفته بالله ضرورية عند مشاهدة تلك الأهوال، ومتى صارت معرفته بالله ضرورية سقط التكليف عنه، ألا ترى أنّ أهل الآخرة لمّا صارت معارفهم ضرورية سقط التكليف عنهم وإن لم يكن هناك موت ولا عقاب، لأنّ توبتهم عند الحشر والحساب وقبل دخول النار لا تكون مقبولة»[2].

وهذا ما أيّدته الروايات الكثيرة الواردة في المقام:

• عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**من تاب قبل موته بسنة قبل الله توبته، ثمّ** قال:

---

(١) السجدة: ١٢.

(٢) **التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب**، للإمام فخر الدين محمّد بن عمر الرازي الشافعي (٥٤٤ ـ ٦٠٤هـ) ج١٠ ص٧، منشورات محمّد علي بيضون لنشر كتب السنّة والجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط. الأولى ١٤٢١ هـ

إنّ السنة لكثيرة من تاب قبل موته بشهر قبل الله توبته، ثمّ قال: إنّ الشهر لكثير من تاب قبل موته بيوم قبل الله توبته، ثمّ قال: إنّ يوماً لكثير من تاب قبل أن يعاين قبل الله توبته»[١].

• وعن الإمام محمّد الباقر عليه السلام قال: «إنّ آدم عليه السلام قال: يا ربّ سلّطت عليّ الشيطان وأجريته منّي مجرى الدم فاجعل لي شيئاً فقال: يا آدم جعلت لك أنّ من همّ من ذريتك بسيّئة لم تُكتب عليه، فإن عملها كُتبت عليه سيّئة، ومن همّ منهم بحسنة فإن لم يعملها كُتبت له حسنة، فإن هو عملها كُتبت له عشراً. قال: يا ربّ زدني. قال: جعلت لك أنّ من عمل منهم سيّئة ثمّ استغفر له غفرت له. قال: يا ربّ زدني، قال: جعلت لهم التوبة، أو قال: بسطت لهم التوبة حتّى تبلغ النفس هذه، قال: يا ربّ حسبي»[٢].

• أخرج ابن جرير عن الحسن قال: بلغني أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إنّ إبليس لمّا رأى آدم أجوف قال: وعزّتك لا أخرج من جوفه ما دام فيه الروح، فقال الله تبارك وتعالى: وعزّتي لا أحول بينه وبين التوبة ما دام الروح فيه»[٣].

• وأخرج أحمد والترمذي وحسّنه وابن ماجة والحاكم وصحّحه والبيهقي في الشعب عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وآله قال:

(١) **الأصول من الكافي**: ج٢ ص٤٤٠، كتاب الإيمان والكفر، باب فيما أعطى الله عزّ وجلّ آدم عليه السلام وقت التوبة، الحديث: ٢.

(٢) المصدر السابق: الحديث: ١.

(٣) **الدرّ المنثور في التفسير المأثور**، للإمام عبد الرحمن جلال الدين السيوطي: ج٢ ص٤٥٩، دار الفكر.

«إنّ الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»(١).

ممّا تقدّم اتّضح أنّ ما ذكره البعض في قوله تعالى - في قصّة غرق فرعون وتوبته- : ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ * آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ﴾(٢) من أنّ الآية لا تدلّ على ردّ توبته، وليس في القرآن أيضاً ما يدلّ على هلاكه الأبدي، وأنّه من المستبعد عند من يتأمّل سعة رحمة الله وسبقتها غضبه أن يجوز عليه تعالى أنّه يردّ من التجأ إلى باب رحمته وكرامته متذلّلاً مستكيناً بالخيبة واليأس، والواحد منّا إذا أخذ بالأخلاق الإنسانية الفطرية من الكرم والجود والرحمة ليرحم أمثال هذا الإنسان النادم حقيقة على ما قدّم من سوء الفعال، فكيف بمن هو أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين وغياث المستغيثين؟...

اتّضح أنّ هذا الكلام غير مقبول؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ﴾ حيث تبيّن أنّ الندامة حينئذ ندم كاذب يسوق الإنسان إلى إظهاره مشاهدته وبال الذنب ونزول البلاء.

ولو كان كلّ ندم توبة، وكلّ توبة مقبولة، للزم قبول توبة المجرمين يوم القيامة حيث قال تعالى عنهم: ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾(٣)، ولما كان سؤال المجرمين الرجوع إلى الدنيا ليعملوا

---

(١) الدرّ المنثور في التفسير المأثور، مصدر سابق: ج٢ ص٤٦٠.

(٢) يونس: ٩٠ ـ ٩١.

(٣) سبأ: ٣٣.

صالحاً مردوداً؛ قال تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(١).

المصداق الثاني لعدم قبول التوبة: ما ورد في قوله: ﴿وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾. وفيه وجهان:

- كما أنّ التوبة عن المعاصي لا تُقبل عند القرب من الموت، كذلك الإيمان لا يُقبل عند القرب من الموت.

- إنّ الإنسان إذا تمادى في الكفر ثمّ مات وهو كافر فإنّ الله لا يتوب عليه، وقد تكرّر في القرآن الكريم أنّ الكفر لا نجاة معه بعد الموت وأنّهم لا يجابون وإن سألوا؛ قال تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ﴾(٢). وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾(٣).

---

(١) المنافقون: ١٠ ـ ١١.

(٢) البقرة: ١٦٠ ـ ١٦٢.

(٣) آل عمران: ٩١.

توبة العبد محفوفة بتوبتين من الله تعالى

لمّا كان الإنسان في مسيره الاختياري إلى ربّه فقيراً كلّ الفقر في ذاته صفر الكفّ بحسب نفسه كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[١] وقال: ﴿وَلاَ يَمْلِكُونَ لأنفُسِهِمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلاَ حَيَاةً وَلاَ نُشُوراً﴾[٢]، كان محتاجاً في هذا الرجوع (التوبة) أيضاً إلى عناية من ربّه بأمره وإعانة منه له في شأنه، فيحتاج رجوعه إلى ربّه بالعبودية والمسكنة إلى رجوع من ربّه إليه بالتوفيق والإعانة، وهو توبة الله سبحانه لعبده المتقدّمة على توبة العبد إلى ربّه كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لاَ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[٣]. وكذلك الرجوع إلى الله سبحانه وتعالى يحتاج إلى قبوله بمغفرة الذنوب وتطهيره من القذارات وألوان البُعد، وهذه هي التوبة الثانية من الله سبحانه المتأخّرة عن توبة العبد إلى ربّه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَة ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ

---

(١) فاطر: ١٥.

(٢) الفرقان: ٣.

(٣) التوبة: ١١٨.

قَرِيب فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾(١).

والحاصل أنّ توبة العبد محفوفة بتوبتين من الربّ تعالى، حيث إنّه يرجع تعالى إلى العبد بالتوفيق وإفاضة رحمة الهداية وهي التوبة الأولى منه، فيهتدي العبد إلى الاستغفار وهو توبته، فيرجع تعالى إليه بقبول توبته وغفران ذنوبه وهي التوبة الثانية منه تعالى.

وإذا تأمّلت حقّ التأمّل وجدت أنّ التعدّد في توبة الله سبحانه إنّما عرض لها من حيث قياسها إلى توبة العبد وإلاّ فهي توبة واحدة هي رجوع الله سبحانه إلى عبده بالرحمة، ويكون ذلك عند توبة العبد رجوعاً إليه قبلها وبعدها. وربما كان مع عدم توبة من العبد، حيث يمكن استفادة ذلك من قوله تعالى: ﴿وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾(٢) فتقييد الجملة بقوله: «وهم كفّار» يدلّ على التوبة للعاصي المؤمن إذا مات على المعصية من غير استكبار ولا تساهل، فإنّ التوبة من العبد بمعنى رجوعه إلى عبودية اختيارية وإن ارتفع موضوعها كما تقدّم، لكن التوبة منه تعالى بمعنى الرجوع بالمغفرة والرحمة يمكن أن يتحقّق بعد الموت لشفاعة الشافعين.

وهذا معناه أنّ قبول الشفاعة في حقّ العبد المذنب يوم القيامة يعدّ من مصاديق التوبة، ولعلّ قوله تعالى: ﴿وَاللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً﴾(٣) يدلّ على ذلك.

---

(١) النساء: ١٧.

(٢) النساء: ١٨.

(٣) النساء: ٢٧.

قبول التوبة من الله لعبده فضل منه تعالى

إنّ التوبة من الله سبحانه لعبده أعمّ من المبتدئة واللاحقة (الأولى والثانية) فضل منه كسائر النعم التي يتنعّم بها على خلقه من غير إلزام وإيجاب عليه سبحانه من غيره، وليس معنى وجوب قبول التوبة عليه عقلاً إلاّ ما يدلّ عليه أمثال قوله تعالى : ﴿قَابِلِ التَّوْبِ﴾[1] وقوله: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾[2] وقوله: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾[3] وقوله: ﴿فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾[4] وغيرها من الآيات المتضمّنة لتوصيفه تعالى بقبول التوبة والنادبة إلى التوبة والداعية إلى الاستغفار والإنابة وغيرها، المشتملة على وعد القبول بالمطابقة أو الالتزام، والله سبحانه لا يخلف الميعاد.

وحسب هذا الوعد أوجب على نفسه ذلك حيث قال: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ فيجب عليه تعالى

---

(١) غافر: ٣.

(٢) النور: ٣١.

(٣) البقرة: ٢٢٢.

(٤) النساء : ١٧.

قبول التوبة لعباده، لكن لا على أنّ لغيره أن يوجب عليه شيئاً أو يكلّفه بتكليف، سواء سمّي ذلك الغير بالعقل أو نفس الأمر أو الواقع أو الحقّ أو شيئاً آخر، تعالى عن ذلك وتقدّس، بل على أنّه تعالى وعد عباده أن يقبل توبة التائب منهم وهو لا يخلف الميعاد.

فهذا معنى وجوب قبول التوبة على الله فيما يجب، وهو أيضاً معنى وجوب كلّ ما يجب على الله من الفعل.

من هنا يظهر أنّ الله سبحانه غير مجبور في قبول التوبة، بل له الملك من غير استثناء، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فله أن يقبل ما يقبل من التوبة على ما وعد ويردّ ما يردّ منها، كما هو ظاهر قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾(١) ويمكن أن يكون من هذا الباب قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً﴾(٢).

---

(١) آل عمران: ٩٠.

(٢) النساء: ١٣٧.

الحكمة من تشريع التوبة

الملاك الذي شُرّعت لأجله التوبة هو التخلّص من هـلاك الـذنب وبوار المعصية لكونها وسيلة الفلاح ومقدّمة الفوز بالسعادة، كما يشير إليـه قولـه تعـالى: ﴿وَتُوبُـوا إِلَـى اللهِ جَمِيعـاً أَيُّهَـا الْمُؤْمِنُـونَ لَعَلَّكُـمْ تُفْلِحُونَ﴾(1).

ومن فوائدها مضافاً إلى ذلك أنّ فيهـا حفظـاً لـروح الرجـاء مـن الانخماد والركود، فإنّ الإنسان لا يستقيم سـيره الحيـوي إلاّ بـالخوف والرجاء المتعادلين حتّى يندفع عمّا يضرّه وينجـذب إلـى مـا ينفعـه، ولولا ذلك لهلك؛ قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الـذُّنُوبَ جَمِيعـاً إِنَّـهُ هُـوَ الْغَفُـورُ الرَّحِيمُ﴾(2).

ولا يزال الإنسان على ما نعرف من غريزتـه علـى نشـاط مـن الـروح الفعّالة وجدّ في العزيمة والسعي ما لم تخسر صفقته في متجر الحيـاة، وإذا

---

(1) النور: ٣١.

(2) الزمر: ٥٤.

بدا له ما يخسر عمله ويخيب سعيه ويبطل أُمنيته استولى عليه اليأس وانسلّت به أركان عمله، وربما انصرف بوجهه عن مسيره آيساً من النجاح خائباً من الفوز والفلاح، والتوبة هي الدواء الوحيد الذي يعالج داءه ويحيي به قلبه وقد أشرف على الهلكة والردى.

تشريع التوبة والإغراء بالمعصية

قد يقال إنّ في تشريع التوبة والدعوة إليها إغراءً بالمعصية وتحريضاً على ترك الطاعة، فإنّ الإنسان إذا أيقن أنّ الله يقبل توبته إذا اقترف أيّ معصية من المعاصي لم يخلّف ذلك في نفسه أثراً دون أن تزيد جرأته على هتك حرمات الله والانغمار في لجج المعاصي والذنوب، فيدقّ باب كلّ معصية قاصداً أن يذنب ثمّ يتوب.

والجواب: إنّ من ذكر أن استلزام التوبة أن يقصد الإنسان كلّ معصية بنيّة أن يعصي ثمّ يتوب، قد فاته أنّ التوبة على هذا النحو لا يتحقّق معها حقيقة التوبة واقعاً، لأنّ التوبة حقيقة هي انقلاع عن المعصية، ولا انقلاع في هذا الذي يأتي به.

والدليل عليه أنّه كان عازماً على ذلك قبل المعصية ومع المعصية وبعد المعصية، ولا معنى للندامة – أي التوبة – قبل تحقّق الفعل، بل مجموع الفعل والتوبة في أمثال هذه المعاصي مأخوذ فعلاً واحداً، مقصود بقصد واحد مكراً وخديعة يخدع بها ربّ العالمين، ولا يحيق المكر السيئ إلاّ بأهله.

وإلى هذا يرجع جميع ما اعتبر شرعاً من آداب التوبة وشرائطها كالندم والاستغفار والتلبّس بالعمل الصالح والانقلاع عن المعصية وغير ذلك ممّا سيأتي بحثه لاحقاً إن شاء الله تعالى.

ولا يتنافى قبول التوبة مع تكرّر المعصية بعد التوبة الصادقة، لأنّه لم يكن مصرّاً عليها مستكبراً معانداً فيها؛ لذا ورد عن الإمام محمّد الباقر عليه السلام قال: «**يا محمّد بن مسلم ذنوب المؤمن إذا تاب منها مغفورة له، فليعمل المؤمن لما يستأنف بعد التوبة والمغفرة، أما والله إنّها ليست إلاّ لأهل الإيمان.** قلت: فإن عاد بعد التوبة والاستغفار من الذنوب وعاد في التوبة؟ فقال: **يا محمّد بن مسلم أترى العبد المؤمن يندم على ذنبه ويستغفر منه ويتوب ثمّ لا يقبل الله توبته؟** قلت: فإن فعل ذلك مراراً، يذنب ثمّ يتوب ويستغفر الله، فقال: **كلّما عاد المؤمن بالاستغفار والتوبة عاد الله عليه بالمغفرة، وإنّ الله غفور رحيم يقبل التوبة ويعفو عن السيّئات، فإيّاك أن تقنّط المؤمنين من رحمة الله**»[1].

(١) **الأُصول من الكافي**: ج٢ ص٤٣٤، كتاب الإيمان والكفر، باب التوبة، الحديث: ٦.

لا شفيع أنجح من التوبة

قال علي أمير المؤمنين عليه السلام: «**لا شفيع أنجح من التوبة**»[1].

توضيح ذلك: ذكرنا في كتاب «الشفاعة» أنّ الشفاعة تنقسم إلى تكوينية وتشريعية، ولكلٍّ منهما شفعاء. وإنّ شفعاء الشفاعة التشريعية على قسمين، ولكي يتّضح السبب في ذلك لابدّ من الوقوف على مقدّمة حاصلها، أنّ القرآن الكريم والروايات الواردة عن النبي الأكرم وأهل بيته عليهم الصلاة والسلام، ذكرت للذنوب والمعاصي آثاراً مترتّبة عليها في الدنيا والآخرة.

الآثار المترتّبة على الذنوب

أمّا الآثار المترتّبة عليها في النشأة الأخرى فهو العقاب الإلهي بما له من درجات مختلفة وفي مواقف متعدّدة من الاحتضار إلى البرزخ ثمّ في الحشر الأكبر من الميزان وتطاير الكتب، ثمّ عند الصراط

---

(١) **شرح العالم الربّاني كمال الدين ميثم بن علي البحراني على المئة كلمة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب**، ويليه شرحان على تلك الكلمات بعينها: ص ١٩٩ الكلمة ٣٩، منشورات جماعة المدرّسين في الحوزة العلمية بقم المقدّسة.

المستقيم ثمّ الحوض، ثمّ آخر هذه المواقف هو الموقف المرتبط بالجحيم ونار جهنّم.

وأمّا الآثار المترتّبة على الذنوب في النشأة الدنيا فهي على قسمين فردية واجتماعية. **أمّا الآثار الفردية للذنوب**

• قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً﴾[1] وقوله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي﴾ يقابل قوله في الآية السابقة: ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى﴾[2] وكان مقتضى المقابلة أن يقال: ومن لم يتّبع هداي، وإنّما عدل عنه إلى ذكر الإعراض عن الذكر ليشير به إلى علّة الحكم، لأنّ نسيانه تعالى والإعراض عن ذكره هو السبب لضنك العيش والعمى يوم القيامة، وليكون توطئة لما سيذكر من نسيانه تعالى يوم القيامة من نسيه في الدنيا؛ قال: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾[3].

• وقال تعالى: ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[4] قال الراغب في المفردات: «الرَيْن: صدأ يعلو الشيء الجليّ؛ قال: ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي صار ذلك كصدأ على جلاء قلوبهم فعمي عليهم

---

(١) طه: ١٢٤.

(٢) طه: ١٢٣.

(٣) طه: ١٢٤ ـ ١٢٦.

(٤) المطففين: ١٤.

معرفة الخير من الشرّ»[1] فكون ما يكسبون - وهو الذنوب - ريناً على قلوبهم هو حيلولة الذنوب بينهم وبين أن يدركوا الحقّ على ما هو عليه. ويظهر من الآية:

أوّلاً: إنّ للأعمال السيّئة نقوشاً وصوراً في النفس تنتقش وتتصوّر بها.

ثانياً: إنّ هذه النقوش والصور تمنع النفس أن تدرك الحقّ كما هو وتحول بينها وبينه.

ثالثاً: إنّ للنفس بحسب طبعها الأوّلي صفاءً وجلاءً تدرك به الحقّ كما هو وتميّز بينه وبين الباطل وتفرّق بين التقوى والفجور»[2].

وإذا حصل الرين والصدأ على القلب عمي القلب؛ قال عزّ من قائل: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[3].

أمّا الآثار الاجتماعية للذنوب، فقد أشارت الآيات القرآنية أنّ هناك رابطة بين فجور الإنسان وإفساده في الأرض وبين ظهور الكوارث والأمراض ونحوهما:

---

(١) **المفردات في غريب القرآن**، تأليف: أبي القاسم الحسين بن محمّد المعروف بالراغب الإصفهاني: ص٢٠٨، مادّة رَين. دار المعرفة، بيروت ـ لبنان.

(٢) **الميزان في تفسير القرآن**: ج٢٠ ص٢٣٤.

(٣) الحجّ: ٤٦.

• قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ﴾(١).

• وقال: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(٢).

• وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(٣).

فهذه الآيات ونظائرها تشير إلى أنّ الحوادث الكونية لها نحو ارتباط وتبعية للأعمال الإنسانية، فإذا جرى النوع الإنساني على طاعة الله سبحانه وسلك الطريق الذي يرتضيه فإنّه يستتبع نزول الخيرات وانفتاح أبواب البركات ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾.

أمّا إذا انحرف عن صراط العبودية وتمادى في الغيّ والضلال وفساد النيّات وشناعة الأعمال، فإنّ ذلك يوجب ظهور الفساد في البرّ

---

(١) سبأ: ١٥ ـ ١٧.

(٢) الروم: ٤١.

(٣) الأعراف: ٩٦.

والبحر وهلاك الأُمم بانتشار الظلم وارتفاع الأمن وبروز الحروب وسائر الشرور الراجعة إلى الإنسان وأعماله، وكذا تظهر المصائب والحوادث الكونية المبيدة كالسيل والزلزلة والصاعقة والطوفان وغير ذلك.

عود على بدء

في ضوء الحقيقة المتقدّمة التي وقفنا عليها يتّضح أنّ حاجة الإنسان إلى الشفاعة التشريعية لا تختصّ بالنشأة الأخرى، وإنّما تمتدّ لتشمل هذه النشأة أيضاً ، لأنّ الآثار المترتّبة على فجور الإنسان ومعاصيه لا تختصّ بتلك النشأة، وإنّما ترافق الإنسان في كلّ مراحل حياته الدنيوية أيضاً. من هنا تنبثق الحاجة إلى الشفاعة في الدنيا لكي تهيّأ الأرضية للانتفاع بشفاعة الشافعين في الأخرى.

وقد أشارت الآيات والروايات إلى أنّ شفعاء النشأة الدنيوية هم الملائكة والأنبياء وغيرهما، إلاّ أنّ أفضل الشفعاء في هذه النشأة هي التوبة، وكما قال إمام المتّقين: **لا شفيع أنجح من التوبة**[1].

ولعلّ السبب في كون التوبة أفضل وأنجح شفيع للإنسان مع وجود غيرها من الشفعاء كالملائكة والأنبياء عليهم السلام، يعود إلى أنّ غيرها محدود بحدود معيّنة لا تتعدّاها. فمثلاً مع أنّه لا يتصوّر في الوجود شافع فوق أشفع الشافعين تبارك وتعالى، مع ذلك فإنّه شفاعته يوم القيامة لا تشمل من يموت مشركاً؛ لقوله تعالى وقوله الحقّ: ﴿إنَّ

(١) **شرح المئة كلمة لأمير المؤمنين**، لميثم بن علي البحراني، مصدر سابق: ص١٩٩.

اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[١].

وأمّا ما دون أشفع الشافعين من الشفعاء، فإنّ لشفاعتهم شروطاً وحدوداً لا يتعدّونها كما أوضحناه في مباحث الشفاعة. فهم لا يستغفرون إلاّ لمن ارتضى الله دينه، ولا يشفعون إلاّ لمن كان بينه وبين الله عهد؛ من هنا خاطب الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وآله بشأن المنافقين: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[٢].

ولا يعني ذلك أنّ الرسول صلى الله عليه وآله كان يستغفر للكفّار والمنافقين، وإنّما على فرض أنّه صلى الله عليه وآله استغفر لهم فإنّ استغفاره لن ينفعهم لأنّهم كفروا بالله ورسوله، ومثل ذلك قوله سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾[٣].

وأمّا استغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه مع أنّه مشرك، فقد أجاب عنه القرآن الكريم بقوله: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إبْرَاهِيمَ لأبِيهِ إلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إنَّ إبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾[٤].

وأمّا التوبة فإنّها شافعة للإنسان حتّى من الشرك والكفر والنفاق،

---

(١) النساء: ٤٨.

(٢) التوبة: ٨٠.

(٣) التوبة: ١١٣.

(٤) التوبة: ١١٤.

وهذا ما يستفاد من مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾(١) والتدقيق في مفردات هذه الآية يبيّن أنّها من أكثر آيات القرآن الكريم التي تعطي الأمل للمذنبين، فشموليتها وسعتها وصلت إلى درجة قال بشأنها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**ما في القرآن آية أوسع من هذه الآية**»(٢).

ولعلّه يمكن الإشارة إلى بعض الوجوه التي تثبت هذه الحقيقة:

- «التعبير بـ ﴿يا عبادي﴾ هي بداية لطف الباري عزّ وجلّ.
- التعبير بـ ﴿لا تسرفوا﴾ بدلاً من الظلم والذنب والجريمة هو لطف آخر.
- ﴿على أنفسهم﴾ يبيّن أنّ ذنوب الإنسان تعود كلّها عليه. وهذا التعبير علامة أُخرى من علامات محبّة الله لعباده، وهو يشبه خطاب الأب الحريص لولده عندما يقول: لا تظلم نفسك أكثر من هذا.
- التعبير بـ ﴿لا تقنطوا﴾ مع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ القنوط يعني في الأصل اليأس من الخير، فإنّه وحده دليل على أنّ المذنبين ينبغي أن لا يقنطوا من اللطف الإلهي.

---

(١) الزمر: ٥٣.

(٢) **الجامع لأحكام القرآن**، لأبي عبد الله محمّد بن أحمد الأنصاري القرطبي، المتوفّى: ٦٧١هـ: ج١٥ ص٢٦٩، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

• عبارة ﴿من رحمة الله﴾ التي وردت بعد عبارة ﴿لا تقنطوا﴾ تأكيد آخر على هذا الخير والمحبّة.

• عندما نصل إلى عبارة ﴿إنّ الله يغفر الذنوب﴾ التي بدأت بتأكيد، وكلمة ﴿الذنوب﴾ التي جُمعت بالألف واللام، لتشمل كلّ الذنوب من دون أي استثناء، فإنّ الكلام يصل إلى أوجه، وعندها تتلاطم أمواج بحر الرحمة الإلهية.

• إنّ ورود كلمة ﴿جميعاً﴾ كتأكيد آخر للتأكيد السابق يوصل الإنسان إلى أقصى درجات الأمل.

• وصف الباري عزّوجلّ بـ ﴿الغفور الرحيم﴾ في آخر الآية، وهما وصفان من أوصاف الله الباعثة على الأمل، فلا يبقى عند الإنسان أدنى شعور باليأس أو فقدان الأمل»[١].

تعارض متوهّم

قد يُتوهّم أنّ هناك تعارضاً بين عمومية هذه الآية التي تشمل الذنوب جميعاً حتّى الشرك، وبين قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[٢] حيث جعلت الشرك من الذنوب التي لا تُغتفر.

---

(١) **الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل**، تأليف: العلاّمة الفقيه المفسّر الشيخ ناصر مكارم الشيرازي: ج١٥ ص٨٩، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى.

(٢) النساء: ٤٨.

والجواب أنّ مورد آية سورة الزمر مشروط بعود الإنسان إلى نفسه بعد ارتكاب الذنب، والتوجّه إلى مسيره نحو الباري عزّ وجلّ والإنابة إليه، والاستسلام لأوامره، وبدون ذلك فلا مجال لغفران الذنوب جميعاً، والشاهد على ذلك ما ورد في الآية اللاحقة حيث قال سبحانه: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لاَ تُنْصَرُونَ﴾ حيث إنّ قوله: ﴿وأنيبوا﴾ معطوفة على قوله: ﴿لا تقنطوا﴾ والإنابة إلى الله هي الرجوع إليه وهو التوبة؛ بخلاف مورد سورة النساء حيث استثنت - الآية - المشركين من هذا العفو والرحمة، فإنّها تقصد المشركين الذين ماتوا على شركهم، وليس أُولئك الذين صحوا من غفلتهم واتّبعوا سبيل الله، لأنّ أكثر مسلمي صدر الإسلام كانوا كذلك، أي أنّهم تركوا عبادة الأصنام والشرك بالله وآمنوا بالله الواحد القهّار بعد دخولهم الإسلام.

وبكلمة واضحة: إنّ قوله تعالى: ﴿يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ إنّما هو في هذه النشأة الدنيوية، حيث يغفر مع التوبة جميع الذنوب حتّى الشرك والكفر، بخلاف آية سورة النساء التي استثنت المشرك، فإنّها تختصّ بالنشأة الأخروية، حيث إنّه تعالى لا يغفر الشرك من كافر ولا مشرك، ويغفر سائر الذنوب دون الشرك بشفاعة شافع من عباده أو عمل صالح.

بهذا يتّضح أنّ دور التوبة - بشرائطها التي ستأتي - أعظم بمراتب من دور غيرها من الشفعاء، لكنّها من ناحية أُخرى أضيق ظرفاً من

شفاعة الشفعاء الآخرين، لأنّها مختصّة بهذه النشأة ولا يمتدّ تأثيرها إلى الدار الآخرة كما عرفنا.

أركان التوبة وشروطها

جاء في «نهج البلاغة» أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قال لقائل قال بحضرته «استغفر الله»:

«ثكلتك أُمّك أتدري ما الاستغفار؟ الاستغفار درجة العلّيين وهو اسم واقع على ستّة معان:

أوّلها: الندم على ما مضى.

والثاني: العزم على ترك العود إليه أبداً.

والثالث: أن تؤدّي إلى المخلوقين حقوقهم حتّى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة.

والرابع: أن تعمد إلى كلّ فريضة عليك ضيّعتها فتؤدّي حقّها.

والخامس: أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتّى تلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد.

والسادس: أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية فعند ذلك تقول: استغفر الله»[1].

---

(١) **نهج البلاغة**، الكلمات القصار، رقم: ٤١٧ ص٥٤٩ ضبط نصّه وابتكر فهارسه العلمية: الدكتور صبحي الصالح، من منشورات دار الهجرة، إيران ـ قم.

يشتمل هذا الحديث الشريف الذي نقله السيّد الرضي عن إمام المتّقين علي عليه السلام على ركنين من أركان التوبة هما: الندامة والعزم على ترك العودة، وعلى شرطين مهمّين للقبول هما: إرجاع حقوق المخلوق لأهلها وردّ حقوق الخالق لله سبحانه. وأمّا الأمران الأخيران، فهما من شروط كمال التوبة، أي أنّ التوبة الكاملة لا تتحقّق ولا تقبل من دونهما.

أركان التوبة

التوبة هي الإقلاع عن الذنب، ويعتبر في تحقّقها ثلاثة أُمور:

- ترك الفعل في الحال.
- الندم على الماضي من الأفعال.
- العزم على الترك في الاستقبال.

قال الغزالي في إحياء علوم الدين: «اعلم أنّ التوبة عبارة عن معنى ينتظم ويلتئم من ثلاثة أُمور مرتّبة: علم، وحال، وفعل. فالعلم الأوّل والحال الثاني والفعل الثالث. والأوّل موجب للثاني، والثاني موجب للثالث إيجاباً اقتضاه اطّراد سنّة الله في الملك والملكوت.

أمّا العلم، فهو معرفة عظم ضرر الذنوب وكونها حجاباً بين العبد وبين كلّ محبوب، فإذا عرف ذلك معرفة محقّقة بيقين غالب على قلبه، ثار من هذه المعرفة تألّم للقلب بسبب فوات المحبوب، فإنّ القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألّم، فإن كان فواته بفعله تأسف على الفعل المفوّت، فيسمّى تألّمه بسبب فعله المفوّت لمحبوبه ندماً.

فإذا غلب هذا الألم على القلب واستولى، انبعث من هذا الألم في القلب حالة أُخرى تسمّى إرادة وقصداً إلى فعل له تعلّق بالحال والماضي والاستقبال.

• أمّا تعلّقه بالحال فبالترك للذنب الذي كان ملابساً.

• وأمّا بالاستقبال فبالعزم على ترك الذنب المفوّت للمحبوب إلى آخر العمر.

• وأمّا بالماضي فبتلافي ما فات بالجبر والقضاء إن كان قابلاً للجبر.

فالعلم هو الأوّل وهو مطلع هذه الخيرات، وأعني بهذا العلم الإيمان واليقين، فإنّ الإيمان عبارة عن التصديق بأنّ الذنوب سموم مهلكة، واليقين عبارة عن تأكّد هذا التصديق وانتفاء الشكّ عنه واستيلائه على القلب، فيثمر نور هذا الإيمان مهما أشرق على القلب نار الندم فيتألّم بها القلب حيث يبصر بإشراق نور الإيمان أنّه صار محجوباً عن محبوبه، كمن يشرق عليه نور الشمس وقد كان في ظلمة فيسطع عليه بانقشاع سحاب أو انحسار حجاب.

فالعلم والندم والقصد المتعلّق بالترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضي، ثلاثة معان مرتّبة في الحصول، فيطلق اسم التوبة على مجموعها، وكثيراً ما يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده، ويجعل العلم كالسابق والمقدّمة، والترك كالثمرة والتابع المتأخّر.

وبهذا الاعتبار ورد عن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ الندم على الشرّ يدعو إلى تركه»[١]. وكذلك عن أبان بن تغلب قال: سمعت الإمام الصادق عليه السلام يقول: ما من عبد أذنب ذنباً فندم عليه إلاّ غفر الله له قبل أن يستغفر، وما من عبد أنعم الله عليه نعمة فعرف أنّها من عند الله إلاّ غفر الله له قبل أن يحمده»[٢]. وقال الإمام الباقر عليه السلام: «كفى بالندم توبة»[٣].

حقّ الله وحقّ الناس

صعد عليّ عليه السلام بالكوفة المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: «أيّها الناس إنّ الذنوب ثلاثة؛ فذنب مغفور وذنب غير مغفور وذنب نرجو لصاحبه ونخاف عليه. قيل: يا أمير المؤمنين فبيّنها لنا. قال: نعم.

• أمّا الذنب المغفور فعبدٌ عاقبه الله على ذنبه في الدنيا فالله أحلم وأكرم من أن يعاقب عبده مرّتين.

• وأمّا الذنب الذي لا يغفر فمظالم العباد بعضهم لبعض، إنّ الله تبارك وتعالى إذا برز لخلقه أقسم قسماً على نفسه فقال: وعزّتي وجلالي لا يجوزني ظلم ظالم ولو كفّ بكفّ ولو مسحة بكفّ ولو نطحة ما بين القرناء إلى الحمّاء (الشاة التي لا قرن لها) فيقتصّ للعباد بعضهم من بعض

(١) **الأصول من الكافي**: ج٢ ص٤٢٧، كتاب الإيمان والكفر، باب الاعتراف بالذنوب والندم عليها، الحديث: ٧.

(٢) المصدر السابق، الحديث: ٨.

(٣) المصدر السابق: ج٢ ص٤٢٦، الحديث: ١.

حتّى لا تبقى لأحد على أحد مظلمة، ثمّ يبعثهم للحساب.

• وأمّا الذنب الثالث فذنب ستره الله على خلقه ورزقه التوبة منه، فأصبح خائفاً من ذنبه راجياً لربّه، فنحن له كما هو لنفسه، نرجو له الرحمة ونخاف عليه العذاب»[1].

قال المجلسي في «مرآة العقول»: «وجه الحصر أنّ الذنوب إمّا للتقصير في حقّ الله أو في حقّ الناس. والأوّل إمّا أن يرفع العبد العقوبة الدنيوية بالتوبة أو لا. فهذه ثلاثة. وأمّا الذنب الذي لا عقوبة عليه في الدنيا ولم يتب منه، فالظاهر أنّه داخل في القسم الثالث وحكمه حكمه»[2].

شروط كمال التوبة

ما ذكره الإمام عليه السلام في الأمرين الخامس والسادس، أن يعمد التائب إلى اللحم الذي نبت على السُحت فيذيبه بالأحزان حتّى يلصق الجلد بالعظم، وأن يذيق الجسم ألم الطاعة كما أذاقه حلاوة المعصية، فهما من شرائط كمال التوبة لا أصلها.

توضيح ذلك: «إنّ لكلّ منزل من منازل السالكين مراتب ودرجات، تختلف حسب اختلاف حالات قلوبهم، وإنّ التائب إذا أراد البلوغ إلى

(١) **الأصول من الكافي**: ج٢ ص٤٤٣، كتاب الإيمان والكفر، باب في أنّ الذنوب ثلاثة، الحديث: ١.

(٢) **مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول**، تأليف: العلاّمة شيخ الإسلام المولى محمّد باقر المجلسي: ج١١ ص٣٢١، دار المكتبة الإسلامية.

مرتبة الكمال فلابدّ من تدارك ما تركه وتدارك الحظوظ أيضاً. يعني لابدّ من تدارك الحظوظ النفسانية التي لحقت به أيّام الآثام والمعاصي وذلك بالسعي لمحو كلّ الآثار الجسمية والروحية التي حصلت في مملكة جسمه ونفسه من جرّاء الذنوب، حتّى تعود النفس مصقولة كما كانت في بدء الأمر، وتعود الفطرة إلى روحانيتها الأصيلة وتحصل له الطهارة الكاملة.

لقد علمت بأنّ لكلّ معصية ومتعة انعكاساً وأثراً في الروح، كما قد يحصل أثر من بعض الذنوب واللذائذ في الجسم، فلابدّ للتائب أن ينتفض ويستأصل تلك الآثار ويقوم بالرياضة البدنية والروحية حتّى تزول منهما كلّ تبعات ومضاعفات الخطايا والآثام كما أمر الإمام عليه السلام.

فعن طريق ممارسة الرياضة الجسمية من الإمساك عن أكل المقوّيات والمنشّطات والصيام المستحبّ أو الواجب إذا كان في ذمّته صيام واجب، يذيب اللحوم التي نشأت على جسمه من الحرام أو المعصية.

وعن طريق الرياضة الروحية من العبادات والمناسك يتدارك الحظوظ الطبيعية، لأنّ صورة اللذّات الطبيعية (المادّية) لا تزال ماثلة في ذائقة النفس، وما دامت عالقة بها ترغب إليها النفس ويعشقها القلب، ويخشى من لحظة طغيان النفس وتمرّدها على صاحبها والعياذ بالله.

فلابدّ على السالك لسبيل الآخرة والتائب عن المعاصي أن يذيق الروح ألم الرياضة الروحية ومشقّة العبادة، فإذا سهر ليلة في المعصية تداركها بليلة في العبادة، وإذا عاش يوماً واحداً مع اللذائذ المادّية تداركه بالصوم والمستحبّات المناسبة حتّى تطهر النفس من كلّ آثار المعاصي وتبعاته التي هي عبارة عن تعلّق حبّ الدنيا بالنفس ورسوخه فيها وتتطهّر من كلّ ذلك.

فهذان المقامان من المتمّمات والمكمّلات لمنزلة التوبة، والإنسان في بدء الأمر عندما يريد أن يدخل مقام التوبة ويتوب إلى الله لا يظنّ بأنّ المطلوب منه المرتبة الأخيرة من التوبة، حتّى يجد الطريق صعباً، وعملية التوبة شاقّة فينصرف عنها ويتركها.

إنّ كلّ مقدار يساعد عليه حال السالك في سلوكه لطريق الآخرة يكون مطلوباً ومرغوبا فيه، وعندما تطأ قدماه الطريق ييسّر الله تعالى له الطريق، فلابدّ أن لا تحجزه صعوبة الطريق عن الهدف الأصيل لأنّه مهمّ جدّاً وعظيم جدّاً. وإذا انتبهنا إلى عظمة الهدف وأهميّته تذلّلت جميع الصعاب من أجله، وأي شيء أعظم من النجاة الأبدية والرَّوح والريحان الدائمين؟ وأي بلاء أعظم من الهلاك الدائمي والشقاء السرمدي؟ ومع ترك التوبة والتسويف والتأجيل قد يبلغ الإنسان إلى الشقاء الأبدي والعذاب الخالد والهلاك الدائم»[1].

---

(١) **الأربعون حديثاً**، الإمام الخميني: ص٣٠٩ ـ ٣١١، بتصرّف، تعريب السيّد محمّد الغروي، مؤسّسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخمينيقدس سره الطبعة الثانية: ١٤٢٤هـ

التوبة النصوح

ورد في القرآن الكريم الأمر بالتوبة النصوح؛ قال الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً﴾[(١)] وقد ذكر المفسّرون في معنى التوبة النصوح وجوهاً:

• إنّ المراد توبة تنصح الناس أي تدعوهم إلى أن يأتوا بمثلها لظهور آثارها الجميلة في صاحبها.

• إنّ المراد توبة تنصح صاحبها فيقلع عن الذنوب ثمّ لا يعود إليها أبداً؛ عن أبي الصباح الكناني أنّه سأل الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً﴾ فقال عليه السلام: «**يتوب العبد عن الذنب ثمّ لا يعود فيه**»[(٢)].

• إنّ النصوح ما كانت خالصة لوجه الله سبحانه؛ من قولهم «عسل نصوح» إذا كان خالصاً من الشمع، بأن يندم على الذنوب لقبحها وكونها خلاف رضى الله سبحانه لا لخوف النار مثلاً.

• إن النصوح من النصاحة وهي الخياطة؛ لأنها تنصح من الدين ما فرّقته الذنوب، أو تجمع بين التائب وبين أوليائه وأحبّائه كما يجمع الخيّاط بين قطع الثوب.

---

(١) التحريم: ٨.

(٢) **الأصول من الكافي**: ج ٢ ، ص ٤٣٢، كتاب الإيمان والكفر، باب التوبة، الحديث: ٣.

• إنّ النصوح وصف للتائب، وإسناده إلى التوبة من قبيل الإسناد المجازي أي توبة تنصحون بها أنفسكم، بأن تأتوا بها على أكمل ما ينبغي أن تكون عليه حتّى تكون قالعة لآثار الذنوب من القلوب بالكلّية، وذلك بإذابة النفس بالحسرات ومحو ظلمة السيّئات بنور الحسنات.

عن معاوية بن وهب قال: سمعت الإمام الصادق عليه السلام يقول: **إذا تاب العبد توبة نصوحاً أحبّه الله فستر عليه**، فقلت: وكيف يستر عليه؟ قال: **ينسي ملكيه ما كانا يكتبان عليه ويوحي إلى جوارحه وإلى بقاع الأرض أن اكتمي عليه ذنوبه، فيلقى الله عزّ وجلّ حين يلقاه وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب**»[1].

وجوب التوبة فوري

لا ريب في وجوب التوبة على الفور، فإنّ الذنوب بمنزلة السموم المضرّة بالبدن، وكما يجب على شارب السمّ المبادرة إلى العلاج تلافياً لبدنه المشرف على الهلاك، كذلك يجب على صاحب الذنوب ـ التي لا يخلو منها إنسان لم يعصمه الله تعالى ـ المبادرة إلى تركها والتوبة منها، ومن أهمل المبادرة إلى التوبة وسوّفها من وقت إلى وقت فهو بين خطرين عظيمين، إن سلم من واحد فلعلّه لا يسلم من الآخر.

(١) المصدر السابق: الحديث: ١٢.

• أن يعاجله الأجل فلا ينتبه من غفلته إلاّ وقد حضر الموت وفات وقت التدارك وانسدّت أبواب التلافي وجاء الوقت الذي أشار إليه سبحانه بقوله: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾(١) وصار يطلب المهلة والتأخير يوماً أو ساعة فيقال له: لا مهلة كما قال سبحانه: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(٢).

• أن تتراكم ظلمات المعاصي على قلبه إلى أن تصير ريناً وطبعاً فلا تقبل المحو، فإنّ كلّ معصية يفعلها الإنسان يحصل منها ظلمة في قلبه، كما يحصل من نَفَسِ الإنسان ظلمة في المرآة، فإذا تراكمت ظلمة الذنوب صارت ريناً كما يصير بخار النفس عند تراكمه على المرآة صداء، وإذا تراكم الرين صار طبعاً، فيطبع على قلبه كالخبث على وجه المرآة إذا تراكم بعضه فوق بعض وطال مكثه، عند ذلك لا تقبل الصيقل أبداً، وقد يعبّر عن هذا القلب بالقلب المنكوس والقلب الأسود.

عن طلحة بن زيد عن الإمام الصادق عليه السلام قال: **كان أبي يقول: ما من شيء أفسد للقلب من خطيئة، إنّ القلب ليواقع الخطيئة فما**

---

(١) سبأ: ٥٤.

(٢) المنافقون: ١٠ ـ ١١.

تزال به حتّى تغلب عليه فيصيّر أعلاه أسفله»[1]. قال الفيض الكاشاني: «يعني ما تزال تفعل تلك الخطيئة بالقلب وتؤثّر فيه بحلاوتها حتّى تجعل وجهه الذي إلى جانب الحقّ والآخرة إلى جانب الباطل والدنيا»[2].

وعن زرارة عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «**ما من عبد إلاّ وفي قلبه نكتة بيضاء، فإذا أذنب ذنباً خرج في النكتة نكتة سوداء، فإن تاب ذهب ذلك السواد، وإن تمادى في الذنوب** (أي إذا لجّ ودام على فعله) **زاد ذلك السواد حتّى يغطّي البياض، فإذا تغطّى البياض لم يرجع صاحبه إلى خير أبداً، وهو قول الله عزّ وجلّ:** ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[3][4].

توضيح ذلك: أنّ من عمل عملاً صالحاً أثّر في نفسه ضياءً، وبازدياد العمل يزداد الضياء والصفاء حتّى تصير كمرآة مجلّوة صافية، ومن أذنب ذنباً أثّر ذلك أيضاً وأورث لها كدورة، فإن تحقّق عنده قبحه وتاب عنه زال الأثر وصارت النفس مصقولة صافية، وإن أصرّ عليه زاد الأثر الميشوم وفشا في النفس وقعد عن الاعتراف بالتقصير

---

(١) **الأصول من الكافي**: ج٢ ص٢٦٨، كتاب الإيمان والكفر، باب الروح الذي أيّد به المؤمن، الحديث: ١.

(٢) نقلاً عن **حاشية الأصول من الكافي**: ج٢ ص٢٦٨، رقم: ٤.

(٣) المطفّفين: ١٤.

(٤) **الأصول من الكافي**: ج٢ ص٢٧٣، الحديث: ٢٠.

والرجوع إلى الله بالتوبة والاستغفار والانقلاع عن المعاصي.

وربما يؤول حال صاحب هذا القلب إلى عدم المبالاة بأوامر الشريعة ونواهيها، فيسهل أمر الدين في نظره ويزول أثر الأحكام الإلهية من قلبه وينفر عن قبولها طبعه، وينجرّ ذلك إلى اختلال عقيدته وزوال إيمانه، فيموت على غير الملّة، وهو المعبَّر عنه بسوء الخاتمة. نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيّئات أعمالنا.

شرائط قبول التوبة

قال عزّ من قائل: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾[١].

تقدّم أنّ التوبة من الله سبحانه لعبده فضل منه كسائر النعم التي يتنعّم بها خلقه من غير إلزام وإيجاب عليه سبحانه من غيره. بناءً على ذلك فـ «على» في قوله تعالى «على الله» هي حرف للاستعلاء المجازي بمعنى التعهّد والتحقّق، كقولك: عليّ لك كذا، فهو يفيد تحقّق التعهّد. والمعنى: التوبة تحقّ على الله، وهذا مجاز في تأكيد العدة بقبولها حتّى جعلت كالحقّ على الله، ولا شيء بواجب على الله إلاّ وجوب وعده بفضله.

وقد دلّت الآية أنّ الله تعالى يقبل التوبة عن عباده بشرطين:

(١) النساء: ١٧.

أحدهما: ﴿للذين يعملون السوء بجهالة﴾ الجهالة: تطلق على الإقدام على العمل دون رويّة. وليس المراد بالجهالة هنا ما يطلق عليه اسم الجهل وهو انتفاء العلم بما فعله، لأنّ ذلك لا يسمّى جهالة وإنّما هو من معاني لفظ الجهل.

توضيح ذلك: إنّ الناس لمّا شاهدوا من أنفسهم أنّهم يعملون كلاًّ من أعمالهم الجارية عن علم وإرادة، وأنّ الإرادة إنّما تكون عن حبّ ما وشوق ما، سواء كان الفعل ممّا ينبغي أن يفعل بحسب نظر العقلاء في المجتمع أو ممّا لا ينبغي أن يفعل، لكن من له عقل مميّز في المجتمع عندهم لا يقدم على السيّئة المذمومة عند العقلاء، فأذعنوا بأنّ من اقترف هذه السيّئات المذمومة لهوى نفساني وداعية شهوية أو غضبية خفي عليه وجه العلم، وغاب عنه عقله المميّز الحاكم في الحسن والقبيح والممدوح والمذموم، وظهر عليه الهوى، وعندئذ يسمّى حاله في علمه وإرادته «جهالة» في عرفهم وإن كان بالنظر الدقيق نوعاً من العلم، لكن لمّا لم يؤثّر ما عنده من العلم بوجه قبح الفعل وذمّه في ردعه عن الوقوع في القبح والشناعة، أُلحق بالعدم، فكان هو جاهلاً عندهم حتّى أنّهم يسمّون الإنسان الشاب الحدث السنّ قليل التجربة جاهلاً؛ لغلبة الهوى وظهور العواطف والأحاسيس على نفسه، ولذلك أيضاً تراهم لا يسمّون حال مقترف السيّئات إذا لم ينفعل في اقتراف السيّئة عن الهوى والعاطفة جهالة، بل يسمّونها عناداً وعمداً وغير ذلك.

فتبيّن بذلك أنّ الجهالة في باب الأعمال إتيان العمل عن الهوى وظهور الشهوة والغضب من غير عناد مع الحقّ. ومن خواصّ هذا الفعل الصادر عن جهالة أن إذا سكنت ثورة القوى وخمد لهيب الشهوة أو الغضب باقتراف السيّئة أو بحلول مانع بمرور زمان أو ضعف القوى بشيب أو مزاج، عاد الإنسان إلى العلم وزالت الجهالة وبانت الندامة، بخلاف الفعل الصادر عن عناد وتعمّد ونحو ذلك فإنّ سبب صدوره لمّا لم يكن طغيان شيء من القوى والعواطف والأميال النفسانية، بل كان أمراً يسمّى عندهم بخبث الذات ورداءة الفطرة، لا يزول بزوال طغيان القوى والأميال سريعاً أو بطيئاً، بل دام نوعاً بدوام الحياة من غير أن يلحقه ندامة من قريب إلاّ أن يشاء الله.

نعم ربّما يتّفق أن يرجع المعاند اللجوج عن عناده ولجاجه واستعلائه على الحقّ، فيتواضع للحقّ ويدخل في ذلّ العبودية، فيكشف ذلك عندهم عن أنّ عناده كان عن جهالة، وفي الحقيقة كلّ معصية جهالة من الإنسان، وعلى هذا لا يبقى للمعاند مصداق إلاّ من لا يرجع عن سوء عمله إلى آخر عهده بالحياة والعافية.

ثانيهما: ﴿ثمّ يتوبون من قريب﴾ وقد أجمعوا على أنّ المراد من هذا القرب حضور زمان الموت ومعاينة أهواله، والدليل قوله تعالى في الآية التالية : ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إذَا حَضَرَ أَحَدَهُمْ الْمَوْتُ قَالَ إنِّي تُبْتُ الآنَ﴾(١).

---

(١) النساء: ١٨.

ولازم ذلك أنّ عامل السوء بجهالة لا يقيم عاكفاً على طريقته ملازماً لها مدى حياته من غير رجاء في عدوله إلى التقوى والعمل الصالح، كما يدوم عليه المعاند اللجوج، بل يرجع عن عمله من قريب، فيكون المراد بالقريب، العهد القريب أو الزمان القريب وهو قبل ظهور آيات الآخرة وقدوم الموت.

وعلى هذا يكون قوله: ﴿ثمّ يتوبون من قريب﴾ كناية عن المساهلة المفضية إلى فوت الفرصة.

وإنّما سمّى تعالى هذه المدّة إلى ما قبل الموت قريبة؛ لوجوه:

- إنّ الأجل آت، وكلّ ما هو آت قريب.

- للتنبيه على أنّ مدّة عمر الإنسان وإن طالت فهي قليلة قريبة، فإنّها محفوفة بطرفي الأزل والأبد، فإذا قسمت عمرك إلى ما على طرفيها صار كالعدم.

- إنّ الإنسان يتوقّع في كلّ لحظة نزول الموت به، وما هذا حاله فإنّه يوصف بالقرب.

يتبيّن ممّا مرّ أنّ الشرطين جميعاً - أعني قوله: «بجهالة» وقوله: «من قريب» - احترازيان، يراد بالأوّل منهما أن لا يعمل السوء عن عناد واستعلاء على الله، وبالثاني منهما أن لا يؤخّر الإنسان التوبة إلى حضور موته كسلاً وتوانياً ومماطلة؛ إذ التوبة هي رجوع العبد إلى الله سبحانه بالعبودية، فيكون توبته تعالى أيضاً قبول هذا الرجوع، ولا

معنى للعبودية إلاّ مع الحياة الدنيوية التي هي ظرف الاختيار وموطن الطاعة والمعصية.

ومع طلوع آية الموت لا اختيار تتمشّى معه طاعة أو معصية؛ قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمْ الْمَلاَئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً﴾[١].

وقال: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾[٢].

وبالجملة يعود المعنى إلى أنّ الله سبحانه إنّما يقبل توبة المذنب العاصي إذا لم يقترف المعصية استكباراً على الله بحيث يبطل منه روح الرجوع والتذلّل لله ولم يتساهل ويتسامح في أمر التوبة تساهلاً يؤدّي إلى فوت الفرصة بحضور الموت.

فإن قيل: فما فائدة قوله: ﴿فأُولئك يتوب الله عليهم﴾ بعد قوله: ﴿إنّما التوبة على الله﴾.

قلنا فيه وجهان:

الأوّل: إنّ قوله ﴿إنّما التوبة على الله﴾ إعلام بأنّه يجب على الله قبولها وجوب الكرم والفضل والإحسان لا وجوب الاستحقاق، وقوله:

---

(١) الأنعام: ١٥٨.

(٢) غافر: ٨٥.

﴿فأُولئك يتوب الله عليهم﴾ إخبار بأنّه سيفعل ذلك.

الثاني: إنّ قوله: ﴿إنّما التوبة على الله﴾ يعني إنّما الهداية إلى التوبة والإرشاد إليها والإعانة عليها على الله تعالى في حقّ من أتى بالذنب على سبيل الجهالة، ثمّ تاب عنها عن قريب وترك الإصرار عليها وأتى بالاستغفار عنها. ثمّ قال: ﴿فأُولئك يتوب الله عليهم﴾ يعني أنّ العبد الذي هذا شأنه إذا أتى بالتوبة، قَبِلها الله منه، فالمراد بالأوّل التوفيق على التوبة، وبالثاني قبول التوبة.

وقد اختير لختم الكلام قوله: ﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾ دون أن يقال: «وكان الله غفوراً رحيماً» للدلالة على أنّ فتح باب التوبة إنّما هو لعلمه تعالى بحال العباد وما يؤدّيهم إليه ضعفهم وجهالتهم، ولحكمته المقتضية لوضع ما يحتاج إليه إتقان النظام وإصلاح الأمور، وهو تعالى لعلمه وحكمته لا يغرّه ظواهر الأحوال بل يختبر القلوب، ولا يستزلّه مكر ولا خديعة، فعلى التائب من العباد أن يتوب حقّ التوبة حتّى يجيبه الله حقّ الإجابة(١).

---

(١) ينظر تفسير هذه الآية في: **التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور التونسي**: تأليف سماحة الأستاذ الإمام الشيخ محمّد الطاهر ابن عاشور: ج٤ ص٦٣ ـ ٦٦ **الميزان في تفسير القرآن**: ج٤ ص٢٣٧ ـ ٢٤٢؛ التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: ج١٠ ص٣ ـ ٦.

الذنوب التي تجب عنها التوبة

أشار القرآن الكريم إلى أنّ الذنوب تنقسم إلى كبيرة وصغيرة؛ قال تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً﴾[١] والكبائر جمع كبيرة، وصفٌ وُضع موضع الموصوف، كالمعاصي ونحوها، والكبر معنىً إضافي لا يتحقّق إلاّ بالقياس إلى صغر، من هنا كان المستفاد من قوله: ﴿كبائر ما تنهون عنه﴾ أنّ هناك من المعاصي المنهيّ عنها ما هي صغيرة، فيتبيّن من الآية:

- أنّ المعاصي قسمان، صغيرة وكبيرة.
- أنّ السيّئات في الآية هي الصغائر؛ لما فيها من دلالة المقابلة على ذلك.

ونظيرها في الدلالة قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾[٢] إذ إشفاقهم ممّا في الكتاب يدلّ على أنّ المراد

---

(١) النساء: ٣١.

(٢) الكهف: ٤٩.

بالصغيرة والكبيرة صغائر الذنوب وكبائرها.

والحاصل أنّ الآيات دالّـة علـى انقسـام المعاصـي إلـى الصـغائر والكبائر بحسب القياس الدائر بين المعاصي أنفسها، ولا ينافي ذلك أن يكون العصيان والتمرّد كيفما كان فهو كبير وعظيم بالنظر إلى ضـعف المخلوق المربوب في جنب الله عظم سلطانه، غير أنّ القياس في هذا الاعتبار إنّما هو بين الإنسان وربّه لا بين معصية ومعصية؛ فـلا منافـاة بين كون كلّ معصية كبيرة باعتبار، وبين كون بعض المعاصي صـغيرة باعتبار آخر.

ثمّ إنّ الآية المباركة حكمت أنّ اجتناب الكبـائر يكفّـر الصـغائر، والتكفير من «الكفر» وهو الستر، وقد شاع اسـتعماله فـي القـرآن فـي العفو عن السيّئات؛ لذا قالت الآية ﴿نكفّر عنكم سيّئاتكم﴾.

والسيّئة هي الحادثة أو العمل الذي يحمل المساءة، ولذلك:

• ربما يطلق لفظها على الأُمور والمصـائب التـي يسـوء الإنسـان وقوعها؛ قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾[(١)].

• وربما أطلق على نتائج المعاصـي وآثارهـا الخارجيـة الدنيويـة والأخروية كقولـه: ﴿فَأَصَـابَهُمْ سَـيِّئَاتُ مَـا عَمِلُـوا﴾[(٢)] وهـذا بحسـب الحقيقة يرجع إلى المعنى السابق.

---

(١) النساء: ٧٩.

(٢) الزمر: ٥١.

• وربما أطلق على المعصية نفسها كقوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾[١].

والسيّئة بمعنى المعصية:

• ربما أطلقت على مطلق المعاصي أعمّ من الصغائر والكبائر؛ كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[٢].

• وربما أطلقت على الصغائر خاصّة كقوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ إذ مع فرض اجتناب الكبائر لا تبقى للسيّئات إلاّ الصغائر.

ويترتّب على إثبات الكبائر والصغائر أمور تكليفية:

• منها، المخاطبة بتجنّب الكبيرة تجنّباً شديداً.

• ومنها، وجوب التوبة منها عند اقترافها.

• ومنها، أنّ ترك الكبائر يعتبر توبة من الصغائر.

• ومنها سلب العدالة عن مرتكب الكبائر.

وتترتّب عليها مسائل في المباحث الكلامية:

• منها، تكفير مرتكب الكبيرة عند طائفة من الخوارج التي تفرّق بين المعاصي الكبائر والصغائر.

---

(١) الشورى : ٤٠.

(٢) الجاثية: ٢١.

• ومنها، اعتبار مرتكب الكبيرة منزلة بين الكفر والإسلام عند المعتزلة، خلافاً لجمهور علماء الإسلام.

التمييز بين الكبائر والصغائر

وقع الكلام بين الأعلام في بيان ضابط التمييز بين الكبائر والصغائر.

• فمنهم من قال إنّ الكبيرة كلّ ما أوعد الله عليه في الآخرة عقاباً ووضع له في الدنيا حدّاً.

وفيه: إنّ الإصرار على الصغيرة كبيرة؛ لقول النبي صلىالله عليه وآله: «**لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار**» رواه الفريقان. مع عدم وضع حدّ فيه شرعاً، وكذا ولاية الكفّار وأكل الربا مع أنّهما من كبائر ما نهى عنه في القرآن.

• ومنهم من قال إنّها كلّ ما يشعر بالاستهانة بالدين وعدم الاكتراث به، قال به إمام الحرمين واستحسنه الرازي.

وفيه: إنّه عنوان الطغيان والاعتداء وهي إحدى الكبائر، وهناك ذنوب كبيرة موبقة وإن لم تُقترف بهذا العنوان، كأكل مال اليتيم وزنا المحارم وقتل النفس المؤمنة من غير حقّ.

• ومنهم من قال: إنّ الكبائر ما اشتملت عليه آيات سورة النساء من أوّل السورة إلى تمام ثلاثين آية، وكأنّ المراد أنّ قوله: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تُنهَون عنه ...﴾ إشارة إلى المعاصي المبيّنة في الآيات السابقة

عليه كقطيعة الرحم وأكل مال اليتيم والزنا ونحو ذلك. وفيه أنّه ينافي إطلاق الآية.

• ومنهم من قال – وينسب إلى ابن عبّاس– كلّ ما نهى الله عنه فهو كبيرة، ولعلّه لكون مخالفته تعالى أمراً عظيماً.

وفيه: أنّه قد تقدّم أنّ انقسام المعصية إلى الكبيرة والصغيرة إنّما هو بقياس بعضها إلى بعض، وهذا الذي ذكره مبنيّ على قياس حال الإنسان في مخالفته ـ وهو عبد ـ إلى الله سبحانه وتعالى ـ وهو ربّ كلّ شيء ـ .

وقد يميل إلى هذا القول بعضهم بتوهّم كون الإضافة في قوله تعالى: ﴿كبائر ما تنهون عنه﴾ بيانية.

لكنّه فاسد؛ لرجوع معنى الآية حينئذ إلى قولنا: إن تجتنبوا المعاصي جميعاً نكفّر عنكم سيّئاتكم. ولا سيّئة مع اجتناب المعاصي.

وإن أُريد تكفير سيّئات المؤمنين قبل نزول الآية اختصّت الآية بأشخاص من حضر عند النزول، وهو خلاف ظاهر الآية من العموم. ولو عمّت الآية عاد المعنى إلى: أنّكم إن عزمتم على اجتناب جميع المعاصي واجتنبتموها كفّرنا عنكم سيّئاتكم السابقة عليه، وهذا أمر نادر شاذّ المصداق أو عديمه لا يحمل عليه عموم الآية، لأنّ نوع الإنسان لا يخلو عن السيّئة واللمم إلاّ من عصمه الله سبحانه وتعالى بعصمته.

وهناك أقوال أُخر يمكن مراجعتها في المفصّلات[١].

ولعلّ الحقّ في ذلك أن يقال: إنّ كبر المعصية إنّما يتحقّق بأهمية النهي عنها، إذا قيس إلى النهي المتعلّق بغيرها، ولا يخلو قوله تعالى: ﴿ما تنهون عنه﴾ من إشعار أو دلالة على ذلك، والدليل على أهميّة النهي تشديد الخطاب بإصرار فيه أو تهديد بعذاب من النار ونحوه.

الكبائر في الروايات

• عن الحلبي عن الإمام الصادق عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً﴾ قال: «**الكبائر التي أوجب الله عزّ وجلّ عليها النار**»[٢].

• عن نعمان الرازي قال: سمعت الإمام الصادق عليه السلام يقول: **من زنى خرج من الإيمان، ومن شرب الخمر خرج من الإيمان، ومن أفطر يوماً من شهر رمضان متعمّداً خرج من الإيمان**»[٣].

• عن عبيد بن زرارة قال: سألت الإمام الصادق عليه السلام عن الكبائر فقال: **هنّ في كتاب علي عليه السلام سبع: الكفر بالله، وقتل النفس، وعقوق الوالدين، وأكل الربا بعد البيّنة، وأكل مال اليتيم ظلماً، والفرار من الزحف، والتعرّب بعد الهجرة.**

---

(١) ينظر **الميزان في تفسير القرآن**: ج٤ ص٣٢٦ ـ ٣٣٢.

(٢) **الأصول من الكافي**: ج٢ ص٢٧٦، كتاب الإيمان والكفر، باب الكبائر: الحديث: ١.

(٣) المصدر السابق: ج٢ ص٢٧٨، الحديث: ٥.

قال: فقلت: فهذا أكبر المعاصي؟ قال: نعم، قلت: فأكل درهم مال اليتيم ظلماً أكبر أم ترك الصلاة؟ قال: ترك الصلاة، قلت: فما عددت ترك الصلاة في الكبائر؟ فقال: **أي شيء أوّل ما قلت لك؟** قال قلت: الكفر، قال: **فإنّ تارك الصلاة كافر**»[١].

• عن عبد العظيم الحسني، عن أبي جعفر الجواد عن أبيه علي بن موسى الرضا عن موسى بن جعفر عليهم السلام قال: دخل عمرو بن عبيد البصري[٢] على أبي عبد الله جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام، فلمّا سلّم وجلس تلا هذه الآية: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾[٣] ثمّ أمسك، فقال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: ما أسكتك؟ قال: أُحبّ أن أعرف الكبائر من كتاب الله عزّ وجلّ، فقال: **نعم.**

• **أكبر الكبائر الإشراك بالله، يقول الله:** ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾[٤].

• **وبعده الإياس من روح الله، لأنّ الله عزّ وجلّ يقول:** ﴿إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الكَافِرُونَ﴾[٥].

---

(١) المصدر السابق: ج٢ ص٢٧٨، لحديث: ٨.

(٢) الظاهر أنّه عمرو بن عبيد المعتزلي المعروف.

(٣) النجم: ٣٢.

(٤) المائدة: ٧٢.

(٥) يوسف: ٨٧.

• ثمّ الأمن لمكر الله، لأنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾(١).

• ومنها عقوق الوالدين، لأنّ الله سبحانه جعل العاقّ جبّاراً شقيّاً في قوله: ﴿وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً﴾(٢).

• ومنها قتل النفس التي حرّم الله إلاّ بالحقّ، لأنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا﴾(٣).

• وقذف المحصنة، لأنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿إنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاَتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(٤).

• وأكل مال اليتيم، لأنّ الله عزّوجلّ يقول: ﴿إنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾(٥).

• والفرار من الزحف، لأنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾(٦).

---

(١) الأعراف: ٩٩.

(٢) مريم: ٣٢.

(٣) النساء: ٩٣.

(٤) النور: ٢٣.

(٥) النساء: ١٠.

(٦) الأنفال: ١٦.

• وأكل الربا، لأنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ الْمَسِّ﴾[(١)].

• والسحر، لأنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ﴾[(٢)].

• والزنا، لأنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً﴾[(٣)].

• واليمين الغموس الفاجرة، لأنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿الذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ﴾[(٤)].

• والغلول، لأنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[(٥)].

• ومنع الزكاة المفروضة لأنّ الله عزّوجلّ يقول: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ..﴾[(٦)].

• وشهادة الزور وكتمان الشهادة، لأنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَمَنْ

---

(١) البقرة: ٢٧٧.
(٢) البقرة: ١٠٢.
(٣) الفرقان: ٦٩.
(٤) آل عمران: ٧٧.
(٥) آل عمران: ١٦١.
(٦) التوبة: ٣٥.

يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾(١).

• وشرب الخمر، لأنّ الله عزّ وجلّ نهى عنها كما نهى عن عبادة الأوثان وترك الصلاة متعمّداً أو شيئاً ممّا فرض الله، لأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من ترك الصلاة متعمّداً فقد برئ من ذمّة الله وذمّة رسوله.

• ونقض العهد وقطيعة الرحم، لأنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾(٢).

قال: فخرج عمرو وله صراخ من بكائه وهو يقول: هلك من قال برأيه ونازعكم في الفضل والعلم»(٣).

ويظهر من الرواية الأخيرة أمران:

الأوّل: «إنّ الكبيرة من المعاصي ما اشتدّ النهي عنها إمّا بالإصرار والبلوغ في النهي أو بالإيعاد بالنار من الكتاب أو السنّة كما يظهر من موارد استدلاله عليه السلام.

ومنه يظهر معنى ما مرّ أنّ الكبيرة ما أوجب الله عليها النار، فالمراد بإيجابها أعمّ من التصريح والتلويح في كلام الله أو حديث النبي صلى الله عليه وآله.

---

(١) البقرة: ٢٨٣.

(٢) التوبة: ٢٦.

(٣) **الكافي**: ج٢، ص٢٨٥ باب الكبائر، ح٢٤.

الثاني: أنّ حصر المعاصي الكبيرة في بعض الروايات في سبع أو ثمان أو تسع، كما في بعض الروايات النبوية المرويّة عن الفريقين، أو في عشرين كما في هذه الرواية أو في سبعين كما في روايات أُخرى، كلّ ذلك باعتبار اختلاف مراتب الكبر في المعصية، كما يدلّ عليه في الروايات من قوله عند تعداد الكبائر: «**وأكبر الكبائر الشرك بالله**»[(١)].

الإصرار على الكبائر

عن عبد الله بن مسكان عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه: ما من عبد إلاّ وعليه أربعون جنّة حتّى يعمل أربعين كبيرة، فإذا عمل أربعين كبيرة انكشفت عنه الجنن، فيوحي الله إليهم أن استروا عبدي بأجنحتكم فتستره الملائكة بأجنحتها.

قال: فما يدع شيئاً من القبيح إلاّ قارفه حتّى يمتدح إلى الناس بفعله القبيح، فيقول الملائكة: يا ربّ هذا عبدك ما يدع شيئاً إلاّ ركبه، وإنّا لنستحيي ممّا يصنع، فيوحي الله عزّ وجلّ إليهم أن ارفعوا أجنحتكم عنه، فإذا فعل ذلك أخذ في بغضنا أهل البيت، فعند ذلك ينهتك ستره في السماء وستره في الأرض، فيقول الملائكة: يا ربّ هذا عبدك قد بقي مهتوك الستر، فيوحي الله عزّ وجلّ إليهم: لو كانت لله فيه حاجة ما أمركم أن ترفعوا أجنحتكم عنه»[(٢)].

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ج٤ ص٣٣٤.

(٢) المصدر السابق: ج٢ ص٢٨٩، الحديث: ٩.

قال المجلسي في ذيل هذا الحديث: «أربعون جُنّة، الجنّة بالضمّ الستر، والجمع جُنن بضمّ الجيم وفتح النون، يقال: استجنّ بجنّة أي استتر بسترة، ذكره الجوهري وغيره.

• وكأنّ المراد بالجنن ألطافه سبحانه التي تصير سبباً لترك المعاصي وامتناعه، فبكلّ كبيرة سواء كانت من نوع واحد أو أنواع مختلفة يستحقّ منع لطف من ألطافه أو رحماته تعالى وعفوه وغفرانه، فلا يفضحه الله بها، فإذا استحقّ غضب الله سُلبت عنه، لكن يرحمه سبحانه ويأمر الملائكة بستره، ولكن ليس سترهم كستر الله تعالى.

• أو المراد بالجنن ترك الكبائر، فإنّ تركها موجب لغفران الصغائر عند الله وسترها عن الناس، فإذا عمل بكبيرة لم يتحتّم على الله مغفرة صغائره، وشرع الناس في تجسّس عيوبه، وهكذا إلى أن يعمل جميع الكبائر وهي أربعون تقريباً، فيفتضح عند الله وعند الناس بكبائره وصغائره.

• أو أراد بالجنن الطاعات التي يوفّقه الله تعالى لفعلها بسبب ترك الكبائر، فكلّما أتى بكبيرة سُلب التوفيق لبعض الطاعات التي هي مكفّرة لذنوبه عند الله وساترة لعيوبه عند الناس، ويؤيّده ما ورد عن الصادق عليه السلام **أنّ الصلاة ستر وكفّارة لما بينها من الذنوب**.

فهذه ثلاثة وجوه خطر بالبال على سبيل الإمكان والاحتمال»[1].

---

(١) **مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول**: ج١٠ ص٢١.

وقال الفيض الكاشاني: «كأنّ الجنن كناية عن نتائج أخلاقه الحسنة وثمرات أعماله الصالحة التي تخلق منها الملائكة، وأجنحة الملائكة كناية عن معارفه الحقّة التي بها يرتقي في الدرجات، وذلك لأنّ العمل أسرع زوالاً من المعرفة. وإنّما يؤخذ في بغض أهل البيت لأنّهم الحائلون - بينه وبين الذنوب التي صارت محبوبة له ومعشوقة لنفسه الخبيثة - بمواعظهم ووصاياهم عليهم السلام»(١).

وكذلك عن مسعدة بن صدقة قال: سمعت الإمام الصادق عليه السلام يقول: **الكبائر : القنوط من رحمة الله واليأس من رَوح الله، والأمن من مكر الله، وقتل النفس التي حرّم الله، وعقوق الوالدين، وأكل مال اليتيم ظلماً، وأكل الربا بعد البيّنة ، والتعرّب بعد الهجرة، وقذف المحصنة، والفرار من الزحف.** فقيل له: أرأيت المرتكب لكبيرة يموت عليها، أتخرجه من الإيمان، وإن عُذّب بها فيكون عذابه كعذاب المشركين أو له انقطاع؟

قال: **يخرج من الإسلام إذا زعم أنّها حلال، ولذلك يعذّب أشدّ العذاب وإن كان معترفاً بأنّها كبيرة وهي عليه حرام وأنّه يعذّب عليها وأنّها غير حلال، فإنّه معذّب عليها وهو أهون عذاباً من الأوّل، ويخرجه من الإيمان ولا يخرجه من الإسلام**»(٢).

---

(١) نقلاً عن **الأصول من الكافي**: ج٢ ص٢٧٩، الحاشية رقم: ٢.

(٢) **الأصول من الكافي**: ج٢ ص٢٨٠، كتاب الكفر والإيمان، باب الكبائر، الحديث: ١٠.

الصغائر قد تكون كبائر

ذكرت الآيات والروايات مصاديق متعدّدة لبيان كيفية صيرورة الصغيرة كبيرة:

منها: الإصرار والمواظبة

عن عبد الله بن سنان عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: «**لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار**»(١).

أمّا أنّه لا كبيرة مع الاستغفار، فالمراد بالاستغفار التوبة والندم عليها والعزم على عدم العود إليها، ومع التوبة لا يبقى أثر الكبيرة ولا يعاقب عليها. وأمّا أنّه لا صغيرة مع الإصرار، فيدلّ على أنّ الإصرار على الصغيرة كبيرة كما ذهب إليه جماعة من علمائنا، وربما يجعل هذا مؤيّداً لما مرّ من أنّ المعاصي كلّها كبائر؛ بناءً على أنّ المراد بالإصرار الإقامة على الذنب بعدم التوبة والاستغفار كما يدلّ عليه قول الإمام الباقر عليه السلام في ذيل قوله: ﴿**ولم يصرّوا على ما فعلوا وهم يعلمون**﴾ قال: «**الإصرار هو أن يذنب الذنب فلا يستغفر الله ولا يحدّث نفسه بتوبة فذلك الإصرار**»(٢).

والسرّ فيه: أنّ الصغيرة لقلّة تأثيرها لا تؤثّر في القلب بإظلامه مرّة أو مرّتين، لكن إذا تكرّرت وتراكمت آثارها الضعيفة صارت قويّة وأثّرت

(١) المصدر نفسه، الحديث: ١٠.

(٢) **الأصول من الكافي**: ج٢ ص٢٨٨، كتاب الكفر والإيمان، باب الإصرار على الذنب، الحديث: ٢.

على التدريج في القلب، وذلك كما أنّ قطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثّر فيه، وذلك القدر من الماء لو صُبّ عليه دفعة لم يؤثّر، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**خير الأعمال أدومها وإن قلّ**» وإذا كان النافع هو الطاعة الدائمة وإن قلّت، فكذلك الضارّ هو السيّئة الدائمة وإن قلّت.

ومنها: استصغار الذنب

• قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: **إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله نزل بأرض قرعاء** (أي لا نبات فيها) **فقال لأصحابه: ائتوا بحطب، فقالوا: يا رسول الله نحن بأرض قرعاء ما بها من حطب، قال: فليأت كلّ إنسان بما قدر عليه، فجاءوا به حتّى رموا بين يديه بعضه على بعض. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: هكذا تجتمع الذنوب»**[(١)].

• وعن أبي أُسامة زيد الشحّام قال: قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: **اتّقوا المحقّرات من الذنوب فإنّها لا تغفر**، قلت: وما المحقّرات؟ قال: **الرجل يذنب الذنب فيقول: طوبى لي لو لم يكن لي غير ذلك»**[(٢)].

• وعن سماعة قال: سمعت أبا الحسن الكاظم عليه السلام يقول: **لا تستكثروا كثير الخير ولا تستقلّوا قليل الذنوب، فإنّ قليل الذنوب يجتمع حتّى يكون كثيراً، وخافوا الله في السرّ حتّى تعطوا من أنفسكم**

---

(١) **الأصول من الكافي**: ج٢ ص٢٨٨، كتاب الإيمان والكفر، باب استصغار الذنوب، الحديث: ٣.

(٢) المصدر السابق، الحديث: ١، ٢.

النصف»[٢].

ومنها: أن يكون الآتي بالصغيرة عالماً يقتدي به الناس

فإذا فعله بحضرة الناس أو بحيث اطّلعوا عليه كبُر ذنبه، وذلك كأخذه مال الشبهة ونحو ذلك، فإنّه ذنب يُقتدى العالم فيه ويُتّبع عليه، فيموت ويبقى شرّه مستطيراً في العالم، «فطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه». وفي الخبر: «من سنّ سنّة سيّئة **فعليه وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيء**». قال الله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾[١]. والآثار ما يلحق الأعمال بعد انقضاء العمل، فعلى التائب وظيفتان، إحداهما: ترك الذنب، والأخرى: إخفاؤه، وكما تتضاعف أوزار العالم على السيّئات إذا اتّبِع فيها، فكذلك يتضاعف ثوابه على الحسنات إذا اتّبِع»[٢].

علاج الإصرار على الذنوب

العلاج لحلّ عقدة الإصرار على الذنوب أن يتذكّر ما ورد في فضلها كما عرفت ويتذكّر قبح الذنوب وشدّة العقوبة عليها، وما ورد في الكتاب والسنّة من ذمّ المذنبين والعاصين، ويتأمّل في حكايات الأنبياء وأكابر العبّاد وما جرى عليهم من المصائب الدنيوية بسبب

(١) يس: ١٢.

(٢) **جامع السعادات**، للشيخ الجليل أحد أعلام المجتهدين المولى محمّد مهدي النراقي: ج٣ ص٧٨، منشورات مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ـ لبنان، الطبعة الرابعة، منشورات دار النعمان.

تركهم الأَولى وارتكابهم بعض صغائر المعاصي، وأن يعلم أنّ كلّ ما يصيب العبد في الدنيا من العقوبة والمصائب فهو بسبب معصيته، كما دلّ عليه الأخبار الكثيرة، ويتذكّر ما ورد في العقوبات على آحاد الذنوب كالخمر والزنا والسرقة والقتل والكبر والحسد والكذب والغيبة وأخذ المال الحرام... وغير ذلك من آحاد المعاصي ممّا لا يمكن حصره.

• عن هشام بن سالم عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**أما إنّه ليس من عرق يضرب ولا نكبة ولا صداع ولا مرض إلاّ بذنب، وذلك قول الله عزّوجلّ في كتابه: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾**[١] ثمّ قال: وما يعفو الله أكثر ممّا يؤاخذ به»[٢].

• وعن أبي أُسامة عن الإمام الصادق عليه السلام قال: سمعته يقول: **تعوّذوا بالله من سطوات الله بالليل** (السطوات: الشدائد) **والنهار**. قال: قلت له: وما سطوات الله؟ قال: **الأخذ على المعاصي**»[٣].

• وعن مسمع بن عبد الملك عن الإمام الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **إنّ العبد ليحبس على ذنب من ذنوبه مائة عام وإنّه لينظر إلى أزواجه في الجنّة يتنعّمن**»[٤].

(١) الشورى: ٣٠.
(٢) **الأصول من الكافي**: ج٢ص٢٦٩، كتاب الإيمان والكفر، باب الذنوب، الحديث:٣.
(٣) المصدر السابق: الحديث: ٦.
(٤) المصدر السابق: ج٢ ص٢٧٢، الحديث: ١٩.

• وعن أبي عمرو المدائني عن الإمام الصادق عليه السلام قال: سمعته يقول: كان أبي عليه السلام يقول: **إنّ الله قضى قضاءً حتماً ألاّ ينعم على العبد بنعمة فيسلبها إيّاه حتّى يحدث العبد ذنباً يستحقّ بذلك النقمة**»[١].

• عن العباس بن هلال الشامي قال: سمعت الإمام الرضا عليه السلام يقول: **كلّما أحدث العباد من الذنوب ما لم يكونوا يعملون، أحدث الله لهم من البلاء ما لم يكونوا يعرفون**»[٢].

الاستدراج في الذنوب

من السنن التي أشار إليها القرآن الكريم بالنسبة إلى الأُمم والأفراد الذين خرجوا عن صراط العبودية لله تعالى، هي سنّة الاستدراج والإملاء؛ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[٣].

قال الراغب الإصفهاني: «سنستدرجهم معناه نأخذهم درجة فدرجة وذلك إدناؤهم من الشيء شيئاً فشيئاً، كالمراقي والمنازل في ارتقائها ونزولها»[٤] فيكون المراد هنا «الاستدناء من الهلاك. وتقييد الاستدراج بكونه من حيث لا يعلمون، للدلالة على أنّ هذا التقريب

(١) الأصول من الكافي: ج٢ ص٢٧٣، الحديث: ٢٢.
(٢) المصدر السابق: ج٢ ص٢٧٥، الحديث: ٢٩.
(٣) الأعراف: ١٨٢.
(٤) **المفردات في غريب القرآن**: ص١٦٧، مادّة : « ج ».

خفيّ غير ظاهر عليهم، بل مستبطن فيما يتلهّون فيه من مظاهر الحياة المادّية، فلا يزالون يقتربون من الهلاك باشتداد مظالمهم، فهو تجديد نعمة بعد نعمة حتّى ليصرفهم التلذّذ بها عن التأمّل في وبال أمرها»[١].

• عن سفيان بن السمط قال: قال الإمام الصادق عليه السلام: «**إنّ الله إذا أراد بعبد خيراً فأذنب ذنباً أتبعه بنقمة ويذكّره بالاستغفار، وإذا أراد بعبد شرّاً فأذنب ذنباً أتبعه بنعمة لينسيه الاستغفار ويتمادى بها، وهو قول الله عزّ وجلّ:** ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ بالنعم عند المعاصي»[٢].

• عن ابن رئاب عن بعض أصحابه قال: سئل الإمام الصادق عليه السلام عن الاستدراج، فقال: **هو العبد يذنب الذنب فيملي له** (الإملاء: الإمهال) **ويجدّد له عندها النعم فتلهيه عن الاستغفار من الذنوب، فهو مستدرج من حيث لا يعلم**»[٣].

لذا قال تعالى: ﴿فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾[٤] «حيث نهى الله سبحانه نبيّه صلى الله عليه وآله عن الإعجاب بأموال المنافقين

---

(١) **الميزان في تفسير القرآن**: ج٨ ص٣٤٦.

(٢) **الأُصول من الكافي**: ج٢ ص٤٥٢، كتاب الإيمان والكفر، باب الاستدراج، الحديث: ١.

(٣) المصدر السابق: الحديث: ٢.

(٤) التوبة: ٥٥.

وأولادهم أي بكثرتها على ما يعطيه السياق، وعلّل ذلك بأنّ هذه الأموال والأولاد وهي شاغلة للإنسان لا محالة، ليست من النعمة التي تهتف لهم بالسعادة، بل هي من النقمة التي تجرّهم إلى الشقاء، فإنّ الله وهو الذي خوّلهم إيّاها، إنّما أراد بها تعذيبهم في الحياة الدنيا.

فإنّ الحياة التي يعدّها الموجود الحيّ سعادة لنفسه وراحة لذاته إنّما تكون سعادة فيها الراحة والبهجة إذا جرت على حقيقة مجراها، وهو أن يتلبّس الإنسان بواقع آثارها من العلم النافع والعمل الصالح من غير أن يشتغل بغير ما فيه خيره ونفعه، فهذه هي الحياة التي لا موت فيها والراحة التي لا تعب معها واللذّة التي لا ألم دونها، وهي الحياة في ولاية الله؛ قال تعالى: ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(١).

وأمّا من اشتغل بالدنيا وجذبته زينتها من مال وبنين إلى نفسها، وغرّته الآمال والأماني الكاذبة التي تتراءى له منها واستهوته الشياطين، فقد وقع في تناقضات القوى البدنية وتزاحمات اللذائذ المادّية، وعُذّب أشدّ العذاب بنفس ما يرى فيه سعادته ولذّته.

فمن المشاهد المعاين أنّ الدنيا كلّما زادت إقبالاً على الإنسان ومتّعته بكثرة الأموال والأولاد، أبعدته عن موقف العبودية وقرّبته إلى الهلاك وعذاب الروح، فلا يزال يتقلّب بين هذه الأسباب الموافقة والمخالفة والأوضاع والأحوال الملائمة والمزاحمة، فالذي يسمّيه

---

(١) يونس: ٦٢.

هؤلاء الغافلون سعة العيش هو بالحقيقة ضنك وضيق، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾[1].

فغاية إعراض الإنسان عن ذكر ربّه وانكبابه على الدنيا، يبتغي به سعادة الحياة وراحة النفس ولذّة الروح، أن يعذَّب بين أطباق هذه الفتن التي يراها نعماً، ويكفر بربّه بالخروج عن زيّ العبودية»[2] كما قالت الآية ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.

وهذا هو الإملاء والاستدراج اللذان ذكرهما الله تعالى في قوله: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾[3].

---

(١) طه: ١٢٤ ـ ١٢٦.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ج٩ ص٣٠٨.

(٣) الأعراف: ١٨٢ ـ ١٨٣.

أقسام التائبين

ينقسم حال التائب إلى أقسام:

القسم الأوّل: أن يتوب عن المعاصي كلّها ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره، فيتدارك ما فرّط ولا يعود إلى ذنوبه، ولا يصدر عنه معصية إلاّ الزلاّت التي لا يخلو عنها غير المعصومين، وهذه هي التوبة النصوح، كما عرفت؛ عن أبي بصير قال: قلت: للإمام الصادق عليه السلام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً﴾ قال: **هو الذنب الذي لا يعود فيه أبداً**»[1] واسم هذه النفس الساكنة النفس المطمئنة التي ترجع إلى ربّها راضية مرضية.

القسم الثاني: أن يتوب عن كبائر المعاصي والفواحش ويستقيم على أُمّهات الطاعات، إلاّ أنّه ليس ينفكّ عن ذنوب تعتريه لا عن عمد وتجريد قصد، ولكن يبتلي بها في مجاري أحواله من غير أن يقدم عزماً على الإقدام عليها، ولكنّه كلّما أقدم عليها لام نفسه وندم وتأسّف وجدّد عزمه على أن يتشمّر للاحتراز عن أسبابها التي تعرّضه لها.

وهذه النفس جديرة بأن تكون هي النفس اللوّامة، إذ تلوم صاحبها على ما يستهدف له من الأحوال الذميمة لا عن تصميم عزم وتخمين

---

(١) **الأصول من الكافي**: ج٢ ص٤٣٢، كتاب الإيمان والكفر، باب التوبة، الحديث: ٤.

رأي وقصد.

وهذه أيضاً رتبة عالية وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى وهي أغلب أحوال التائبين، لأنّ الشرّ معجون بطينة الآدمي قلّما ينفكّ عنه، وإنّما غاية سعيه أن يغلب خيره شرّه حتّى يثقل ميزانه فترجّح كفّة الخيرات، فإمّا أن تخلو بالكلّية كفّة السيّئات فذلك في غاية البُعد؛ قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إلاَّ اللَّمَمَ إنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾[١] واللمم كما أشارت الروايات هو المعصية حيناً بعد حين من غير عادة، أي المعصية على سبيل الاتّفاق، فيكون أعمّ من الصغيرة والكبيرة وينطبق مضمون الآية على معنى قوله تعالى في وصف المتّقين المحسنين: ﴿وَجَنَّة عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنْ النَّاس وَاللهُ يُحِبُّ المُحسِنِينَ * وَالَّذِينَ إذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[٢].

● عن محمّد بن مسلم عن الإمام الصادق عليه السلام قال: قلت له: أرأيت قول الله عزّوجلّ: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إلاَّ اللَّمَمَ﴾ قال: **هو الذنب يلمّ به الرجل فيمكث ما شاء الله ثمّ يلمُّ به بعد»**[٣].

---

(١) النجم: ٣٢.

(٢) آل عمران: ١٣٣ ـ ١٣٥.

(٣) **الأصول من الكافي**: ج٢ ص٤٤١، كتاب الإيمان والكفر، باب اللمم، الحديث: ١.

• عن إسحاق بن عمّار عن الإمام الصادق عليه السلام قال: **ما من ذنب إلاّ وقد طبع عليه عبد مؤمن يهجره زماناً ثمّ يلمّ به وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ﴾** قال: اللمّام العبد الذي يلمّ الذنب بعد الذنب ليس من سليقته (أي من طبيعته)»[١].

بهذا يتّضح أنّ هذا القدر من الذنب لا ينقض التوبة ولا يلحق صاحبها بدرجة المصرّين، ولا ينبغي أن ييأس هؤلاء من رحمة الله، قال النبي صلى الله عليه وآله: «**كلّ بني آدم خطّاء وخير الخطّائين التوّابون المستغفرون**»[٢]. وعن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً﴾ قال: **هو الذنب الذي لا يعود فيه أبداً**، قلت: وأيّنا لم يعد؟ فقال: **يا أبا محمّد إنّ الله يحبّ من عباده المفتّن التوّاب**»[٣] قال في النهاية: «المفتّن: الممتحن يمتحنه الله بالذنب ثمّ يتوب ثمّ يعود ثمّ يتوب».

القسم الثالث: أن يتوب ويستمرّ على الاستقامة مدّة ثمّ تغلبه شهوته في بعض الذنوب، فيقدم عليها عامداً قاصداً؛ لعجزه عن قهر الشهوة، إلاّ أنّه مع ذلك مواظب على الطاعات وتارك جملة من الذنوب مع القدرة والشهوة، وإنّما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوتان، وهو يودّ لو أقدره الله على قمعها وكفاه شرّها، وعند الفراغ

(١) **الأصول من الكافي**: ج٢ ص٤٤٢، الحديث: ٥.

(٢) أخرجه ابن ماجه برقم ٤٢٥١، والحاكم النيسابوري: ٢٤٤/٤ في **المستدرك** وصحّح إسناده، وأخرجه أحمد من حديث أنس كما في الفتح الربّاني: ج١٩ ص٣٣٧.

(٣) **الأُصول من الكافي**: ج٢ ص٤٣٢، الحديث: ٤.

يتندّم ويقول: ليتني لم أفعله وسأتوب عنه وأُجاهد نفسي في قهرها، لكنّه تسوّل نفسه ويسوّف توبته مرّة بعد أُخرى ويوماً بعد يوم.

فهذه النفس هي التي تسمّى النفس المسوّلة، وإليها الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[(١)] فأمره من حيث مواظبته على الطاعات وكراهيته لما يتعاطاه مرجوّ، فعسى الله أن يتوب عليه، وعاقبته مخطرة من حيث تسويفه وتأخيره، فربما يختطف قبل التوبة ويقع أمره في المشيّة، فإن تداركه الله بفضله وجبر كسره وامتنّ عليه بالتوبة التحق بالسابقين، وإن غلبته شقوته وقهرته شهوته فيخشى أن يحقّ عليه في الخاتمة ويسلك في سلك الأشقياء.

القسم الرابع: أن يتوب ويجري مدّة على الاستقامة ثمّ يعود إلى مقارفة الذنب أو الذنوب من غير أن يحدّث نفسه بالتوبة ومن غير أن يتأسّف على فعله، بل ينهمك انهماك الغافل في اتّباع الشهوات، فهذا من جملة المصرّين، وهذه النفس هي النفس الأمّارة بالسوء الفرّارة من الخير، ويخاف على هذا سوء الخاتمة وأمره في مشيّة الله، فإن ختم له بالسوء شقي شقاوة لا آخر لها، وإن ختم له بالحسنى حتّى مات على التوحيد فينتظر له الخلاص من النار ولو بعد حين[(٢)].

---

(١) التوبة: ١٠٢.

(٢) ينظر بحث أقسام التائبين، **إحياء علوم الدين**، تصنيف: الإمام أبي حامد محمّد بن محمّد الغزالي: ج٤ ص٤٣، دار المعرفة، بيروت ـ لبنان.

مراتب التوبة والتائبين

لكي تتّضح مراتب التوبة والتائبين، لابدّ من معرفة أنّ الذنب التي تجب عنه التوبة، هل له درجة واحدة أم درجات متعدّدة؟ فإذا ثبت أنّ للذنب مراتب ودرجات، فإنّ التوبة المترتّبة عليها سوف تكون كذلك.

المرتبة الأُولى: الذي يفيده الاعتبار الصحيح هو أنّ أوّل ما يتعلّق به ويحترمه المجتمع الإنساني هي الأحكام العملية والسنن التي تحفظ بالعمل بها والمداومة عليها مقاصده الإنسانية، وتهديه إلى سعادته في الحياة، ثمّ تضع أحكاماً جزائية يجازى على طبقها المتخلّف العاصي عن القوانين الاجتماعية ويثاب المطيع الممتثل.

وفي هذه المرتبة لا يسمّى باسم الذنب إلاّ التخلّف عن القوانين العملية، وتحاذي الذنوب ـ لا محالة ـ في عددها عدد مواد الأحكام الاجتماعية. وهذا هو المعروف والمركوز في أذهاننا معاشر المسلمين أيضاً من معنى الذنب والألفاظ التي تقارنه في المعنى كالسيّئة والمعصية والإثم والخطيئة والحوب والفسق ونحوها.

وبكلمة واضحة: إنّ المرتبة الأولى من مراتب الذنب، هو الذنب المتعلّق بالأمر والنهي المولويين، وهو المخالفة لحكم شرعي فرعي أو

أصلي، وإن عمّمت التعبير قلت: مخالفة مادّة من المواد القانونية دينية كانت أو غير دينية.

ولا شكّ أنّ التوبة التي تترتّب على هذه المرتبة من الذنب، إنّما هي بالرجوع عن المعصية، والندامة على ما مضى والعزم على عدم الإتيان فيما سيأتي ـ كما عرفنا.

المرتبة الثانية: أنّ الأحكام العملية إذا عمل بها وروقبت وتحفّظ عليها، ساقت المجتمع إلى أخلاق وأوصاف مناسبة لها ملائمة لمقاصد المجتمع التي هي غاية اجتماعهم، وهذه الأخلاق هي التي يسمّيها المجتمع بالفضائل الإنسانية ويحرص ويحرّض عليها وتقابلها الرذائل. وهي وإن كانت مختلفة باختلاف السنن والمقاصد في المجتمعات، إلاّ أنّ أصل إنتاج الأحكام الاجتماعية لها ممّا لا سبيل إلى إنكاره.

وهذه الأخلاق الفاضلة وإن كانت أوصافاً روحية لا ضامن لإجرائها في مقام العمل في المجتمعات، وكانت غير اختيارية بلا واسطة، لكونها ملكات، لكنّها لكونها في تحقّقها تتبع تكرّر العمل بالأحكام والقوانين المقرّرة في المجتمع، أو تكرّر التخلّف عن العمل، كانت نفس العمل بالأحكام ضامنة لإجرائها، وتعدّ اختيارية باختيارية مقدّمتها وهي تكرّر العمل، وتتصوّر في مواردها أوامر عقلية متعلّقة بالأخلاق الفاضلة كالشجاعة والعفّة والعدالة، ونواه عقلية تردع عن الأخلاق الرذيلة كالجبن والتهوّر والخمود والظلم، وكذا يتصوّر لها

عقاب وثواب يسمّيان بالعقاب والثواب العقليين كالمدح والذمّ.

وبالجملة تتحقّق بذلك مرتبة من مراتب الذنب فوق المرتبة السابقة، وهي مرتبة التخلّف عن الأحكام الخلقية والأوامر العقلية المتعلّقة بها.

ومن الواضح أنّ التوبة التي تترتّب على هذه المرتبة من الذنب، إنّما هي بالتحلّي بالأخلاق الفاضلة والتخلّي والرجوع عن الأخلاق الرذيلة.

المرتبة الثالثة: الأحكام الناشئة في ظرفي الحبّ والبغض، فترى عينُ البغض ـ وخاصّة في حال الغضب ـ عامّة الأعمال الحسنة سيّئة مذمومة، ويرى المحبّ إذا تاه في الغرام واستغرق في الوله أدنى غفلة قلبية عن محبوبه ذنباً عظيماً وإن اهتمّ بعمل الجوارح بتمام أركانه، وليس إلاّ أنّه يرى أنّ قيمة أعماله في سبيل الحبّ على قدر توجّه نفسه وانجذاب قلبه إلى محبوبه، فإذا انقطع عنه بغفلة قلبية فقد أعرض عن المحبوب وانقطع عن ذكره وأبطل طهارة قلبه بذلك.

حتّى أنّ الاشتغال بضروريات الحياة من أكل وشرب ونحوهما يعدّ عنده من الجرم والعصيان، نظراً إلى أنّ أصل الفعل وإن كان من الضروري الذي يضطرّ إليه الإنسان، لكن كلّ واحد من هذه الأفعال الاضطرارية من حيث أصله اختياريٍ في نفسه، والاشتغال به اشتغال بغير المحبوب وإعراض عنه اختياراً وهو الذنب؛ ولذلك نرى أهل الوله والغرام وكذا المحزون والكئيب ومن في عداد هؤلاء يستنكفون

عن الاشتغال بأكل أو شرب أو نحوهما.

وهذه المرتبة من الذنب وإن كان لا يعدّه الفهم العرفي من مراتب الذنب، إلاّ أنّه مخطئ في ذلك لا لجور منهم في الحكم والقضاء بل لقصور فهمهم عن تعقّله وتبيّن معناه والوقوف على أحكامه واستحقاقاته.

بناءً على ما تقدّم فربّ مباح أو مستحبّ أو مكروه بالنسبة إلى من هم في المرتبة الأولى والثانية، هو واجب أو محرّم بالنسبة إلى من هو في المرتبة الثالثة، فحسنات الأبرار سيّئات المقرّبين، وذلك كلّه لما أن ميّز مرتبتهم وأساسها المحبّة الإلهية دون محبّة النفس.

ولئن شئت أن تعقل شيئاً من ذلك إجمالاً، فعليك بالتأمّل التامّ في أطوار العلاقة بين الناس، فللمعاشرة أحكام وللصداقة أحكام وللخلّة أحكام ولكلّ من المحبّة والعشق والوجد والوله وما يسمّى فناء أحكام أُخر، وكلّ حكم مختصّ بمرتبة نفسه لا يتعدّاها إلى غيرها أبداً.

وهذا معناه أنّ الحبّ والوله والتيم ربما يدلّ الإنسان المحبّ على أُمور لا يستصوبه العقل الاجتماعي الذي هو ملاك الأخلاق الاجتماعية، أو الفهم العادي الذي هو أساس التكاليف العامّة الدينية، فللعقل أحكام وللحبّ أحكام.

توبة الأنبياء واستغفارهم

ممّا تقدّم في البحث السابق تبيّن أنّ من الذنب ما هو غير الذنب المتعارف، وكذا من المغفرة ما هي غير المغفرة بمعناها المتعارف، وعلى هذا ينبغي أن يحمل ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾[1] وقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾[2] وكذلك ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «**كان رسول الله صلى الله عليه وآله يستغفر الله عزّ وجلّ في كلّ يوم سبعين مرّة ويتوب إلى الله عزّ وجلّ سبعين مرّة**»[3].

وعليه يُحمل ما حكى الله تعالى عن عدّة من أنبيائه الكرام كقول نوح: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً﴾[4] وقول إبراهيم: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾[5]

---

(١) المؤمن: ٥٥.

(٢) النصر: ٣.

(٣) **الأصول من الكافي**: ج٢ ص٥٠٥، كتاب الدعاء، باب الاستغفار الحديث: ٥.

(٤) نوح: ٢٨.

(٥) إبراهيم: ٤١.

وقول موسى لنفسه وأخيه: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾[(١)].

وهكذا يحمل على هذا الباب ما حكي عن بعضهم عليهم السلام من الاعتراف بالظلم ونحوه كقول ذي النون: ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ﴾[(٢)].

قال الإربلي في «كشف الغمّة» وغيرُه في غيره: «إنّ الأنبياء لمّا كانت قلوبهم مستغرقة بذكر الله ومتعلّقة بجلال الله ومتوجّهة إلى كمال الله، وكانت أتمّ القلوب صفاءً وأكثرها ضياءً وأغرقها عرفاناً وأعرفها إذعاناً وأكملها إيقاناً، كانوا إذا انحطّوا عن تلك المرتبة العلية ونزلوا عن تلك الدرجة الرفيعة إلى الاشتغال بالمأكل والمشرب والتناكح والصحبة مع بني نوعهم وغير ذلك من المباحات، أسرعت كدورة إليها؛ لكمال رقّتها وفرط نورانيتها، فإنّ الشيء كلّما كان أرقّ وأنضر كان تأثّره بالكدورات أبين وأظهر، فعدّوا ذلك ذنباً وخطيئة، فتابوا واستغفروا، وإليه الإشارة في قوله صلى الله عليه وآله: «**إنّه ليران** (من الرين) **على قلبي فأستغفر الله سبعين مرّة**»[(٣)].

والقرينة على حمل هذه الآيات والروايات على المرتبة الثالثة من الذنب، هو أنّ الأنبياء عليهم السلام بعد أن ثبتت عصمتهم بأدلّة قرآنية

(١) الأعراف: ١٥١.

(٢) الأنبياء: ٨٧.

(٣) نقلاً عن **مرآة العقول**، للمجلسي: ج١١ ص٣٠٨.

واضحة وقاطعة[١] لا يتأتّى أن تصدر عنهم المعصية ويقترفوا الذنب بمعنى مخالفة مادّة من المواد الدينية التي هم المرسلون للدعوة إليها والقائمون قولاً وفعلاً بالتبليغ لها، والمفترض طاعتهم من عند الله، ولا معنى لافتراض طاعة من لا يؤمن وقوع المعصية منه.

وهذا ما أكّدته الآيات القرآنية بطرق مختلفة، منها أنّ الله سبحانه «كرّر في كلامه أنّ له عباداً يسمّيهم المخلصين، مصونين عن المعصية لا مطمع فيهم للشيطان، فلا ذنب بالمعنى المعروف لهم ولا حاجة إلى المغفرة المتعلّقة بذلك الذنب. وقد نصّ في حقّ عدّة من أنبيائه كإبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى أنّهم مخلصون كقوله في إبراهيم وإسحاق ويعقوب: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾[٢] وقوله في يوسف: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾[٣] وقوله في موسى: ﴿إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً﴾[٤] وقد حكى عنهم سؤال المغفرة كقول إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾. وقول موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾. ولو كانت المغفرة لا تتعلّق إلاّ بالذنب بالمعنى المعروف لم يستقم ذلك.

(١) ينظر **عصمة الأنبياء في القرآن**، محاضرات السيّد كمال الحيدري، بقلم: محمود نعمة الجياشي.

(٢) ص: ٤٦.

(٣) يوسف : ٢٤.

(٤) مريم: ٥١.

على أنّ في دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾(١) دعاء لكافّة المؤمنين ـ وفيهم المخلصون ـ بالمغفرة، وكذا في دعاء نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾(٢) شمول بإطلاقه للمخلصين، ولا معنى لطلب المغفرة على من لا ذنب له يحتاج إلى المغفرة.

تلخيص

فهذا كلّه ينبّهنا على أنّ من الذنب المتعلّق به المغفرة ما هو غير الذنب بالمعنى المتعارف، وكذا من المغفرة ما هي غير المغفرة بمعناها المتعارف. وقد حكى الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام قوله: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾(٣) ولعلّ هذا هو السبب فيما نشاهد أنّه تعالى في موارد من كلامه إذا ذكر الرحمة أو الرحمة الأخروية التي هي الجنّة، قدّم عليه ذكر المغفرة كقوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ﴾(٤) وقوله: ﴿وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾(٥) وقوله حكاية عن آدم وزوجته: ﴿وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا﴾(٦) وقوله عن نوح عليه السلام:

---

(١) إبراهيم: ٤١.
(٢) نوح: ٢٨.
(٣) الشعراء: ٨٢.
(٤) المؤمنون: ١١٨.
(٥) البقرة: ٢٨٦.
(٦) الأعراف: ٢٣.

﴿وَإلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي﴾[١].

فتحصّل من البيان السابق أنّ للذنب مراتب مختلفة مترتبة طولاً، كما أنّ للمغفرة مراتب بحذائها تتعلّق كلّ مرتبة من المغفرة بما يحاذيها من الذنب، وليس من اللازم أن يكون كلّ ذنب وخطيئة متعلّقاً بأمر أو نهي مولوي، فيعرفه ويتبيّنه الأفهام العاميّة الساذجة، ولا أن يكون كلّ مغفرة متعلّقة بهذا النوع من الذنب»[٢].

(١) هود: ٤٧.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ج٦ ص٣٧٥.

مفهوم

الشفاعة في القرآن

بقلم

الشيخ محمد جواد الزبيدي

المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على محمّد وآله الطيبين الطاهرين.

يُعدّ بحث «الشفاعة» من البحوث المهمّة في الفكر الإسلامي، فمع كونها من الحقائق القرآنية الواضحة والتي وردت بخصوصها العشرات بل المئات من الروايات الشريفة، إلاّ أنّها بقيت تعاني وعلى مدى تاريخ البحث الفكري من إشكالات وتساؤلات العديد من الباحثين سواء في تحديد مفهومها وحقيقتها أو في وقوعها وتحققها خارجاً، فهناك من ينفي وقوع الشفاعة أصلاً، ويعتقد بأنّ فكرتها مستوحاة من حالة نعيشها في حياتنا الاجتماعية في هذه الدنيا حيث إنّ علاقات القرابة والصداقة مع زعيم عشيرة كبير أو تاجر ذي ثروة عظيمة أو وجيه ذي نفوذ وأمثال هؤلاء، أو أنّ المنافع والمصالح المتبادلة بين الجماعات قد تؤدّي ظلماً وبدون حقّ إلى رفع استحقاق العقوبة عن المذنب أو زيادة درجات التكريم والتقدير لمن لا يستحقّها وما شابه،

ومن الواضح أنّ الشفاعة إذا كانت بهذا المعنى وتنطوي على هذه الحقيقة فإنّها لا يمكن أن تقع وأن تصدر من الله سبحانه وتعالى ولا من أي أحد بإذنه جلّ وعلا.

وهناك من ينفي حصول الشفاعة باعتبارها تؤدّي إلى تجرّي الإنسان على المعصية ما دام يرى أنّ نتيجة الشفاعة هي أن يتساوى المذنب والعاصي في النهاية، وبذلك ينتفي الغرض من إنزال الأديان وتشريع الشرائع السماوية ولا يمكن أن يصدر عن العليم الحكيم عزّ وجلّ ما يؤدّي إلى نقض غرضه.

وهناك من ينفي حصول الشفاعة من غير الله سبحانه وتعالى وإن كانت بإذنه تعالى؛ باعتبار أنّ هذا الاعتقاد هو نحو من أنحاء الشرك.

وهناك من يحصر حصولها من الشفيع بإذن الله إذا كان على قيد الحياة، فلو استشفع الإنسان بالنبي بعد موته صلى الله عليه وآله، فإنّ هذا من الشرك المنهيّ عنه. إلى غير هذه من الإشكالات....

وقد قام أُستاذنا آية الله السيّد كمال الحيدري حفظه الله بإلقاء محاضرات عدّة لبيان معنى الشفاعة وحقيقتها وأقسامها، وردّ العديد من الإشكالات المثارة عليها، كلّ ذلك من خلال ما عرف عنه من متانة الطرح ووضوحه واستيعابه، وشملنا حفظه الله بلطفه حيث اطّلع على ما كتبناه، تقريراً لأبحاثه تلك، وأبدى ملاحظاته القيّمة عليها، ثمّ أجاز طبعه ونشره تعميماً للفائدة، فجزاه الله خير جزاء المحسنين.

هذا، وقد قمنا بتقسيم البحث بصورة عامّة إلى ثلاثة فصول هي:

الفصل الأوّل: في معنى الشفاعة وأقسامها، وأقسام الشفعاء ومن هم المشفوع لهم....

الفصل الثاني: في أهمّ الإشكالات المثارة على الشفاعة وردّها.

الفصل الثالث: بحث روائي في الشفاعة.

آملين أن نكون قد أسدينا خدمة متواضعة لديننا الحنيف ولمذهب أهل بيت العصمة عليهم السلام راجين المولى تبارك وتعالى القبول بكرمه ومنّه ولطفه، ومن سائر المؤمنين صالح الدعاء، والحمد لله ربّ العالمين.

محمّد جواد الزبيدي

٥ / جمادى الأولى / ١٤٢٥ هـ.

الفصل الأوّل

معنى الشفاعة

وبعض البحوث المتعلّقة بها

البحث الأوّل

معنى الشفاعة وأقسامها

ونتعرّض في هذا البحث إلى تعريف الشفاعة لغة واصطلاحاً وبيان أقسامها:

١ - الشفاعة لغة

قال الراغب في مفرداته: الشفْع ضمّ الشيء إلى مثله، ويقال للمشفوع: شَفْع، والشفاعة: الانضمام إلى آخر ناصراً له وسائلاً عنه، وأكثر ما يستعمل في انضمام من هو أعلى حرمة ومرتبة إلى من هو أدنى[١].

وفي لسان العرب: الشفع خلاف الوتر، وهو الزوج؛ تقول: كان وتراً فشفعته شفعاً - أي صيّرته زوجاً - . والشفيع: الشافع والجمع شفعاء[٢].

---

(١) **مفردات الراغب**: مادّة شفع، ص٢٧٠.

(٢) **لسان العرب**: مادّة ش ف ع، ج٨، ص١٨٤.

ومن هنا عُرّفت الشفاعة في كلمات القوم بأنّها «من الشفع مقابل الوتر؛ كأنّ الشفيع ينضمّ إلى الوسيلة الناقصة التي مع المستشفع فيصير به زوجاً بعد ما كان فرداً فيقوى على نيل ما يريده، ولو لم يكن يناله وحده لنقص وسيلته وضعفها وقصورها»(١).

٢ ـ الشفاعة اصطلاحاً

ويمكننا في هذا المجال أن نبيّن معنيين للشفاعة:

أحدهما: المعنى العرفي لها وهو المعنى المتعارف والمستخدم في المجتمعات العرفية والعقلائية.

والآخر: هو المعنى الذي ورد في القرآن الكريم وروايات المعصومين عليهم السلام.

وهذان المصطلحان وإن اشتركا إلى حدّ ما في المعنى اللفظي إلاّ أنّه لا علاقة لأحدهما بالآخر، ومن خلال التمييز بينهما يمكن الإجابة على العديد من الإشكالات التي تثار على الشفاعة بصورة عامّة.

أوّلاً: الشفاعة العرفية

وتختصّ الشفاعة العرفية بالأمور التشريعية فقط ولا ترتبط بالأُمور التكوينية أصلاً.

---

(١) الميزان: ج١، ص١٥٧.

بيان ذلك: أنّ الإنسان إذا مرض لا يذهب إلى من يشفع له ليشفى من مرضه بل يذهب إلى الطبيب المختصّ ليعالج مرضه، وإذا عطش لا يذهب إلى من يتوسّل إليه لكي يرفع عطشه، بل يشرب الماء ليرتوي به، وهكذا في كلّ القضايا التي تتعلّق بحاجات الإنسان وشؤونه الوجودية.

فالشفاعة المتعارفة إذاً عند العرف والعقلاء ليست في المسائل التكوينية من الصحّة والمرض والفقر والغنى وغير ذلك بل هي في أمور أخرى حيث إنّ المتعارف عندهم أنّ المجتمعات البشرية قائمة على أساس التشريعات والتقنينات، وأنّ هناك مجموعة من الأوامر والنواهي الشرعية أو الوضعية موجودة في كلّ مجتمع من تلك المجتمعات.

ثمّ إنّ المقنّن، سواء كان الله سبحانه وتعالى أو غيره، قد جعل ثواباً لمن أطاع الأوامر وتجنّب النواهي وجعل عقاباً لمن خالف الأوامر وارتكب النواهي.

ثمّ إنّ هذا الجزاء، ثواباً كان أو عقاباً، وبلحاظ كونه جزاءً دنيوياً لا أُخروياً(١) هو جزاء اعتباري لا تكويني، ولا فرق في ذلك أيضاً بين القوانين الشرعية وغيرها، فالسارق والسارقة جزاؤهما في القوانين

---

(١) بخلاف الجزاء الأخروي فإنّه جزاء تكويني، ففي قوله تعالى مثلاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾ (النساء: ١٠) يكون جزاء أكل أَموال اليتامى في الآخرة تكوينياً لا اعتبارياً.

الشرعية هو قطع أيديهما ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾[(١)] وهذا الجزاء كما هو واضح، جزاء اعتباري لا تكويني، فقد ينفَّذ ويتحقّق وقد لا يتحقّق، ولو كان تكوينياً لما أمكن تخلّفه كما لا يمكن تخلّف احتراق يد الإنسان حينما يضعها في النار مثلاً، وهكذا.

من هنا، وباعتبار أنّ الجزاء الذي نتحدّث عنه جزاء اعتباريّ يمكن أن يترتّب على من يستحقّه وينفَّذ في حقّه، ويمكن أن لا يترتّب عليه ولا ينفَّذ في حقّه، يأتي دور الشفاعة المتعارفة لدى العقلاء، حيث يحاول المطيع أو المذنب أن يجد قريباً أو صديقاً أو وجيهاً ليشفعه في نفسه ويوسّطه فيما بينه وبين الحاكم أو من بيده الجزاء لكي يثيبه ويجازيه - مثلاً - فوق استحقاقه أو لكي يعمل على أن لا تترتّب عليه عقوبة وتبعة ارتكابه للنواهي أو مخالفته للأوامر السائدة في مجتمعه.

وقد أشار العلاّمة الطباطبائي إلى هذا الأمر بقوله قدّس سرّه: «إنّما نستشفع في الخيرات والشرور والمنافع والمضارّ التي تستدعيها أو تستتبعها أوضاع القوانين والأحكام التي وضعتها واعتبرتها وقرّرتها وأجرتها حكومة الاجتماع بنحو الخصوص أو العموم...

فإذا أراد - الإنسان- نيل ثواب من غير تهيئة أسبابه أو التخلّص من عقاب من غير إتيان التكليف المتوجّه إليه فذلك مورد الشفاعة وعنده تؤثّر..»[(٢)].

---

(١) المائدة: ٣٨.

(٢) **الميزان**: للطباطبائي، ج١، ص١٥٨.

ثمّ إنّ لهذه الشفاعة حدوداً، فهي لا تؤثّر في كلّ مورد وعلى الإطلاق بل لابدّ من إمكانية تلبّس المورد المعيّن بأثر الشفاعة لكي تفعل فعلها. فالعامي الأمّي الذي يريد أن يتقلّد مقاماً علميّاً شامخاً، والمشاكس الذي لا يطيع سيّده، والمستشفع لديه الحقود اللئيم الذي تطلب رحمته ورأفته بالمذنب المقصّر، لا تنفع الشفاعة في مواردهم وأمثالها، فالشفاعة - إذن - ليست مستقلّة في التأثير وتحقيق النتيجة بل هي متمّمة للسبب.

والخلاصة أنّ الشفاعة لدى العرف والعقلاء تمتاز بخصوصيتين مهمّتين، هما:

الخصوصية الأولى: أنّها خاصّة في القضايا التشريعية ولا تعمّ القضايا التكوينية.

الخصوصية الثانية: أنها لا تخضع لضابطة محدّدة بلحاظ ضوابط عالمي التكوين والتشريع بل هي قائمة على أساس الوجاهة أو الرابطة الخاصّة من قربى أو بذل مال أو غير ذلك من الأمور التي تؤثّر على الحاكم أو من بيده تحديد القرار . ومن هنا قد يعفى عن المذنب الذي لا يستحقّ العفو ويعطى غير المستحقّ ما لا يستحقّه.

ثانياً: الشفاعة في القرآن الكريم وروايات المعصومين

بعد أن تعرّضنا لمعنى الشفاعة العرفية بصورة مختصرة، ننتقل إلى الشفاعة الواردة في القرآن الكريم، حيث استعمل القرآن الكريم الشفاعة في موردين اثنين .

فتارةً تطلق الشفاعة قرآنياً ويراد منها الشفاعة في نظام التكوين وهذه هي (الشفاعة التكوينية).

وأُخرى، تطلق الشفاعة ويراد منها الشفاعة في عالم التشريع، أي عالم الأوامر والنواهي والتبعات المترتّبة على الامتثال وعدم الامتثال، وهذه هي (الشفاعة التشريعية).

١ ـ الشفاعة التكوينية

والمراد منها توسّط العلل والأسباب بينه تعالى وبين المسبّبات في الواقع الخارجي وتنظيم وجودها حدوثاً وبقاءً.

بيان ذلك: أنّ الله سبحانه وتعالى إذا أراد أن يرزق أو يعطي أو يمنع أو يبسط أو يقبض أو يحيي أو يميت أو غير ذلك ممّا يرتبط بعالم التكوين، فإنّ هذه الأمور قد تصدر عن الله سبحانه وتعالى الفرد الوتر مباشرةً دون تدخّل الأسباب والوسائط الأخرى، وقد تصدر عنه سبحانه وتعالى من خلال وسائل ووسائط معيّنة. وقد اقتضت حكمة الله تبارك وتعالى اختيار الطريقة الثانية، فإذا أراد الإنسان مثلاً أن يرفع عطشه فإنّ الرافع لعطشه هو الله سبحانه وتعالى ولكن بشرط أن يضمّ إلى إرادته تبارك وتعالى – وبمقتضى حكمته – شرب الماء، وهكذا .

فالسادّ لكلّ حاجات عالم الإمكان ولكلّ عوز يعتريه وعلى نحو الأصالة هي الإرادة الإلهية.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[1].

فهو الطاعم وهو الساقي وهو الشافي وهو المحيي وهو المميت؛ ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾[2]، بل كلّ كمالَ في هذا العالم وكلّ فعلَ هو له سبحانه وتعالى، وإنّما تفعل الوسائل والوسائط الأخرى فعلها في هذا العالم إذا انضمّت إليها الإرادة الإلهية بحيث صار الفرد زوجاً والوتر شفعاً، فلا شافعية للأسباب إلاّ من بعد إذنه تبارك وتعالى.

وهكذا يتبيّن لنا أنّ الشفاعة في نظام التكوين هي أن تنضمّ إلى السبب والوسيلة الطبيعية أو غير الطبيعية الإرادة الإلهية.

كما أنّ هذه الشفاعة - وبما تعنيه من انضمام الشفيع إلى الوسيلة الناقصة التي للمستشفع بما يجعله قادراً على نيل ما يريده - ثابتة له تبارك وتعالى أوّلاً وبالذات، وثابتة لغيره من الأسباب ثانياً وبالعرض، من خلال إذنه تبارك وتعالى بذلك.

الآيات الدالّة على وجود الشفاعة التكوينية

وقد ورد في القرآن الكريم الكثير من الآيات المباركات التي تشير إلى وجود الشفاعة التكوينية كقوله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي

---

(١) يس: ٨٢.

(٢) الشعراء: ٧٨ ـ ٨١.

الأرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلاَّ بِإذْنِهِ﴾[١]، ففي هذا العالم، عالم ما في السماوات وما في الأرض، أي عالم التكوين لا عالم التشريع، لا يمكن لأحد أن يشفع عند الله بحيث يعطي أو يقبض ويحيي أو يميت ويرزق أو يمنع إلاّ بإذنه.

فهذه الشفاعة – إذن – شفاعة في نظام وعالم التكوين ولا يكون مرجعها إلاّ إلى ما جعله الله تعالى من مدبّرات الأمور ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً﴾[٢] ومن العلل الوسطية بينه تعالى وبين تحقّق المسبّبات خارجاً.

ومنها قوله تعالى: ﴿إنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّام ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأمْرَ مَا مِنْ شَفِيع إلاَّ مِنْ بَعْدِ إذْنِهِ﴾[٣] فمدبّر الأمر أصالةً هو الله ربّ العالمين، ولا وجود لمدبّر للأمر ولا لشفيع ولا لشفاعة في عالم التدبير – أي عالم التكوين – إلاّ من بعد إذنه تبارك وتعالى.

ففي الآية – إذن – إثبات للشفاعة التكوينية من بعد إذن الله تبارك وتعالى.

وعلى كلّ حال، فهذه الآيات المباركات وأمثالها تثبت وجود شفاعة تكوينية ووجود شفعاء مأذون لهم من قبل الله تبارك وتعالى باعتبارهم أسباباً وعللاً وسطية من قبيل الملائكة والأنبياء وبعض العباد

---

(١) البقرة: ٢٥٥.

(٢) النازعات: ٥.

(٣) يونس: ٣.

الصالحين.

وهذا ما نعتقده في الخاتم صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام من الشفاعة التكوينية، إذ نعتقد أنّ الكثير من الأمور في نظام التكوين إنّما تصل إلى الناس بتوسّطهم وهو ما عبّرنا عنه في بحوث الإمامة بـ «الدور الوجودي للإمام».

ومن الآيات الدالّة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[1] حيث أثبتت الآية المباركة للرسول صلى الله عليه وآله دوراً في تأمين الناس من العذاب وهذا أمر تكويني كان الرسول صلى الله عليه وآله سببه وعلّته بإذن الله تبارك وتعالى.

وإلى مثل ذلك تشير الروايات التي تقول: «**بل قلوبنا أوعية لمشيّة الله، فإذا شاء الله شئنا**»[2].

أو تلك التي تقول: «**بيمنه رزق الورى وبوجوده ثبتت الأرض والسماء**»[3].

---

(١) الأنفال: ٣٣.

(٢) **دلائل الإمامة**، محمد بن جرير الطبري (من علماء القرن الرابع الهجري): ص ٢٧٣ معرفة من شاهد الحجّة المنتظر عليه السلام في حياة أبيه، دار الذخائر للمطبوعات، قم المقدّسة.

(٣) **مفاتيح الجنان** للشيخ عباس القمّي، دعاء العديلة.

كلام في الآيات النافية للشفاعة في ضوء الشفاعة التكوينية

وردت آيات في القرآن الكريم تدلّ على نفي الشفاعة، غير أنّ أكثر هذه الآيات إنّما جاءت في سياق نفي الشفاعة في نظام التكوين من دون الله تعالى، هذه الشفاعة التي يحاول أن يثبتها الوثنيون والمشركون لشفعائهم، ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1].

بيان ذلك، أنّ المشركين كانوا يعتقدون بالشفاعة لأربابهم، ولكنّهم كانوا يعتقدون بالشفاعة التكوينية لهم دون التشريعية لأنّ المشرك لا يعتقد بوحي.

ومن هنا فإنّهم اعتقدوا بأنّ أربابهم شفعاء لهم من دون الله لا في رفع العقاب وإيصال الثواب، بل في إيصال الخير ودفع السوء والضرر، فإذا مرضوا طلبوا من أصنامهم الشفاء وإذا أرادوا خيراً قدّموا لأصنامهم أنواع القرابين لكي يجلبوا لهم وبزعمهم النفع والخير.

وعلى هذا الأساس تعرّض القرآن الكريم لهذه الاعتقادات الخاطئة ونفى وجود كلّ شفيع وكلّ شفاعة تكوينية من دون إذن الله تعالى.

---

(١) يونس: ١٨.

الوثنيون على قسمين

وحينما تعرّض القرآن الكريم لاعتقادات الوثنيين الخاطئة هذه، ميّز بين قسمين منهم، قسم يمكن أن يطلق عليه مجازاً قسم العلماء والمحقّقين، وقسم آخر هو قسم العوام والجهّال.

فقد استدلّ المحقّقون منهم على صحّة اعتقادهم بشفاعة أصنامهم، بقول هو نفس القول بالتفويض ولكن بلباس آخر، حيث قالوا: إنّ الله سبحانه وتعالى موجود ولكنّه موجود لا متناه فلا يمكن أن نرتبط به لأنّنا موجودات محدودة؛ ولذلك خلق لنا سبحانه وتعالى موجودات هي هذه الأرباب التي تدبّر العالم، فهي أرباب العالم والله تعالى هو ربّ هذه الأرباب، فهو خالق كلّ شيء ولكنّه ليس ربّ كلّ شيء، ومن هنا قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِي اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾[١].

فهم يؤمنون بالله سبحانه وتعالى من حيث الخالقية ومن حيث إنّ واجب الوجود واحد، غير أنّهم يشركون في تعدّد الأرباب عندهم، ولذا عاب القرآن الكريم عليهم تعدّد أربابهم الذي لا خير فيه، قال تعالى: ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[٢]. ثمّ قرّر سبحانه

(١) الزمر: ٣٨.
(٢) يوسف: ٣٩.

وتعالى على لسان نبيّه صلى الله عليه وآله وحدة الربّ ونفي غيره من الأرباب المزيّفة، قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾[1].

ثمّ إنّ المشركين وباتّخاذهم غير الله ربّاً، كانوا قد اتّخذوا غيره تعالى معبوداً، لأنّ الربّ هو من يستحقّ الطاعة والعبادة، ومن هنا عبدوا أربابهم المتفرّقة من دون الله تبارك وتعالى، واتّخذوهم شفعاء لهم في حاجاتهم باعتبارهم أصحاب التدبير في هذا الكون، وقرّبوا لهم القرابين، كلّ ذلك من خلال ما أوجدوه لها من تماثيل وأصنام تشير إليها كصنم القمر وصنم الخير وصنم الشرّ وهكذا.

ثمّ لمّا طال الزمن، تصوّر عوام الوثنية أنّ المعبود هو نفس هذه الأصنام لا الموجودات اللامحسوسة التي تشير إليها، فعبدوا هذه الأصنام وقدّموا لها القرابين وطلبوا منها الشفاعة في قضاء الحاجة وجلب النفع ودفع الضرر.

وقد ناقش القرآن الكريم معتقدات كلا القسمين وسفّه آراءهم، حيث ردّ على محقّقي الوثنية ادّعاءهم بأنّهم لا يعتقدون بكون الله تعالى ربّاً لهم لأنّه لا متنه وهم محدودون، ولأنّه عال وهم دانون، وأنه لا يمكن للمحدود الداني أن يرتبط باللاّمتناهي العالي إلاّ من خلال واسطة ووسيلة وشفيع، ومن خلال الأرباب المتعدّدة على حدّ تصوّرهم، ردّ كلّ ذلك من خلال إثبات خطأ نظرتهم إلى البعد والقرب

---

(١) الأنعام: ١٦٤.

والعلوّ والدنوّ ومن خلال بيان موقع الله سبحانه وتعالى بالنسبة إلى عباده، حيث بيّن هذا الأمر من خلال عدّة مراحل، ففي المرحلة الأولى قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِ﴾(١).

ثَمّ في مرحلة أعلى، قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لاَ تُبْصِرُونَ﴾(٢).

وفي مرحلة ثالثة، قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾(٣).

ثمّ في المرحلة الأعلى، قال تعالى: ﴿أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾(٤).

فإذا كان الله تعالى قريباً إلى هذه الدرجة من عباده فما الحاجة إلى الواسطة وإلى الشفيع وإلى الوسيلة من دونه؟

وإلى هذا المضمون أشارت الروايات التي قالت: «**دانٍ في علوّه وعالٍ في دنوّه**»(٥).

---

(١) البقرة: ١٨٦.

(٢) الواقعة: ٨٥.

(٣) ق: ١٦.

(٤) الأنفال: ٢٤.

(٥) **مهج الدعوات**، السيد علي بن طاووس الحلّي (٥٨٩ - ٦٦٤ هـ): ص ١٣٣ اعتصام وتهليل لمولانا أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، دار الذخائر للمطبوعات، قم المقدّسة، ١٤١١ هـ

ثمّ ناقش القرآن الكريم عوامّ الوثنية وسفّه آراءهم وعاب عليهم ما يعبدونه من هذه الأصنام التي ليس لها أرجل تمشي بها ولا أيد تبطش بها ولا أعين تبصر بها ولا أي شيء يجعلها بمصاف الموجود الحي، بل هي من الضعف بحيث إذا سلبها الذباب شيئاً لا تستطيع استنقاذه منه، ضعف الطالب والمطلوب.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِـهَا أَمْ لَهُمْ أَيْد يَبْطِشُونَ بِـهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِـهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِـهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِي فَلاَ تُنظِرُونِ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَو اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لاَ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾(٢).

هكذا إذن، وبناءً على ما تقدّم بيانه، تكون أكثر الآيات النافية للشفاعة بصورة عامّة، ناظرة إلى نفي الشفاعة التكوينية من دون الله والتي يدّعيها الوثنيون على اختلاف أقسامهم والمشركون، ويكون معنى الآية الواردة في صدر البحث - على سبيل المثال - كالآتي: ﴿ويعبدون من دون الله﴾ لأنّهم يرون أنّ المدبّر للكون هم هؤلاء الأرباب من دون الله ﴿ما لا يضرّهم ولا ينفعهم﴾ تكويناً لا تشريعاً

(١) الأعراف: ١٩٤ ـ ١٩٥.

(٢) الحج: ٧٣.

لأنّهم لا يعتقدون بشريعة ولا بوحي ولا بثواب ولا بعقاب ولا بجنّة ولا بنار ﴿ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ أي شفعاؤنا في مجال التكوين عند الله ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فهو سبحانه وتعالى لا يعلم بوجود مثل هؤلاء الشفعاء في السماوات ولا في الأرض، وفي هذا نفي لوجود الشفعاء أصلاً من خلال نفي علم الله سبحانه وتعالى بهم لأنّه لا يعزب عن علمه شيء في عالم الإمكان كبر أو صغر وتضاءل أو عظم، فما لا يعلمه سبحانه وتعالى لا وجود له.

٢ ـ الشفاعة التشريعية

أنزل الله سبحانه وتعالى بلطفه على الإنسان الشريعة والدين وأرسل إليه الرسل والأنبياء وبيّن له أوامره ونواهيه، حتّى إذا ائتمر بتلك الأوامر وانتهى عن تلك النواهي وصل إلى الكمال اللائق به والذي يريده الله سبحانه وتعالى له.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾(٢).

فبلطفه تعالى – إذن – وعنايته الخاصّة بالإنسان ساقه بتوسّط الشريعة لإيصاله إلى كماله، فالسائق هو الله تعالى والوسيلة هي

---

(١) الذاريات: ٥٦.

(٢) الحجر: ٩٩.

الشريعة المقدّسة.

غير أنّ الإنسان ولكي يصل إلى القرب الإلهي الذي خُلق لأجله، لابدّ له من أن يتحرّك بهذا الاتّجاه، ولا يمكن أن تكون هذه الحركة إلاّ بأحد طرق ثلاثة هي:

الطريق الأوّل: طريق الخوف وهو طريق الإنذار والعقاب، وإليه أشار الإمام علي عليه السلام بقوله: «**وإنّ قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد**».

الطريق الثاني: طريق الطمع والرغبة وهو طريق التبشير والترغيب والثواب، وإليه أشار الإمام علي عليه السلام بقوله :«**إنّ قوماً عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجّار**».

الطريق الثالث: طريق الحبّ والشكر لا طريق الخوف من النار ولا الطمع في الجنّة. وإليه أشار الإمام علي عليه السلام بقوله: «**وإنّ قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار**»[1].

وعن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام أيضاً: «**وقوم عبدوا الله عزّ وجلّ حبّاً فتلك عبادة الأحرار وهي أفضل العبادة**»[2].

والطريق الثالث هو الطريق الذي لا يمسّه إلاّ المطهّرون وهو

---

(١) **بحار الأنوار**: ج٤١، ص١٤ باب ١٠١ عبادة علي عليه السلام وخوفه.

(٢) **الكافي** لثقة الإسلام الكليني، دار الكتب الإسلامية، طهران: ج ٢ ص ٨٤ ح ٥ باب العبادة.

للأوحدي من الناس من الذين وجدوا الله أهلاً للعبادة فعبدوه؛ فعن علي عليه السلام أنّه قال: «**إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنّتك ولكنّي وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك**»[١].

وأمّا الطريق الأوّل والثاني فهما الطريقان المتعارفان اللذان يبعثان الناس نحو العمل بالأوامر والانتهاء عن النواهي وإلى عبادة الله تعالى؛ قال تعالى في وصف المؤمنين بأنّهم: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[٢] وبهذا يتكاملون ويصلون إلى مقامات القرب الإلهي الذي خُلقوا من أجله.

وإلى هذا أشار السيّد الطباطبائي قدس سره حين تحدّث عن أنّ الشفاعة من مصاديق السببية، وأنّ الله تعالى يقع مورد النظر في السببية من جهتين؛ قال قدس سره: «والجهة الثانية أنّه تعالى تفضّل علينا[٣] بالدنوّ في حين علوّه، فشرّع الدين ووضع فيه أحكاماً من أوامر ونواه وغير ذلك وتبعات من الثواب والعقاب في الدار الآخرة[٤] وأرسلَ

(١) **بحار الأنوار**، للعلامة المجلسي، مؤسسة الوفاء، بيروت - لبنان: ج ٦٧ ص ١٨٦ باب ٥٣ النية وشرائطها.

(٢) السجدة: ١٦.

(٣) لا كما يقول المعتزلة بوجوب ذلك عليه، بل هو سبحانه وتعالى كتب على نفسه ذلك تفضّلاً ووعدنا أن يفعل ذلك والله لا يخلف الميعاد.

(٤) وهذه هي الجنّة والنار، ولا ينبغي أن يتبادر إلى الذهن أنّ التبعة لابدّ أن تكون في النشأة الأخرى بالضرورة فلعلّها تكون في هذه النشأة الدنيا أيضاً ولكن الإنسان لا يلتفت إليها.

رسلاً مبشّرين ومنذرين فبلّغوه - أي الدين - أحسن تبليغ وقامت بذلك الحجّة وتمّت كلمة ربّك صدقاً وعدلاً لا مبدّل لكلماته»[1].

والخلاصة: إنّ الإنسان وبعد أن خلقه الله تعالى تلطّف عليه بإنزال الشريعة التي فيها مجموعة القوانين والاعتقادات والملكات التي تقوده نحو الكمال، وفق طرق ذكرناها سابقاً.

غير أنّ مسألة اتباع الشريعة الإلهية أو عدمها لم يتركها الله سبحانه وتعالى من دون أن يجعل ثواباً لمن اتّبع شريعته وأطاع أوامره، وعقاباً لمن تنكّب طريقه وارتكب نواهيه.

ثمّ إنّه سبحانه وتعالى بيّن كلّ هذا في كتبه وعلى لسان رسله حتّى انتهى الأمر إلى القرآن الكريم وروايات النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام.

وما عنيناه بالشفاعة في مجال التشريع (الشفاعة التشريعية) هو: أنّه وإن أنزلت الشريعة واتّضحت الأوامر والنواهي وبيّن الثواب والعقاب إلا أنّ هناك مجالاً لأن ترفع تبعات العقاب الذي يستحقّه من ارتكب ما نُهي عنه أو امتنع عمّا أُمر به، أو لأن تزاد درجات الثواب المخصّصة لمن أدّى ما عليه وأطاع ما أُمر به.

فهناك من الأفعال ما تترتّب عليها آثار وضعية في هذه الدنيا، والوجدان شاهد على ذلك بالإضافة إلى الروايات التي تدلّ عليها، من قبيل ما ورد من أنّ صلة الرحم تطيل العمر وأنّ الصدقة تدفع البلاء وأنّ للدعاء آثاراً دنيوية كثيرة و...

(١) **الميزان** للطباطبائي: ج١، ص١٦٠.

فهل يوجد ما يدلّ على وجود مثل هذه الشفاعة أصلاً؟

إثبات الشفاعة التشريعية

لا محذور من إثبات وجود الشفاعة في عالم التشريع إذا نظرنا إلى الله سبحانه وتعالى باعتباره المشرّع الذي أنزل الشريعة التي تضمّنت أوامره ونواهيه وعقابه وثوابه، وأنّه تعالى مالك الملك وله الأمر من قبل ومن بعد، ونظرنا إلى الشفاعة باعتبارها مصداقاً من مصاديق السببية لأنّها توسيط السبب المتوسّط القريب بين السبب الأوّل والبعيد ومسبّبه.

وحينئذ لا محذور في أن يملّك الله تعالى هذه الشفاعة (السببية) في مجال التشريع لمن يشاء من عباده من بعد إذنه تعالى وارتضائه.

وقد دلّت العديد من الآيات الكريمة على ثبوت هذه الشفاعة؛ منها قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذ لاَ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿لاَ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿وَلاَ يَشْفَعُونَ إلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَلاَ يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إلاَّ مَنْ

---

(١) طه: ١٠٩.

(٢) سبأ: ٢٣.

(٣) الأنبياء: ٢٨.

شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾[١].

ففي الآيات المباركة السابقة وأمثالها إثبات للشفاعة التشريعية لمن أذن الله تبارك وتعالى له بها.

كما أنّ في بعضها إشارة إلى أنّ الشفاعة لا تكون نافعة ومقبولة بمجرّد وجودها ووجود الشفيع، فقد تكون كذلك وقد تكون غير مقبولة وغير نافعة كما هو الحال تماماً فيما نراه من الشفاعة في الحياة العقلائية والعرفية، فقد يشفع الشفعاء لبعض المذنبين ولكن شفاعتهم لا تُقبل ولا تنفع؛ إمّا لعدم وجود العلاقة المطلوبة مع الحاكم أو لفقدان الصداقة القوية معه وما شابه ذلك.

وأمّا في القرآن الكريم، فإنّ لقبول الشفاعة وعدم قبولها ضوابط وشروطاً أُخرى سوف تأتي لاحقاً إن شاء الله تعالى.

ثالثاً: الشفاعة الحسنة والشفاعة السيّئة

تعرّضنا سابقاً لمعنى الشفاعة لغةً واصطلاحاً وفي بحث المعنى الاصطلاحي ذكرنا معنيين للشفاعة هما المعنى العرفي والمعنى القرآني الذي قسّمنا الشفاعة فيه إلى تكوينية وتشريعية، غير أنّ هناك تقسيماً آخر ورد في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا﴾[٢].

---

(١) الزخرف: ٨٦.

(٢) النساء: ٨٥.

وقد ورد في مفردات الراغب:

«(من يشفع شفاعة حسنة... ومن يشفع شفاعة سيّئة) أي من انضمّ إلى غيره وعاونه وصار شفعاً له أو شفيعاً في فعل الخير والشرّ فعاونه وقوّاه وشاركه في نفعه وضرّه»[1].

وذكر صاحب مجمع البيان، أنّ هناك عدّة أقوال في بيان معنى الشفاعة الحسنة والسيّئة، فذكر منها:

١ - إنّ الشفاعة الحسنة هي الإصلاح بين اثنين، والشفاعة السيّئة المشي بالنميمة بينهم.

٢ - إنّ ما يجوز في الدين أن يشفع فيه فهو شفاعة حسنة، وما لا يجوز أن يشفع فيه فهو شفاعة سيّئة.

٣ - إنّ الشفاعة الحسنة هي الدعاء للمؤمنين، والشفاعة السيّئة هي الدعاء عليهم كما كانت تفعل اليهود ذلك.

٤ - المراد بالشفاعة الحسنة أن يصير الإنسان شفع صاحبه في جهاد عدوّه فيحصل له من هذه الشفاعة نصيب في العاجل من الغنيمة والظفر في الآجل من الثواب المنتظر، وإن صار شفعاً له في معصية أو شرّ حصل له نصيب من المذمّة في العاجل والعقوبة في الآجل.

وقد تعرّض العلاّمة قدس سره في تفسير هذه الآية الشريفة إلى بيان هذين القسمين بقوله: «قوله تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ

---

(١) **مفردات الراغب**: مادّة شفع، ص ٢٧٠، ط إيران.

نَصِيبٌ مِنْهَا...﴾[١] النصيب والكفل بمعنى واحد، ولمّا كانت الشفاعة نوع توسّط لترميم نقيصة أو لحيازة مزيّة ونحو ذلك كانت لها نوع سببية لإصلاح شأن، فلها شيء من التبعة والمثوبة المتعلّقتين بما لأجله الشفاعة، وهو مقصد الشفيع والمشفوع له، فالشفيع ذو نصيب من الخير أو الشرّ المترتّب على الشفاعة، وهو قوله تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً﴾...

وفي ذكر هذه الحقيقة تذكرة للمؤمنين، وتنبيه لهم كي يتيقّظوا عند الشفاعة لما يشفعون له، ويجتنبوها إن كان المشفوع لأجله ممّا فيه شرّ وفساد كالشفاعة للمنافقين من المشركين أن لا يقاتلوا، فإنّ في ترك الفساد القليل على حاله وإمهاله في أن ينمو ويعظم فساداً معقّباً لا يقوم له شيء، ويهلك به الحرث والنسل، فالآية في معنى النهي عن الشفاعة السيّئة وهي شفاعة أهل الظلم والطغيان والنفاق والشرك المفسدين في الأرض»[٢].

وكيف كان، فالظاهر أنّ مدار هذا التقسيم هو المعنى اللغوي الذي أشار إليه الراغب في مفرداته وبيّنه العلاّمة في تفسيره.

---

(١) النساء: ٨٥.

(٢) **الميزان**، للطباطبائي: ج٥، ص٢٩، ط: طهران.

البحث الثاني

في حقيقة فعل الشفيع

مقدّمات مهمّة

قبل التعرّض إلى أصل النظريات المطروحة في تفسير حقيقة فعل الشفيع لابدّ من ذكر بعض المقدّمات المهمّة، منها:

أوّلاً: إنّ القرآن الكريم ذكر مجموعة من الأسماء والصفات الحسنى لله تبارك وتعالى؛ ﴿قُلْ ادْعُوا اللهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾[1]، فليس له تبارك وتعالى الأسماء الحسنة فقط، بل له الأسماء الأحسن والأعلى ﴿وَللهِ الْمَثَلُ الأعْلَى﴾[2] فأكمل كلّ كمال من عدل أو غفران أو رحمة أو إحسان أو رأفة أو غير ذلك، له سبحانه وتعالى.

---

(١) الإسراء: ١١٠.

(٢) النحل: ٦٠.

ثمّ إنّ لكلّ اسم من هذه الأسماء وصفة من هذه الصفات الإلهية أثراً خاصّاً بها، فأثر العدل والعادل غير أثر الرحمة والرحيم، وأثر هذه غير أثر الغفران والغفور وهكذا.

ثانياً: كما ذكر القرآن الكريم صفات للعبد أيضاً من قبيل أنّه ضعيف ومسكين ومحتاج وفقير وأنّه عبد وغير ذلك من صفات النقص والحاجة.

وتقابل كلّ صفة من صفات النقص التي يتّصف بها العبد صفة من صفات الكمال التي يتّصف بها الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾(١).

ثالثاً: إنّ الله تعالى لم يأذن لكلّ أحد في أن يكون شفيعاً وإنّما أجاز ذلك لأفراد معينين ولجماعة وطبقة معيّنة، وهؤلاء هم الأولياء المقرّبون عنده سبحانه؛ قال تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾(٢)، ﴿وَالسَّابِـقُونَ السَّابِـقُونَ * أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾(٣).

وإلاّ لو كان السائل للشفاعة غير مرضيّ عنده فإن الله تعالى لا يعتني بسؤاله ولا يشفّعه فيما يريده ويطلبه ﴿لاَ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾(٤).

---

(١) فاطر: ١٥.

(٢) الأنبياء: ٢٦.

(٣) الواقعة: ١٠ ـ ١١.

(٤) سبأ: ٢٣.

ومن هنا علّمنا الأئمّة وأمرونا في أن نبتدئ بهم عليهم السلام في كلّ دعاء، أي أن نجعلهم شفعاء لنا عند الله سبحانه وتعالى.

ونحن وإن كنّا نعتقد أنّ الله تعالى هو الغفّار الرحيم وقد وسعت رحمته كلّ شيء، إلاّ أنّه لا يغفر لكلّ أحد جزافاً، كما أنّ درجة قبوله لطلب المغفرة تختلف باختلاف الطالب أيضاً، فقد يرأف سبحانه وتعالى بالعبد العاصي ويغفر له حينما يطلب منه ذلك ولكن درجة القبول هذه تختلف فيما لو تشفّع هذا العبد العاصي عند الله سبحانه وتعالى بنبيّ مرسل أو وليّ مقرّب أو شفيع مرتضى عنده تعالى.

فلابدّ - إذن - من توسيط أولياء الله المقرّبين لا كلّ أحد من أجل استجابة الدعاء وتحقّق الشفاعة، كما جاء الأمر بذلك في القرآن الكريم أيضاً؛ قال تعالى: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾[1]، وبهذا تكون الشفاعة ضرورة من ضرورات القرآن الكريم كما هو واضح.

رابعاً: أنّ الشفيع لا يطلب الشفاعة جزافاً ومن غير سبب كما هو الحال في بعض موارد الشفاعة العرفية والعقلائية، بل هناك قانون وسنّة لذلك، فالشفيع مثلاً:

١ - لا يطلب من المولى أن يُبطل مولوية نفسه ولا أن يبطل عبودية عبده، فيقول له: أنت وإن كنت مولى ولكنّك في هذا الموضع لست بمولى فلا يحقّ لك معاقبة هذا العبد العاصي. أو أنّ هذا العبد عبد في كلّ مورد إلاّ في هذا المورد فلا سبيل لك عليه.

---

(١) المائدة: ٣٥.

إنّ إبطال مولوية المولى وعبودية العبد أمر غير ممكن حتّى لو طلبه الشفيع لأنّهما مولوية وعبودية حقيقيتان لا اعتباريتان مجعولتان يمكن وضعهما ورفعهما .

٢ - كما لا يطلب الشفيع من المولى أن يرفع يده عن حكمه وتكليفه الذي جعله بأي نحو كان، كأن يقول له: أنت وإن أوجبت الصلاة على الجميع وحرّمت الكذب والظلم وأمرت بالجهاد ونهيت عن الربا والزنا وما إلى ذلك، إلاّ أنّني أطلب منك أن ترفع هذا الوجوب أو هذه الحرمة في هذا المورد، فلا يبقى تكليفك على حاله؛ وبذلك لا يصدق في حقّ العبد العاصي بأنّه عاص وغير ممتثل للأمر المولوي .

إنّ هذا الأمر لا يمكن أن يطلبه الشفيع من المولى لأنّ التكليف والحكم الشرعي - وكما هو واضح - قد شُرّع في مصلحة العبد لا في مصلحة المولى، فكيف يطلب الشفيع رفع ما فيه مصلحة العبد الذي يستشفع له.

٣ - كما لا يطلب الشفيع من المولى إبطال قانون المجازاة، كأن يقول له: ارفع ما وضعتَه من مجازاة وعقوبة على شرب الخمر أو أكل مال اليتامى ظلماً أو الكذب أو الغيبة وما شابه ذلك.

خامساً: إنّ الشفاعة - وباعتبارها من مصاديق السببية - حالها حال الأمور التكوينية في مجال التأثير، حيث لا يؤثّر المقتضي في الأمور التكوينية بإيجاد المقتضى إلاّ إذا وجد المقتضي أوّلاً وتحقّق الشرط

ثانياً ورفع المانع ثالثاً، وحينئذ يتحقّق المقتضى في الخارج؛ فلا تحرق النار الورقة إلاّ إذا وجدت النار والورقة، وحصل التماس بينهما، ولم تكن الورقة رطبة غير قابلة للاحتراق.

وعلى هذا فإنّ شروط الشفاعة وإن توفّرت من قبيل إنّ الله تعالى رحيم غفور توّاب رؤوف كريم، ومن قبيل توسّط الشفيع المأذون له، إلاّ أنّه لابدّ مع ذلك من كون القابل (أي العبد المذنب) الذي يستشفع له خالٍ من الموانع التي تمنع تحقّق الشفاعة في حقّه، وهذا ما يعبَّر عنه بشرط قابلية القابل. فلا تفعل الشفاعة فعلها ولا يشمل الغفران الإلهي البعض من العباد، لا لضيق في فاعلية الفاعل بل لعدم قابلية القابل الذي لا يستحقّ العفو والمغفرة؛ لوجود المانع فيه.

وما الشفاعة في هذا الأمر إلاّ كالمرآة التي وان كانت وظيفتها عكس صور الأشياء إلاّ أنّها لا تقوم بهذه الوظيفة إلاّ إذا كانت نظيفة وخالية من الرين والأوساخ، وهكذا بعض الذنوب كالشرك فإنّها رين ووسخ تمنع صاحبها من أن يكون قابلاً للعفو والمغفرة الإلهية ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[١].

وأمّا حال العبد الذي يحرم الشفاعة لضيق قابليّته، فهو من قبيل الطفل الصغير الذي يجلس أمام عالم كبير فلا يستطيع هذا العالم أن يوصل علمه إلى هذا الطفل لا لنقص في علم العالم بل لعدم تمكّن الطفل من أخذ العلم لقصور في قابليته على التعلّم. ومن قبيل رميك

(١) المطفّفين: ١٤.

لقطعة من الحجر ثمّ لقطعة من الورق حيث ستجد أنّ المسافة التي قطعتها قطعة الحجر أكبر من المسافة التي قطعتها قطعة الورق، وليس السبب وراء ذلك هو النقص في فاعلية الفاعل لأنّه واحد هنا، بل لقابلية القابل المختلفة، كما هو واضح.

أهمّ النظريات في تفسير فعل الشفيع

تشكّل الملاحظات التي ذكرناها سابقاً والتي وردت في ثنايا بحوث العديد من العلماء، مقدّمة مهمّة لفهم النظريات المطروحة في تفسير فعل الشفيع، ومن أهمّ هذه النظريات:

النظرية الأولى: للعلاّمة الطباطبائي

لخّص العلاّمة قدس سره نظريته في بيان حقيقة فعل الشفيع بقوله: «بل الشفيع بعدما يسلم جميع الجهات الثلاثة المذكورة (والتي لا تجعل عمله عملاً جزافاً) إنّما يتمسّك: إمّا بصفات في المولى الحاكم توجب العفو والصفح كسؤدده وكرمه وسخائه وشرافة محتده، وإمّا بصفات في العبد تستدعي الرأفة والحنان وتثير عوامل المغفرة كمذلّته ومسكنته وحقارته وسوء حاله، وإمّا بصفات في نفسه أعني نفس الشفيع من قربه إلى المولى وكرامته وعلوّ منزلته عنده...»[1].

ومن هنا يتبيّن أنّ تأثير الشفيع في رأي العلاّمة قدس سره إنّما يتمّ

(١) الميزان، للطباطبائي: ج١، ص١٥٩.

من خلال أحد أُمور أو طرق ثلاثة على سبيل «مانعة الخلو» التي لا يخلو الواقع من أحدها وقد تجتمع لأنّها ليست بـ «مانعة الجمع»، وهي:

الطريق الأوّل: ويتمّ من خلال تمسّك الشفيع بصفات في المولى من قبيل رأفته ورحمته وعفوه ونحو ذلك، بحيث يخاطب المولى قائلاً: إلهي وسيّدي، وإن صحّ أنّ هذا العبد يستحقّ العقاب بمقتضى عمله الخاطئ وذنبه، وينبغي أن يعاقب بمقتضى عدلك، ولكنّك لست عادلاً فقط، بل أنت رؤوف، رحيم، غفور، كريم أيضاً، اللهمّ فعامل هذا العبد بمقتضى اسمك الكريم واسمك الرؤوف واسمك الرحيم لا بمقتضى اسمك العادل (**اللهمّ عاملنا بفضلك ولا تعاملنا بعدلك**).

ولمزيد من البيان نقول: إنّ الله سبحانه وتعالى، إذا أراد أن يعامل موجوداً بمقتضى اسمه المحيي فإنّه يحييه، وإذا عامله بمقتضى اسمه المميت يميته، وإذا عامله بمقتضى اسمه الشافي يشافيه، وباسمه المنتقم ينتقم منه، فإنّ للأسماء والصفات الإلهية المختلفة آثاراً مختلفة وإن كان المميت والمحيي والشافي والمنتقم واحداً وهو الله سبحانه وتعالى.

فلو أردت الشفاء - مثلاً - فإنّك تطلب ذلك من الله تعالى من خلال اسمه «الشافي» وتدعوه بهذا الاسم، لا باسم المميت أو المعاقب أو المنتقم.

وعلى هذا فإنّ الشفيع يطلب من الله سبحانه وتعالى أن يعامل

العبد العاصي من خلال اسمه الرحيم والرؤوف والكريم ووفق قانون الإحسان والرأفة والمغفرة، لا من خلال اسم العادل وقانون العدالة فقط.

وحينئذ لن يكون اسم العادل هو منشأ القضاء والحكم بما هو فرد بل يضمّ إليه ويشفع بأسماء أُخرى من أسماء الله وصفاته كصفة الرحيم والرؤوف والكريم والمحسن....

ومن الواضح أنّ هذا الطريق طريق يرتبط بفاعلية الفاعل؛ لأنه يوسّع دائرة هذه الفاعلية من خلال التوسّل بالأسماء والصفات الإلهية الأخرى ولا يجعلها مقتصرة على اسم العادل وصفة العدالة فقط.

الطريق الثاني: ويتمّ من خلال الاسترحام بصفات في العبد كأن تبيّن مسكنته وضعفه وجهله، حيث يخاطب الشفيع المولى بقوله: إلهي وسيّدي، إنّ هذا العبد وإن فعل ما فعل إلاّ أنّ فعله هذا لم يصدر منه عن تكبّر أو أنانية أو عصيان أو جحود بل هو عبد مسكين، مستكين، حقير، فقير، ضعيف جاهل....

ومن الواضح أنّ صفات العبد هذه تستدعي أن يعامله سبحانه وتعالى من خلال اسم الرؤوف الرحيم، لا من خلال اسم العادل أو المنتقم.

ولذا ورد في القرآن الكريم ما يدلّ على أنّ الله تبارك وتعالى لا يرحم المعاند أبداً، ولابدّ لمن يريد نيل رحمته وكرمه من استرحامه

عزّ وجلّ، حتّى قال بعض أهل المعرفة، إذا سألني الله تعالى يوم القيامة: ما غرّك؟ أقول: كرمك، فلولا علمي أنّ لي ربّاً كريماً لما عصيته؛ فإنّ الكريم يُتجرأ عليه ويعصى لأنّه يعفو ويغفر بكرمه.

إنّ طريق الاسترحام بصفات العبد طريق يرتبط بقابلية القابل، حيث يحاول الشفيع هنا أن يوسّع من دائرة هذه القابلية لتعمّ العبد المذنب رحمةُ المولى ورأفته وكرمه تبارك وتعالى.

وقد وردت الإشارة في دعاء أبي حمزة الثمالي المرويّ عن الإمام السجّاد عليه السلام إلى كلا الطريقين السابقين ونعني بهما طريق التمسّك بصفات المولى وطريق الاسترحام بصفات العبد.

فحينما يناجي الإمام عليه السلام الله تبارك وتعالى، يذكر له كلّ صفات الكمال والعظمة ويتوسّل بها، فيقول عليه السلام:

«... لأنّك يا ربّ خير الساترين وأحكم الحاكمين وأكرم الأكرمين ستّار العيوب غفّار الذنوب علاّم الغيوب تستر الذنب بكرمك وتؤخّر العقوبة بحلمك، فلك الحمد على حلمك بعد علمك وعلى عفوك بعد قدرتك، ويحملني ويجرّئني على معصيتك حلمك عنّي ويدعوني إلى قلّة الحياء سترك عليّ ويسرّعني إلى التوثب على محارمك معرفتي بسعة رحمتك وعظيم عفوك،... يا حليم يا كريم يا حي يا قيّوم يا غافر الذنب يا قابل التوب يا عظيم المنّ يا قديم الإحسان... يا ربّ هذا مقام من لاذ بك واستجار بكرمك وألف إحسانك ونعمك وأنت الجواد الذي لا يضيق عفوك ولا ينقص فضلك ولا تقلّ رحمتك وقد توثّقنا منك بالصفح القديم

والفضل العظيم والرحمة الواسعة. أفتراك يا ربّ تخلف ظنوننا أو تخيّب آمالنا، كلاّ يا كريم فليس هذا ظنّنا بك ولا هذا فيك طمعنا...»(١).

إنّ هذا اللحن من الطلب والتوسّل بهذه الأسماء والصفات الإلهية يقتضي أن يعامل الله تبارك وتعالى عبده بمقتضى اسمه المتفضّل والكريم والمحسن....

وأمّا حينما يأتي الإمام عليه السلام إلى ذكر العبد في قبال الله تبارك وتعالى يقول عليه السلام: «... سيّدي أنا الصغير الذي ربّيته وأنا الجاهل الذي علّمته وأنا الضالّ الذي هديته وأنا الوضيع الذي رفعته وأنا الخائف الذي آمنته والجائع الذي أشبعته والعطشان الذي رويته والعاري الذي كسوته والفقير الذي أغنيته والضعيف الذي قوّيته والذليل الذي أعززته والسقيم الذي شفيته والسائل الذي أعطيته والمذنب الذي سترته والخاطئ الذي أقلته وأنا القليل الذي كثّرته والمستضعف الذي نصرته وأنا الطريد الذي آويته... إلهي لم أعصك حين عصيتك وأنا بربوبيتك جاحد ولا بأمرك مستخفّ ولا لعقوبتك متعرّض ولا لوعيدك متهاون، لكن خطيئة عرضت وسوّلت لي نفسي وغلبني هواي وأعانني عليها شقوتي وغرّني سترك المرخى عليّ، فقد عصيتك وخالفتك بجهدي، فالآن من عذابك من يستنقذني ومن أيدي الخصماء غداً من يخلّصني وبحبل من أتّصل إن أنت قطعت حبلك عنّي، فواسوأتا على ما أحصى كتابك من عملي الذي لولا ما أرجو من كرمك وسعة رحمتك ونهيك إيّاي عن

---

(١) **مفاتيح الجنان**، للقمّي، طبعة سيّد الشهداء ـ قم: ص١٨٨.

القنوط لقنطت عندما أتذكّرها، يا خير من دعاه داع وأفضل من رجاه راج...»[١].

وهكذا لا يبقى للإمام عليه السلام مع ما يذكره من هذه الصفات شيء قبال العظمة الإلهية وإن كان عليه السلام هو كلّ شيء قبال عالم الإمكان، فكيف - إذن - بغيره من العباد.

ومن هنا اقتضى هذا الطريق الذي تضمّن هذه الدرجة من الاسترحام - كما اقتضى الطريق السابق - أن يعامل الله تبارك وتعالى عباده بمقتضى رحمته وشفقته وإحسانه وكرمه، لا بمقتضى عدله وعقابه.

الطريق الثالث: ويتمّ من خلال تمسّك الشفيع بصفات في نفسه من قبيل قربه من الله تبارك وتعالى وكرمه عليه ومنزلته منه، فيقول: إلهي وسيّدي بمنزلتي وقربي منك وكرامتي عليك إلاّ ما استجبت لطلبي ولبّيت حاجتي في الصفح عن هذا العبد المذنب وفي خلاصه من العقاب.

وقد مرّ علينا سابقاً، أنّ لشخص الشفيع وصفاته دوراً في تحقّق أثر الشفاعة وقبولها، فليس كلّ أحد له حقّ الشفاعة وليس للشفعاء جميعاً درجة واحدة في هذا الأمر، كما سيأتي بحثه، في بحث الشفعاء وصفاتهم.

---

(١) **مفاتيح الجنان**، للقمّي، ط سيّد الشهداء ـ قم: ص١٩١ .

النظرية الثانية: للشيخ جوادي آملي

يخلص شيخنا الأستاذ جوادي آملي حفظه الله تعالى في نظريّته إلى أنّ تأثير الشفيع إنّما يتمّ من خلال طريقين اثنين فقط، وهما:

الطريق الأوّل: طريق التمسّك بصفات المولى تبارك وتعالى.

الطريق الثاني: طريق التمسّك بصفات العبد.

غير أنّه لا يحقّ لكلّ أحد أن يسأل الله تبارك وتعالى الشفاعة لغيره، بل إنّ هذا الأمر محصور فيمن له الكرامة والمنزلة عند الله سبحانه وتعالى.

فليس الطريق الثالث الذي ذكره العلاّمة قدس سره - ونعني به طريق التمسّك بصفات الشفيع نفسه - طريقاً آخر في عرض الطريق الأوّل والثاني في نظر الشيخ الأملي، بل هو في حقيقته صفات الشفيع ومقاماته ودرجاته التي تحقّق له مقدّمات أن يسأل الله تبارك وتعالى الشفاعة لغيره.

النظرية الثالثة: منشأ الشفاعة العبد نفسه

تقوم هذه النظرية على أساس أنّ منشأ الشفاعة هو نفس العبد لا غيره. فهي تؤكّد كسابقتيها من أنّ الشفاعة لا تبطل مولوية المولى ولا عبودية العبد ولا قانون الجزاء والتبعة بل إنّ أثرها يقوم على إخراج العبد من كونه موضوعاً لحكم معيّن إلى حكم آخر.

غير أنّها ترى أنّ المرجع في هذا الإخراج والمؤثّر فيه هو العبد

المشفوع له، فهو الذي يهيئ المقدّمات، ويوجد الشرائط ويرفع الموانع من أجل أن يستحقّ شفاعة الشافعين.

ولعلّ في بعض كلمات العلاّمة قدس سره وشيخنا الأستاذ جوادي آملي إشارات إلى هذا المعنى أيضاً.

فالإنسان الذي يريد أن يكون مستحقّاً لشفاعة أشفع الشافعين تبارك وتعالى لابدّ أن يرفع المانع من ذلك وهو (الشرك) وأن يوجد الشرط اللازم وهو (الإسلام)؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِـهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[1].

ولو أراد أن يكون مشفوعاً له من قبل الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله والأئمّة الأطهار عليهم السلام فلابدّ من رفع المانع وهو العناد وعدم الإيمان بالرسول صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام وأن يوجد الشرط باعتقاده به صلى الله عليه وآله وبوجوب الولاية والطاعة لأهل بيته عليهم السلام، وهكذا....

فالموانع المختلفة - إذن - تمنع من تحقّق الشفاعات المختلفة ولابدّ من تحديد هذه الموانع وإزالتها من قبل العبد نفسه، وبغير ذلك يُحرم نعمة العفو والغفران الإلهي، لا لقصور في فاعلية الفاعل، بل لضيق في قابلية القابل، كما أشرنا إلى ذلك سابقاً.

إذن، الدخول تحت اسم الله الرحيم والكريم والمحسن وما شابه ذلك، والخروج من تحت اسم الله العادل والمنتقم وما شابه متروك

(١) النساء: ٤٨.

للإنسان ذاته ومرتبط به من حيث اعتقاده أو ملكاته أو أقواله أو أفعاله أو جميعها، وما حقيقة فعل الشفيع وأثره إلاّ هذه الأمور وهي التي تفسح المجال لبعض الملائكة أو لبعض عباد الله الصالحين من الأنبياء والأئمّة والمؤمنين من أن يشفعوا ويطلبوا العفو والمغفرة له. ويطّرد هذا الأمر في كلّ أفعال هذا النظام على مستوى التكوين والتشريع.

ومن هنا أيضاً يُفهم قول أهل المعرفة في بيان قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الإنسَانُ إنَّكَ كَادِحٌ إلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاَقِيهِ﴾[1] من أنّ الجميع يلاقون الله تبارك وتعالى وأنّ المرجع إليه عزّ وجلّ ﴿إنَّا للهِ وَإنَّا إلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[2]، ولكن كلّ يلاقيه بحسب اعتقاده وعمله، فمن كان مشركاً سيئ العمل يلاقيه في (شديد العقاب) ومن كان مؤمناً صحيح الاعتقاد وصالح العمل يلاقيه في (الغفور) و (الرحيم) و (الرؤوف) و (المحسن) ونحو ذلك.

أثر الشفاعة بالحكومة لا بالمضادّة

تبيّن ممّا سبق أنّ الشفيع - أيّاً كان - إنّما يعمل على تخليص القابل من الموانع بالطريقة المناسبة ليخرجه خروجاً موضوعياً تخصّصياً - لا خروجاً حكمياً تخصيصياً - من دائرة العقوبة إلى دائرة عدم استحقاقها.

(١) الانشقاق: ٦.
(٢) البقرة: ١٥٦.

وإلى هذا أشار العلاّمة قدس سره بقوله: «ومن هنا يظهر للمتأمّل أنّ الشفيع إنّما يحكم (من الحكومة) بعض العوامل المربوطة بالمورد، المؤثّرة في رفع العقاب مثلاً من صفات المشفوع عنده أو نحوها على العامل الآخر الذي هو سبب وجود الحكم وترتّب العقاب على مخالفته، ونعني بالحكومة أن يخرج مورد الحكم عن كونه مورداً بإدخاله في مورد حكم آخر فلا يشمله الحكم الأوّل؛ لعدم كونه من مصاديقه، لا أن يشمله فيبطل حكمه بعد الشمول بالمضادّة كإبطال الأسباب المتضادّة في الطبيعة بعضها حكم بعض بالمعارضة والغلبة في التأثير، فحقيقة الشفاعة التوسّط في إيصال نفع أو دفع شرّ بنحو الحكومة دون المضادّة»(١).

ومن موارد هذه الحكومة ما ذكره قدس سره بعد ذلك من قوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾(٢) حيث إنّ تبدّل السيّئات إلى حسنات قد يحصل بغير التوبة وقد يحصل بها.

فلو عصى الإنسان ربّه لاستحقّ العقوبة بمقتضى قانون العدالة الإلهية ولكنّه لو تاب واستغفر لما استحقّ العقاب؛ لأنّه سيكون مشمولاً لقانون آخر هو قانون التوبة ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾(٣).

---

(١) **الميزان**، للطباطبائي: ج١، ص١٥٩.

(٢) الفرقان: ٧٠.

(٣) النساء: ٦٤.

وهكذا يكون للتوبة دور الشفيع بل هي أنجح شفيع؛ لقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**لا شفيع أنجح من التوبة**»[١].

ومن هنا يتبيّن أنّ الشفيع على نحوين، فهو إمّا موجود من الموجودات كالملائكة والأنبياء والأئمّة عليهم السلام والمؤمنين، أو عمل من أعمال الإنسان نفسه كالتوبة مثلاً.

ثمّ إنّ التوبة وكما هو واضح لا ترفع العقاب فقط بل تبدّل السيّئات إلى حسنات وورد في بعض الأدعية «**يبدّل حسناتهم درجات**» ولعلّ في هذا إشارة إلى أنّ جزاءهم ليس كمّياً فقط أُشير إليه بالحسنات بل هو جزاء كيفيّ أيضاً من خلال الدرجات التي يُعطَونها حيث إنّ الله سبحانه وتعالى يبدل سيّئاتهم حسنات ويبدل حسناتهم درجات.

ولا ينحصر الأمر في طرق تبديل السيّئات إلى الحسنات بل قد يحدث العكس فيما لو عمل العبد عملاً خاطئاً أو ارتكب ذنباً أو اعتقد اعتقاداً خاطئاً، فلو أشرك المؤمن - والعياذ بالله - فسوف يُحبَط عمله ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٢].

فله سبحانه وتعالى أن يبدّل عملاً بدل عمل كما أنّ له أن يجعل العمل الموجود عدماً؛ قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾[٤].

---

(١) **الكافي**: ج ٨ ص ١٨ من خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام تسمى بالوسيلة.

(٢) الأنعام: ٨٨.

(٣) الفرقان: ٢٣.

(٤) محمّد: ١٠.

وقد أورد صاحب تفسير الصافي قدس سره في ذيل الآية المباركة ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا...﴾ عدّة روايات من باب التطبيق وذكر المصداق، منها: ما ورد في القمّي عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «يبعث الله يوم القيامة قوماً بين أيديهم نور كالقباطي ثمّ يقول له كن هباءً منثوراً. ثمّ قال: أما والله إنهم كانوا يصومون ويصلّون ولكن كانوا إذا عرض لهم شيء من الحرام أخذوه، وإذا ذُكر لهم شيء من فضل أمير المؤمنين عليه السلام أنكروه. قال: والهباء المنثور هو الذي تراه يدخل البيت في الكوّة من شعاع الشمس»[(١)].

وفي البصائر عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه سئل: أعمال مَن هذه؟ فقال: «أعمال مبغضينا ومبغضي شيعتنا»[(٢)].

والحقّ والإنصاف أنّ إنكار فضائل علي عليه السلام مرجعه إلى الجحود والعناد، فإذا كان كذلك فلا ثمرة لعمل المعاند الجاحد ولا يدخل الجنّة من كان في قلبه ذرّة بغض وعناد وإنكار لأهل البيت عليهم السلام، ففي الخصال عن أبي عبدالله عن أبيه عن جدّه عن علي عليهم السلام قال: «إنّ للجنّة ثمانية أبواب... إلى أن قال: وباب يدخل منه سائر المسلمين ممّن يشهد أن لا إله إلاّ الله ولم يكن في قلبه مقدار ذرّة من بغضنا أهل البيت»[(٣)].

---

(١) **تفسير الصافي**، للفيض الكاشاني: ج٤، ص١٠.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) **الخصال**، للصدوق: ج٢، باب الثمانية، ح٦.

ومن موارد الحكومة أيضاً قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[١] والآية على ما يذكر العلاّمة قدس سره[٢] في غير مورد الإيمان والتوبة قطعاً فإنّ الإيمان والتوبة يغفر بهما الشرك أيضاً كسائر الذنوب...

ثمّ إنّ له سبحانه وتعالى أن يكثّر القليل؛ وذلك قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[٤].

كما أنّ له تعالى أن يجعل المعدوم موجوداً ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَان أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[٥].

ولا يقتصر هذا الأمر - ونعني به خروج المورد عن كونه مصداقاً وموضوعاً لحكم ما، إلى حكم آخر - على الجانب التشريعي من الشفاعة فقط، بل يعمّ الجانب التكويني أيضاً.

فقد ينحبس المطر وتجدب الأرض حين لا يستحقّ أهلها نزول المطر عليهم، وحينئذ تكون صلاة الاستسقاء من المستحبّات الأكيدة

---

(١) النساء: ٤٨.
(٢) **الميزان**: ج١، ص١٦١.
(٣) القصص: ٦٥.
(٤) الأنعام: ١٦٠.
(٥) الطور: ٢١.

لهم، حيث يخرجون وبتلك الطريقة الخاصّة فيفصلون بين الأطفال وأُمّهاتهم ويبكون ويتضرّعون ويصلّون صلاة الاستسقاء من أجل نزول المطر عليهم.

إنّ هذه الصلاة لا تُنزِل على هؤلاء الناس المطر من غير سحاب وعن غير الطريق الطبيعي، بل تكون سبباً في أن يبعث الله سبحانه وتعالى لهم السحاب والرياح اللواقح فينزل عليهم المطر.

فصلاة الاستسقاء شفيع ولكنّه لا يبطل القوانين الإلهية، فالمولى يبقى مولى والعبد يبقى عبداً، ومع بعض الذنوب لا يستحقّ الناس نزول المطر من دون صلاة الاستسقاء، ومعها قد يستحقّون أن يمطرهم الله سبحانه وتعالى.

وهكذا في صلة الرحم التي تطيل العمر، فإنّ الله تبارك وتعالى وإن كان قادراً على إطالة عمر الإنسان من دون صلة الرحم، ولكنّه عزّ وجلّ جعل لطول العمر أسباباً منها هذه الصلة، فهي - إذن - شافع في إطالة العمر، ومن دونها لا تشمل الإنسان هذه النفحة وهذه النعمة الإلهية.

ومثل صلة الرحم الدعاء، فإنّ الإنسان إذا أراد أن يكون مشمولاً ببعض فيوضات الله تعالى وعناياته، فلابدّ له من تحقيق الشروط الخاصّة بذلك ومنها التضرّع والدعاء.

ولا ينبغي التصوّر أنّ ألفاظ الدعاء ما هي إلاّ لقلقة لسان وأنّ الله تعالى أعلم بحال عبده وإن لم ينطق بهذه الكلمات، فإنّ هذا التصوّر

خاطئ، إذ لعلّ الله تعالى قد جعل رحمته وعنايته الخاصّة مرتبطة بتكرار هذه الألفاظ، ولعلّ هذا التكرار قائم على أُسس في نظام التكوين.

وقد ورد في الأثر أنّ أحدهم سأل الإمام عليه السلام عن السبب في أنّ الكعبة مربّعة؟ فأجابه عليه السلام: لأنّ البيت المعمور كذلك. فقال: ولمَ كانت قوائم البيت المعمور أو أركانه أربعة؟ فقال عليه السلام: لَأنّ قوائم العرش أربعة. فقال: ولمَ كانت قوائم العرش أربعة؟ فقال عليه السلام: لأنّ الله سبحانه وتعالى يقول: **سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر**[(١)].

إذن، فهذه الرباعية لم تكن إلاّ باعتبار التنزيه وإثبات كلّ صفات الجلال والكمال لله تبارك وتعالى، ولم تكن أمراً جزافياً وبلا حكمة.

وعلى كلّ حال فإنّ الله سبحانه يفعل ما يشاء ولا رادّ لحكمه.

نعم إنّما يفعل لمصلحة مقتضية، وعلّة متوسّطة، ومن جملة هذه العلل والأسباب المتوسّطة شفاعة الشافعين من أنبيائه وأوليائه وغيرهم ممّن أذن لهم بالشفاعة من غير ظلم ولا جزاف.

---

(١) **علل الشرائع**، للشيخ الصدوق رحمه الله (٣٠٥ - ٣٨١ هـ): ج ٢ ص ٣٩٨ ح ٢ ١٣٨ - باب العلّة التي من أجلها سمّيت الكعبة كعبة، منشورات مكتبة الداوري، قم، إيران.

البحث الثالث

الشفعاء

نتحدّث في هذا البحث عمّن تقع منهم الشفاعة (أي الشفعاء) فإنّ لكلّ قسم من أقسام الشفاعة التكوينية والتشريعية شفعاء، وهم:

أوّلاً: شفعاء الشفاعة التكوينية

وشفعاء هذا القسم هم: كلّ الأسباب التي جعلها الله وتعالى والتي تترتّب عليها مسبَّباتها الخارجية.

فالماء والهواء والطعام، وكلّ الوجودات والأسباب الوسطية التي تقع بينه تعالى وبين تحقّق المسبَّب خارجاً هي شافع على مستوى التكوين، وقد مرّ بيان هذا سابقاً.

ثانياً: شفعاء الشفاعة التشريعية

وقبل الحديث عن شفعاء هذا القسم من الشفاعة، نشير إلى أنّ هذه الشفاعة تنقسم إلى قسمين أيضاً وهما:

أ: الشفاعة التشريعية في الدنيا

وتكون هذه الشفاعة على مستوى دفع العقاب لا رفعه، لأنّ النشأة الدنيا ليست نشأة العقوبة «**اليوم عمل ولا حساب**»[(١)] وهكذا يأتي الإنسان يوم القيامة وهو غير مستحقّ للعقاب الذي رفع عنه بسبب ما قام به الشفيع - نفسه أو غيره - من عمل في الحياة الدنيا.

وقد يلتبس الأمر على البعض من خلال ما يجده من ترابط بين العقوبة والشفاعة، فيتساءل عن الحاجة إلى الشفاعة في الدار الدنيا مع أنّها ليست بدار عقاب؟

وللجواب على هذا التساؤل نقول: إنّه وبالإضافة إلى ما سبق ذكره من أنّ أثر الشفاعة في الحياة الدنيا هو على مستوى دفع العقاب لا رفعه، فإنّ الذنوب التي يقترفها الإنسان لا تقتصر آثارها على مقطع معيّن من مقاطع حركته بل تمتدّ إلى مقاطع متعدّدة منها.

وتعتبر الحياة الدنيا، هي المقطع الأوّل الذي يظهر فيه هذا التأثير.

ثمّ وقت الاحتضار، حتّى ورد أنّ للمؤمن احتضاراً وللكافر احتضاراً لا يتساويان فيه.

ثمّ في البرزخ، ثمّ في المحشر، ثمّ عند الميزان، وتطاير الكتب، ثمّ عند الصراط المستقيم، ثمّ عند الحوض، ثمّ آخر هذه المواقف هو

---

(١) **الكافي** للكليني: ج٨ ص٥٨، من خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام.

الموقف المرتبط بالجحيم ونار جهنّم.

وفي ضوء هذه الحقيقة نفهم ما ورد في دعاء ليلة عرفة: «**ياأقدر الأقدرين اغفر لي الذنوب التي تغيّر النعم**»[١] ومن الواضح أنّ هذه النعم هي نعم الحياة الدنيوية مادّية كانت أو معنوية، ومن أعظم النعم المعنوية هي نعمة الإمامة والولاية؛ قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾[٢]، ومن هنا قال المحقّقون إنّ النعمة المطلقة من غير تقييد في القرآن الكريم هي نعمة الإمامة والولاية.

وهكذا يستمرّ الدعاء: «**واغفر لي الذنوب التي تورث الندم واغفر لي الذنوب التي تورث السقم واغفر لي الذنوب التي تهتك العصم واغفر لي الذنوب التي تردّ الدعاء واغفر لي الذنوب التي تحبس قطر السماء واغفر لي الذنوب التي تعجّل الفناء واغفر لي الذنوب التي تكشف الغطاء واغفر لي الذنوب التي لا يغفرها غيرك ياالله، واحمل عنّي كلّ تبعة لأحد من خلقك...**»[٣].

ومثل هذا ما ورد في دعاء «كميل بن زياد» الذي علّمه إيّاه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

«**اللهمّ اغفر لي الذنوب التي تهتك العصم، اللهمّ اغفر لي الذنوب التي**

(١) **مفاتيح الجنان**، دعاء ليلة عرفة، ط: سيّد الشهداء قم: ص٢٥٦.

(٢) المائدة: ٣.

(٣) **مفاتيح الجنان**، دعاء ليلة عرفة، ط: سيّد الشهداء قم: ص٢٥٦.

تنزل النقم، اللهمّ اغفر لي الذنوب التي تغيّر النعم، اللهم اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء اللهمّ اغفر لي الذنوب التي تنزل البلاء اللهمّ اغفر لي كلّ ذنب أذنبته وكلّ خطيئة أخطأتها، اللهمّ إنّي أتقرّب إليك بذكرك وأستشفع بك إلى نفسك وأسألك بجودك...»[١].

وقد ورد أنّ سائلاً سأل الإمام عليه السلام عن سرّ عدم توفيقه - أي السائل - لقيام صلاة الليل، فأجابه الإمام عليه السلام أنّ هذا بسبب ذنوب النهار.

وعن الأكابر من علمائنا أنّ سرّ عدم توفيق الإنسان إلى التركيز في صلاته هو انشغاله بالخواطر غير الرحمانية في كلّ أوقاته فإذا أراد تبديلها إلى خواطر رحمانية أثناء الصلاة لم يستطع.

ومن هنا نفسّر ما يحصل لبعض الناس من توفيق للأعمال الصالحة والنافعة ولفعل الخير أحياناً وكأنّه يعيش في جنّة متحرّكة ثمّ ما يلبث أن يتبدّل حاله فلا يستطيع الإتيان بشيء من تلك الأمور، وما ذلك إلاّ بسبب الأعمال التي تصدر منه، فمنها ما يكون سبباً للتوفيق ومنها ما يمنعه.

وعلى كلّ حال، فإنّ البذرة الأساس للشفاعة لابدّ أن تكون في هذه الدنيا لأنّ «**الدنيا مزرعة الآخرة**»[٢] فإن الإنسان من خلال هذه

---

(١) دعاء كميل، **مفاتيح الجنان**، ط: سيّد الشهداء ـ قم: ص ٦٣.

(٢) **عوالي اللآلي**، ابن أبي جمهور الأحسائي (ت: ق ١٠ هـ): ج ١ ص ٢٦٧ الفصل العاشر - في أحاديث تتضمّن شيئاً من الآداب الإسلامية - الناشر: مطبعة سيد الشهداء، قم، إيران، سنة الطبع ١٤٠٥ هـ.

الدنيا يصل إلى تلك المقامات العالية، فإذا لم يوفّق هنا فلا توفيق له؛ ومن ثمّ قال الإمام علي عليه السلام لمن سمعه يذمّ الدنيا، بأنّ هذه الدنيا سوف يربح فيها قوم ويخسر آخرون ومن أراد أن يذمّ فلا يذمّ إلاّ نفسه[1].

والخلاصة، فإنّ حاجة الإنسان إلى الشفاعة حاجة ثابتة وعلى طول خطّ حركته لأنّ آثار الذنوب التي يرتكبها ليست مختصّة بنار جهنّم فقط، وإنّما هي عامّة وشاملة لكلّ مراحل حياته، التي تبدأ من الدنيا وتستمرّ معه إلى الموقف الأخير من مواقف القيامة التي ذكرت الروايات أنّها خمسون موقفاً، وكلّ موقف ألف سنة ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَة مِمَّا تَعُدُّونَ﴾[2] و ﴿فِي يَوْم كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَة﴾[3]، ولابدّ للإنسان أن يعبرها آنذاك، فمن وفّق في هذه الدنيا واستحقّ شفاعة الشافعين فيها واستطاع أن يتجاوز المحرّمات ويفعل الصالحات ويسلك الطريق الحقّ، تجاوز تلك العقبات والمواقف كالبرق الخاطف، ومن تلكّأ في هذه الدنيا وتثاقل، تلكّأ هناك وتثاقل لا محالة.

---

(١) انظر: **نهج البلاغة**، باب المختار من حكم أمير المؤمنين عليه السلام، رقم ١٣١، دار الهجرة للنشر، قم، إيران.

(٢) الحجّ: ٤٧.

(٣) المعارج:٤.

ب: الشفاعة التشريعية في الآخرة

وتكون هذه الشفاعة على مستوى رفع العقاب الذي يستحقّه العبد المذنب يوم القيامة فيما لو تُرك وذنبه من دون تدخّل الشفيع، لأنّ تلك النشأة نشأة الحساب والعقاب «**وغداً حساب بلا عمل**»(١).

وأمّا شفعاء قسمي الشفاعة التشريعية فهم:

١ - شفعاء الشفاعة التشريعية في الدنيا

أ: الملائكة

فهناك العديد من الآيات التي تثبت هذه الحقيقة في القرآن الكريم، منها:

• قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾(٢).

• وقوله تعالى: ﴿وَالْمَلاَئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الأَرْضِ أَلاَ إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾(٣).

ولأنّ الملائكة لا يسبقون الله تعالى بالقول ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ

---

(١) **الكافي** للكليني: ج٨ ص٥٨، من خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام.

(٢) غافر: ٧.

(٣) الشورى: ٥.

وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾[١] فهم لا يستغفرون إلاّ لمن أذن الله لهم أن يستغفروا له، وفي إذنه تعالى لهم في ذلك دليل على أنّه تبارك وتعالى يريد أن يقبل هذا الاستغفار ويريد أن يستجيب له، وإلاّ لكان هذا الإذن لغواً وعبثاً، وتعالى الله عن ذلك.

ثمّ إنّ قوله تعالى: ﴿... وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الأَرْضِ...﴾[٢] مطلق يوسّع دائرة من يستغفر لهم الملائكة فيشمل الكافر والمنافق والمشرك بالإضافة إلى من ارتضى الله دينهم من المؤمنين، فكيف نوفّق بين هذا القول وبين قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾[٣]، الذي حدّد هذه الدائرة بمن آمن دون غيرهم.

قد يقال بأنّه لا تنافي بين الآيتين فلا حاجة إلى الرجوع إلى التقييد والإطلاق لأنّهما مثبتتان ولا تنافي بين المثبتات - على حدّ قول الأصوليين - فالأولى تثبت دائرة واسعة لمن يشفع لهم، والثانية تثبت دائرة أضيق.

غير أنّ هذا القول لا يصار إليه؛ لقيام عدّة أدلّة على خلافه، إمّا لتقييد الإطلاق في آية سورة الشورى أو لنفي الإطلاق أساساً، ومن هذه الأدلّة:

---

(١) الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٧.

(٢) الشورى: ٥.

(٣) غافر: ٧.

الدليل الأوّل: هو ما ورد في سورة الأنبياء ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾[١] فالملائكة - إذن - لا يسبقون الله تعالى بالقول ولا يخرجون عن أمره، ومن البديهي أن لا يأذن الله تعالى ولا يأمر بأن يُستغفر للمشرك؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ..﴾[٢] وقال: ﴿وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾[٣] وقال: ﴿فَإِنَّ اللهَ لاَ يَرْضَى عَنْ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾[٤]- أي المنافقين - .

ومن هنا، فإنّنا حتّى لو فرضنا أنّ آية سورة الشورى مطلقة فلابدّ من تقييدها بآية سورة الأنبياء.

الدليل الثاني: ويبتني هذا الدليل على قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَشْفَعُونَ إلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾[٥] وحيث إنّ الله تعالى بيّن أنّه لا يرضى لعباده الكفر ﴿وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾[٦] وأنّه لا يرضى عن القوم الفاسقين والمنافقين ﴿فَإِنَّ اللهَ لاَ يَرْضَى عَنْ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾[٧] فيتحصّل عندنا أنّ الملائكة لا يشفعون للكفّار والفاسقين والمنافقين وأنّه لابدّ لنا من

(١) الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٧.
(٢) النساء: ٤٨.
(٣) الزمر: ٧.
(٤) التوبة: ٩٦.
(٥) الأنبياء: ٢٨.
(٦) الزمر: ٧.
(٧) التوبة: ٩٦.

تقييد آية سورة الشورى ﴿.. وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الأَرْضِ..﴾[1] بقوله تعالى: ﴿وَلاَ يَشْفَعُونَ إلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾[2]. فلا تبقى تلك الآية على إطلاقها.

الدليل الثالث: يقوم هذا الدليل على القول بأنّ آية: ﴿وَالْمَلاَئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الأَرْضِ...﴾[3]، لا إطلاق فيها أساساً، لأنّ المراد من قوله تعالى: ﴿.. لِمَنْ فِي الأَرْضِ..﴾ ليس مطلق من في الأرض، بل الذين آمنوا منهم والذين هم مرضيّو الدين عند الله تبارك وتعالى خاصّة.

بيان ذلك: أنّ القرآن الكريم والروايات الشريفة قد بيّنت أنّ الإيمان نور – معنوي – وأنّ الكفر ظلمة – معنوية – ؛ قال تعالى: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلَى النُّور وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إلَى الظُّلُمَاتِ﴾[4].

فعن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «**نوّروا بيوتكم بتلاوة القرآن..**»[5].

---

(١) الشورى: ٥.

(٢) الأنبياء: ٢٨.

(٣) الشورى: ٥.

(٤) البقرة: ٢٥٧.

(٥) **الكافي**، ط: طهران: ج٢، ص٤٤٦، كتاب فضل القرآن، باب البيوت التي يقرأ فيها، ح ١.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**البيت الذي يقرأ فيه القرآن ويذكر الله عزّ وجلّ فيه، تكثر بركته وتحضره الملائكة وتهجره الشياطين ويضيء لأهل السماء كما تضيء الكواكب لأهل الأرض...**»[١].

ثمّ إنّ الملائكة وباعتبارهم موجودات مجرّدة عن المادّة لا ينظرون إلى أهل الأرض بأعين مادّية، بل ينظرون إليهم ويرونهم من خلال الملكوت والبصيرة فيرون منهم من له نور الإيمان فقط ولا يرون من كان ظلمة من الكافرين.

فيكون المراد حينئذ من قوله تعالى: ﴿.. مَنْ فِي الأَرْضِ..﴾ بالنسبة إلى الملائكة هم الذين آمنوا فقط لأنّهم لا يرون غيرهم من المشركين والمنافقين وإن كان ﴿.. مَنْ فِي الأَرْضِ..﴾ بالنسبة لنا هم كلّ الناس من المؤمنين والمشركين.

فلا تنافي - إذن - بين قوله تعالى: ﴿.. وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا..﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿.. وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الأَرْضِ..﴾[٣] لأنّ الملائكة لن يستغفروا إلاّ للمؤمنين الذين ارتضاهم الله وأذن في الاستغفار لهم لأنّهم لن يستطيعوا رؤية غيرهم على الأرض.

---

(١) **الكافي**: ج٢، كتاب فضل القرآن، باب البيوت التي يقرأ فيها، ص٤٤٦، ح٣.

(٢) غافر: ٧.

(٣) الشورى: ٥.

ب: الأنبياء

وفي القرآن الكريم العديد من الآيات الشريفة التي تشير إلى أنّ الأنبياء عليهم السلام والمرسلين يطلبون الشفاعة والاستغفار لأممهم أو لبعض أُممهم.

والأنبياء عليهم السلام كالملائكة عباد مكرمون لا يسبقون الله بقول أو بفعل؛ لعصمتهم، ومن هنا فإنّهم لا يطلبون الشفاعة ولا يستغفرون إلاّ لمن ارتضى الله دينه وأذن لهم بالاستغفار له. ولأنّه سبحانه وتعالى أذن بالاستغفار فإنّه يقبله، وإلاّ للزم العبث - سبحانه وتعالى عن ذلك - .

• ومن الآيات القرآنية الدالّة على شفاعة الأنبياء ما حكاه القرآن الكريم على لسان عيسى عليه السلام: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِـهِ أَنْ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(1). وهذا اللسان لسان من يريد أن يطلب العفو والمغفرة للعباد من خلال التحنّن والاسترضاء والاسترحام وأنّ الأمر راجع إلى الله تبارك وتعالى العزيز الحكيم الذي يقرّر مصير هذا العبد الضعيف المسكين.

• ومنها قوله تعالى بشأن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ

---

(١) المائدة: ١١٧ ـ ١١٨.

رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنْ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(١) فمن تبع إبراهيم عليه السلام فإنّه منه ولا يستحقّ العقوبة ولا يحتاج إلى طلب المغفرة والشفاعة، وأمّا الذي عصاه فإنّه يستحقّ العقاب الذي لم يذكره القرآن الكريم وإنّما ذكر لازمه من خلال طلب المغفرة - لمن عصى - من الله تعالى الغفور الرحيم أي من خلال أسمائه التي فيها الرحمة والمغفرة لا التي فيها الانتقام والشدّة، على ما مضى بيانه.

• ومنها قوله تعالى بشأن يعقوب عليه السلام وأبنائه: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾(٢). ولأهل المعرفة قول بأنّ يعقوب عليه السلام لم يستغفر لهم مباشرة وإنّما أجّل ذلك إلى صلاة الليل التي هي من مظانّ الاستجابة؛ ولذا عبّرت الآية المباركة بـ ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ..﴾.

شفاعة الرسول الخاتم صلى الله عليه وآله

وإذا ثبت مقام الشفاعة للأنبياء عليهم السلام بصورة عامّة وفيهم من ليس بنبي من أُولي العزم، فإنّ هذا المقام ثابت بالأولوية القطعية للرسول الأعظم صلى الله عليه وآله لأنّه أفضل الأنبياء جميعاً.

---

(١) إبراهيم: ٣٥ ـ ٣٦.

(٢) يوسف: ٩٧ ـ ٩٨.

فعلى نحو العموم، تكون الآيات الدالّة على ثبوت الشفاعة للأنبياء عموماً دالّة على شفاعة النبي محمّد صلى الله عليه وآله.

وعلى نحو الخصوص، فإنّ هناك آيات واردة بشأنه صلى الله عليه وآله خاصّة، منها قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُول إلاَّ لِيُطَاعَ بِـإِذْن اللهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾(١) فالآية الشريفة ظاهرة في شفاعة الرسول صلى الله عليه وآله وأنّ أثر شفاعته هو وجدان المغفرة وتحقّقها؛ لقوله تعالى: ﴿لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾ لا أنّ هذا الطلب بالمغفرة كطلب الآخرين لها الذي قد يتحقّق وقد لا يتحقّق.

ج: التوبة

وتختصّ شفاعة التوبة بالدار الدنيا، وهي أفضل شفيع للإنسان؛ ومن هنا ورد: «**لا شفيع أنجح من التوبة**»(٢).

أمّا اختصاصها بالدار الدنيا دون الآخرة فلأنّ التوبة عمل من أعمال الإنسان، والدنيا دار الأعمال بينما الآخرة دار الحساب لا العمل.

وأمّا كونها أفضل شفيع للإنسان مع وجود غيرها من الشفعاء كالملائكة والأنبياء عليهم السلام، فلأنّ غيرها محدّد بحدود معيّنة لا يتعدّاها.

---

(١) النساء: ٦٤.

(٢) **الكافي**: ج ٨ ص ١٨ من خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام تسمى بالوسيلة.

فلا يتصوّر في الوجود شافع فوق (أشفع الشافعين) تبارك وتعالى، ومع ذلك فإنّ شفاعته يوم القيامة لا تشمل من يموت مشركاً؛ لقوله تعالى، وقوله الحقّ: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾(١). وأما ما دون (أشفع الشافعين) من الشفعاء كالملائكة والأنبياء فإنّ لشفاعتهم شروطاً وحدوداً لا يتعدّونها، فهم لا يستغفرون إلاّ لمن ارتضى الله دينه وإلاّ لمن كان بينه وبين الله عهد، وإلاّ لمن شهد بالحقّ وهكذا.. فلا إطلاق في شفاعتهم.

ومن هنا خاطب الله تعالى نبيّه بشأن المنافقين قائلاً: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾(٢) ولا يعني ذلك أنّ الرسول صلى الله عليه وآله كان يستغفر للكفّار والمنافقين، وإنّما على فرض أنه صلى الله عليه وآله استغفر لهم فإنّ استغفاره لن ينفعهم لأنّهم كفروا بالله ورسوله، وبتعبير آخر: إن عدم نفع الاستغفار في هذه الحالة هو لعجز في القابل (أي المشفوع له) لا في الفاعل (أي الشفيع). ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾(٣).

---

(١) النساء: ٤٨.

(٢) التوبة: ٨٠.

(٣) التوبة: ١١٣.

وأمّا استغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه مع أنّه من المشركين فقد أجاب عنه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾(١).

وأمّا التوبة فإنّها شافعة للإنسان حتّى من الشرك والكفر والنفاق، وهذا ما يستفاد من مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾(٢).

وما يتراءى من تعارض بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ..﴾(٣) إذ أخرجت هذه الآية الشرك الذي أدخلته الآية السابقة، فقد رفعته الآية اللاحقة لآية ﴿قُلْ لِعِبَادِي...﴾ وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ ثُمَّ لاَ تُنْصَرُونَ﴾(٤)، حيث يتبيّن أنّ الله تعالى يغفر الذنوب جميعاً ولكن من خلال الإنابة والتوبة والرجوع إليه، وبدون التوبة والإنابة لا معنى لغفران الذنوب جميعاً.

وهكذا يتبيّن أنّ دور التوبة بشرائطها ومعناها الصحيح أعظم بمراتب من استغفار غيرها من الشفعاء، وهذا معنى قوله عليه السلام:

---

(١) التوبة: ١١٤.

(٢) الزمر: ٥٣.

(٣) النساء: ٤٨.

(٤) الزمر: ٥٤.

«لا شفيع أنجح من التوبة»[١].

ولكنّها من ناحية أُخرى أضيق ظرفاً من شفاعة أشفع الشافعين والأنبياء والملائكة والبعض الآخر من الشفعاء لأنّها مختصّة بالدار الدنيا ولا يمتدّ تأثيرها إلى الدار الآخرة، فمن مات ولم يتب لا يسعه التوبة بعد ذلك أبداً وقد تشمله شفاعة الشفعاء الآخرين.

د: العمل الصالح

ومن الشفعاء في الحياة الدنيا العمل الصالح، وذلك قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾[٣] وغيرها من الآيات المباركة.

هـ: القرآن الكريم

وهو من أهمّ الشفعاء في هذه النشأة؛ قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[٤].

---

(١) **الكافي**: ج ٨ ص ١٨ من خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام تسمى بالوسيلة.

(٢) المائدة: ٩.

(٣) المائدة: ٣٠.

(٤) المائدة: ١٦.

ولقراءة القرآن أثر ونعمة فضلاً عن العمل به وتطبيقه، ومن هنا وردت الروايات في فضائل سوره المباركة من زيادة علم أو رزق أو دفع سوء وغير ذلك من البركات والنعم الإلهية الكثيرة.

و: المؤمنون

وللمؤمنين شفاعة تتمّ من خلال استغفارهم لأنفسهم ولإخوانهم المؤمنين؛ قال تعالى حكاية عنهم: ﴿..وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[١].

ز: شفعاء آخرون

ومن الشفعاء في هذه النشأة أيضاً كلّ ما له ارتباط بعمل صالح، والمساجد والأمكنة المتبرّكة والأيّام الشريفة[٢].

٢ ـ شفعاء الشفاعة التشريعية في الآخرة

ومن أهمّ الشفعاء في الآخرة ما يلي:

أ: الأنبياء عليهم السلام

للأنبياء عليهم السلام شفاعة في الدنيا على ما سبق ذكره، ولهم

(١) البقرة: ٢٨٦.

(٢) راجع **الميزان**، للطباطبائي: ج١، ص١٧٢، ط: طهران.

شفاعة في الآخرة أيضاً، ومن الآيات التي تثبت الشفاعة لهم عليهم السلام، قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يَشْفَعُونَ إلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾(١) فإنّ منهم عيسى بن مريم عليهما السلام وهو نبي.

وقوله تعالى: ﴿وَلاَ يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(٢) ولا شكّ في شهادة الأنبياء بالحقّ.

وقوله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الأعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيَماهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ * أَهَؤُلاَءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمْ اللهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾(٣).

والآية الأخيرة في هذا المقطع القرآني الشريف تدلّ على أنّ (رجال الأعراف) هؤلاء بيدهم الجنّة؛ لقوله تعالى حكاية عنهم في مخاطبتهم للمنتظرين: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾(٤).

وهؤلاء هم الشفعاء من الأنبياء والأئمّة والأولياء عليهم السلام،

---

(١) الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٨.

(٢) الزخرف: ٨٦.

(٣) الأعراف: ٤٨ ـ ٤٩.

(٤) الأعراف: ٤٩.

وهم غير (أصحاب الأعراف) المرجون لأمر الله الذين لا تساعدهم أعمالهم على دخول الجنّة ولا يستحقّون دخول النار، فهم في هذا متحيّرون ينتظرون أمر الله تعالى فيهم.

ب: الملائكة

وهم من شفعاء الدنيا والآخرة أيضاً، ومن الآيات الدالّة على شفاعتهم، قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾(١) وهذه هي شفاعة الملائكة في الدنيا، ثمّ أخبرت الآية حكاية عن الملائكة: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾(٢) ومن الواضح أنّ هذا الدعاء لرفع العقاب لا لرفع الدرجة في الجنّة.

ج: الشهداء

وهم من شفعاء الآخرة أيضاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَلاَ يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(٣).

فكلّ شهيد شفيع، والمراد بالشهيد هنا هو الشهيد بالاصطلاح

---

(١) غافر: ٧.

(٢) غافر: ٧.

(٣) الزخرف: ٨٦.

القرآني الذي يعني الشاهد على الأعمال، لا المعنى الفقهي للشهيد الذي يعني المقتول في سبيل الله في معركة القتال بالشرائط المذكورة في باب الجهاد.

فالله سبحانه وتعالى شهيد على الناس: ﴿وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً﴾[(١)].

والأنبياء عليهم السلام شهداء: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاَءِ شَهِيداً﴾[(٢)].

والأئمّة عليهم السلام شهداء: ﴿قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾[(٣)].

والملائكة شهداء: ﴿أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً﴾[(٤)].

والمؤمنون شهداء: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمْ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾[(٥)].

---

(١) النساء: ٧٩.

(٢) النساء: ٤١.

(٣) الرعد: ٤٣.

(٤) النساء: ١٦٦.

(٥) الحديد: ١٩.

البحث الرابع

في المشفوع لهم

الضابطة الكلّية في تحديد المشفوع لهم

إنّ الضابطة الكلّية التي يجب الانتباه لها في هذا البحث هي: أنّ القرآن الكريم لم يعيّن شخصاً معيّناً أو جماعة معيّنة أو ذنباً معيّناً تشمله الشفاعة على نحو التحديد، لأنّ لازم مثل هذا التحديد هو نقض الغرض الذي أُنزلت من أجله الشرائع وبلّغها الأنبياء والرسل إلى الناس، وسوف نتعرّض إلى هذا البحث في الإشكالات المثارة على الشفاعة، إن شاء الله تعالى.

وعلى هذا، فإنّ القرآن الكريم قد عرّف من تشملهم الشفاعة من خلال بيان الشروط والضوابط التي تنطبق عليهم، وأمّا مَن تنطبق عليه هذه الشروط فمبهم ومجمل من أجل أن يبقى الإنسان بين الخوف والرجاء.

وقد يثار تساؤل حول الآية المباركة ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾[1] بأنّ هذه الآية وإن لم تعيّن شخصاً ما أو جماعة ما إلاّ أنّها بيّنت أنّ الإنسان وباجتنابه الكبائر تُغفر له الصغائر، فما عليه إلاّ أن يشخّص الكبائر - بمعونة الآيات والروايات - فيجتنبها، وأمّا الصغائر فبإمكانه أن يرتكبها وكيفما يشاء معتمداً على الوعد الإلهي بمغفرتها، وما هذا إلاّ نقض للغرض الإلهي فيما يرتبط بالصغائر خاصّة.

والحقّ أنّ هذه الآية لا تبعث على التجرّي ولا على نقض الغرض؛ لأنّها أشارت إلى قضايا حقيقية لا خارجية، فهي تقول: - والله أعلم - إنّ من جاءنا يوم القيامة ولم يرتكب الكبيرة نكفّر عنه ما ارتكبه من الصغائر، ولكن من الذي يستطيع أن يدّعي بأنّه قد اجتنب جميع الكبائر ليبيح لنفسه فعل الصغائر؟

فلعلّ هناك جملة من الذنوب يتصوّرها الإنسان صغائر وهي كبائر.

ثمّ لنفترض أنّ باستطاعة الإنسان أن يدّعي بأنّه لم يرتكب كبيرة فهل بإمكانه أن يقطع بأنّه لن يرتكبها إلى آخر عمره؟

ومع كلّ هذا فإنّ الله تعالى لم يعد من توفّرت فيه الشروط بالشفاعة على نحو الجزم بل ربط ذلك بمشيئته عزّ وجلّ، فهو يشفع

---

(١) النساء: ٣١.

لمن يشاء وقد لا يشاء، فوعده تعالى على هذا النحو يجعل الإنسان بين الخوف والرجاء لا أن يقطع بأنّه مشفوع له لا محالة.

والخلاصة فإنّ القضية الحقيقية الشرطية (إذا اجتنب الإنسان الكبائر غفرت له الصغائر) قضية صادقة ومع ذلك لا يلزم منها جرأة العبد على ارتكاب الصغائر البتة.

شروط من تشملهم الشفاعة

إنّ الشرط الأساسي الذي بيّنه القرآن الكريم لمستحقّ الشفاعة هو ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَشْفَعُونَ إلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾[١] فلا تنال شفاعة الشافعين أحداً إلاّ لمن ارتضاه الله سبحانه وتعالى، فمن هو المرضيّ عند الله حقّاً؟

المرضيّ عند الله تعالى

إنّ أوضح آية بيّنت مَن هو المرضيّ عند الله سبحانه وتعالى، هي قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾[٢] فالمرضيّ عند الله سبحانه وتعالى هو «الإسلام»، وأمّا هل الإسلام الذي ذكرته الآية الشريفة هو الإسلام

---

(١) الأنبياء: ٢٨.

(٢) المائدة: ٣.

الخاصّ أو مطلق الإسلام، فذاك بحث آخر[1].

وعلى كلّ حال، فإنّ الضابط الأوّل والأساس لشمول الشفاعة هو أن يكون مرضيّاً، والرضا إنّما يتحقّق من خلال الإسلام ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾[2].

وأمّا من كفر فإنّ الله سبحانه وتعالى لا يرضى لعباده الكفر ولن يرضى عن الكافرين، وهو قوله تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾[3] فلا تشمل الشفاعة - حينئذ - ولا يؤذن لأحد من الشافعين في أن يشفع لمن لم يرض الله تعالى عنه أبداً.

الرضا عن العلم أو عن العلم والعمل؟

قلنا إنّ أمر الشفاعة يدور مدار الرضا الإلهي، وإنّ هذا الرضا يدور مدار الإسلام الكامل، فهل المشفوع له والمرضيّ عند الله تعالى، هو المرضيّ عنه علماً وعملاً، اعتقاداً وسلوكاً، أو المرضيّ عنه علماً وديناً فقط وإن كان من حيث السلوك قد خلط عملاً صالحاً وآخر سيّئاً؟

وقبل الإجابة على هذا التساؤل، لابدّ من الإشارة إلى أنّ الشفاعة

---

(١) وقد بيّنا في محلّه من البحث أنّ الإسلام الذي أشارت إليه آية سورة المائدة المباركة هو الإسلام الذي يتضمّن الإمامة والولاية وأنّ إكمال الدين إنّما كان من خلال الإمامة والولاية.

(٢) المائدة: ٣.

(٣) الزمر: ٧.

المتحدّث عنها هنا هي الشفاعة الرافعة للعقاب لا الدافعة له ولا التي في موارد زيادة الثواب .

وحينئذ نقول: إنّ المراد من «الارتضاء» وكما هو واضح، الارتضاء اعتقاداً لا اعتقاداً وعملاً، وإلاّ لكان هذا الإنسان - على حدّ تعبير القرآن الكريم - من «الأبرار» و «المقرّبين»، فإذا صار كذلك ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾(١) ولا معنى للشفاعة في حقّه حينئذ، ولا يحتاج إليها.

فمن كان مرضيّاً عند الله اعتقاداً وديناً، وخلط في سلوكه بين الصالح والسيئ استحقّ العقوبة، ومن ثمّ يكون مورداً للشفاعة التي قد تشمله فترفع عنه العقاب(٢)؛ قال تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(٣) .

---

(١) الواقعة: ٨٩.

(٢) وهكذا تبيّن أن ليس كلّ مرضيّ عند الله معصوماً، بل من المرضيّ من هو ليس بعادل فضلاً عن أن يكون معصوماً لأنّ الرضا قد ينسجم حتّى مع المعصية في كثير من الأحيان؛ ومن هنا فلا دلالة في قوله تعالى:﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنْ الْمُؤْمنينَ إذْ يُبَايعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَة﴾ (الفتح: ١٨) على عصمة من رضي الله عنهم، بلَ لا يستلزم ذلك حتّى عدالتهم؛ لما بيّناه من أنّ الرضا قد يحصل حتّى في الموارد التي يصدر فيها من العبد عمل سيّئ إلى جنب العمل الصالح.

(٣) التوبة: ١٠٢.

الشفاعة لأهل الكبائر من أصحاب اليمين

أثبتنا سابقاً أنّ الشفاعة هي للمذنبين من أصحاب اليمين وإلاّ إذا لم يكن العبد مذنباً لا علماً ولا عملاً فهو من السابقين الذين لا حاجة لهم إلى الشفاعة، وإذا كان من أصحاب الشمال فمصيره النار ولا تنفعه شفاعة أحد.

ثمّ إنّ الشفاعة تنال كبائر الذنوب؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾(١) فمن كان له ذنب باق إلى يوم القيامة فهو لا محالة من أهل الكبائر، إذ لو كانت ذنوبه من الصغائر فقط لكان مكفّراً عنها.

ومن هنا يتّضح أنّ الشفاعة لأهل الكبائر من أصحاب اليمين، حتّى ورد عن الرسول صلى الله عليه وآله: «**إنّما شفاعتي لأهل الكبائر من أُمّتي فأمّا المحسنون فما عليهم سبيل**»(٢).

قد يقال: بأنّ قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾(٣) لو أُريد الأخذ بعمومه وإطلاقه فإنّ معناه أنّ من خلط عملاً صالحاً وآخر سيّئاً فهو فاسق، وإذا كان فاسقاً كان غير مرضيّ عنه، وإذا كان غير مرضيّ عنه فلا تشمله الشفاعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ

---

(١) النساء: ٣١.

(٢) **بحار الأنوار**: ج ٨ ص ٣٤ باب ٢١ الشفاعة.

(٣) التوبة: ٩٦.

ارْتَضَى﴾[1].

إلاّ أنّ التحقيق في آية سورة التوبة يتطلّب تحديد المراد من (الفاسقين) فيها، فهل هم عموم من صدر منهم الفسق أم هم المنافقون؟

فإذا كان المراد من «الفاسقين» في الآية مطلق من صدرت منه المعصية فلابدّ من رفع التعارض بينها وبين قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَشْفَعُونَ إلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾، وقوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[2].

وأمّا إذا كان المراد من «الفاسقين» فيها خصوص المنافقين، فحينئذ يتبيّن لنا أنّ المنافقين لا تشملهم الشفاعة لأنّهم وإن كانوا بحسب الظاهر من المسلمين إلاّ أنّهم وبحسب الاعتقاد والباطن والسريرة ليسوا بمسلمين، ولا مرضيّين عند الله تبارك وتعالى، ولا تعارض بين هذه الآية وبين غيرها من الآيات الدالّة على شمول الشفاعة لصحيحي الاعتقاد وإن صدرت منهم الذنوب الموجبة للعقاب.

وبالرجوع إلى الآيات السابقة[3] على الآية مورد البحث، وهي

(١) الأنبياء: ٢٨.

(٢) التوبة: ١٠٢.

(٣) الآيتان ٩٤، ٩٥ من سورة التوبة.

﴿فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يَرْضَى عَنْ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾، نجد قوله تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ لأنّهم ولنفاقهم لم يخرجوا مع الرسول صلى الله عليه وآله إلى الحرب والجهاد ﴿قُلْ لاَ تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ﴾ لأنّكم منافقون وكاذبون وليس لقولكم ولا لاعتذاركم واقع ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ ولا تعاتبوهم ولا تؤنّبوهم ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ لا أنّ أعمالهم رجس فقط ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فكيف يكون مثل هؤلاء من المرضيين عند الله تعالى، وإن كانوا ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يَرْضَى عَنْ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾(١) أي المنافقين.

فلا تعارض بين الآيات الشريفة - إذن - لأنّ المراد هنا خصوص المنافقين الذين هم ليسوا بصحيحي الاعتقاد في الواقع والمراد هناك من صحّ اعتقاده وإن خلط عملاً صالحاً وآخر سيّئاً.

ولمزيد بيان نقول: قسّم القرآن الكريم الناس يوم القيامة إلى ثلاث طوائف على ما ورد في أوائل سورة الواقعة وهي قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاَثَةً﴾(٢)، وهذه الأزواج الثلاثة هي:

---

(١) التوبة: ٩٦.

(٢) الواقعة: ٧.

١ - أصحاب الميمنة أو اليمين في قوله تعالى: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾[(١)].

٢ - أصحاب المشأمة أو الشمال في قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾[(٢)].

٣ - السابقون المقرّبون في قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾[(٣)].

فأمّا السابقون المقرّبون فقد وصفهم القرآن الكريم بأنّهم ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيم﴾[(٤)] ولا حاجة لهذا القسم إلى الشفاعة أصلاً - كما هو واضح - لأنّهم مرضيّون علماً وديناً وعملاً وسلوكاً ومن المقرّبين، ومن هنا طبّق أهل البيت عليهم السلام هذه الآيات عليهم (عليهم السلام) لدلالتها على العصمة.

وأمّا أصحاب المشأمة فهم من الهالكين لا محالة؛ قال تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سَمُوم وَحَمِيم * وَظِلّ مِنْ يَحْمُوم﴾[(٥)] فلا تنفعهم شفاعة الشافعين.

وأمّا أصحاب الميمنة فهم من الناجين أيضاً؛ قال تعالى:

---

(١) الواقعة: ٨.

(٢) الواقعة: ٩.

(٣) الواقعة: ١٠ ـ ١١.

(٤) الواقعة: ٨٨ - ٨٩.

(٥) الواقعة: ٤١ - ٤٣.

﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ﴾[١]. وقال تعالى: ﴿إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ * فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾[٢].

ولكنّهم ليسوا على مستوى المقرّبين السابقين من حيث ارتضاء العلم والعمل وإلاّ لما كانوا قسماً في قبالهم، فلابدّ أن يكونوا من أصحاب الاعتقاد الصحيح الذين خلطوا عملاً صالحاً بآخر سيّئ ثمّ نجوا بفضل الشفاعة، ولو كان اعتقادهم باطلاً وغير مرضيّ عند الله لكانوا من أصحاب المشأمة الهالكين بكفرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ﴾[٣].

وبالإمكان الاستدلال على هذا المطلب بعدّة أدلّة أُخرى:

أوّلاً: قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لاَ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾[٤].

بتقريب أنّ الآية أشارت إلى أنّ الشفاعة تنفع من كان قوله مرضياً عند الله تعالى من دون اشتراط العمل معه.

غير أنّ (القول) هنا ليس هو الألفاظ المجرّدة وإلاّ لكان المنافق مرضياً عند الله تعالى أيضاً، بل لابدّ من حكاية القول عن الإيمان

(١) الواقعة: ٢٧ ـ ٢٨.

(٢) المدثّر: ٣٩ ـ ٤٠.

(٣) البلد: ١٩ ـ ٢٠.

(٤) طه: ١٠٩ – ١١٠.

والاعتقاد الثابت، وهذا ما أشارت إليه آيات سورة إبراهيم في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(١).

إذ المراد بالكلمة الطيّبة التي شبّهت بشجرة طيّبة هو الاعتقاد الحقّ الثابت، فإنّه تعالى يقول بعد ذلك في نهاية الآيات وكالنتيجة المأخوذة من التمثيل: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ...﴾(٢)، فالقول هو الكلمة وليس كلّ كلمة بما هي لفظ بل بما هي معتمدة على اعتقاد وعزم يستقم عليه الإنسان ولا يزيغ عنه عملاً.

وقد تعرّض تعالى لما يقرب من هذا المعنى في مواضع أُخرى كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٣).

وهذا القول والكلمة الطيّبة هو الذي يرتّب تعالى عليه تثبيت أهله في الدنيا والآخرة وهم المؤمنون.

والخلاصة: أنّ المراد من القول هو الكلم الطيّب والكلم الطيّب هو الاعتقاد الحقّ، فلا يكفي أن يكون لفظ الإنسان مرضيّاً عند الله تعالى بل لابدّ أن يكون هذا اللفظ حاكياً عن اعتقاد ثابت وراسخ في النفس

---

(١) إبراهيم: ٢٤ ـ ٢٥.

(٢) إبراهيم: ٢٧.

(٣) الأحقاف: ١٣.

لكي يثبت الارتضاء لصاحبه وتشمله الشفاعة وإن خلط عملاً صالحاً وآخر سيّئاً.

ثانياً: وهذا الدليل هو من الأدلّة المهمّة أيضاً ويمكن توضيحه من خلال قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً * وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً * لاَ يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً﴾[1].

حيث قسّمت الآية المباركة الناس إلى طوائف ثلاث:

الطائفة الأولى: وهي طائفة المتّقين: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً﴾ ولا تحتاج هذه الطائفة إلى الشفاعة لأنّها مرضية عند الله قولاً وفعلاً.

الطائفة الثانية: وهي طائفة المجرمين الذين لا عهد لهم عند الرحمن: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً * لاَ يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ﴾ فهؤلاء يدخلون جهنّم ولا شفاعة لهم.

الطائفة الثالثة: وهي طائفة المجرمين الذين لهم عند الرحمن عهد: ﴿إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً﴾[2] وهؤلاء يملكون الشفاعة التي استثني منها أصحاب الطائفة الثانية.

---

(١) مريم: ٨٥ ـ ٨٧.

(٢) مريم: ٨٧.

البحث الخامس

بماذا تتعلق الشفاعة؟

تنقسم الشفاعة على ما سبق بيانه إلى قسمين، ولكلّ قسم منها متعلّقه الخاص به، كما يلي:

أوّلاً: الشفاعة التكوينية: وتتعلّق بكلّ سبب تكويني في عالم الأسباب.

ثانياً: الشفاعة التشريعية: ويتعلّق ما يختصّ منها في الحياة الدنيا إمّا بعقاب كلّ ذنب من الشرك فما دونه كشفاعة التوبة والإيمان قبل يوم القيامة.

أو يتعلّق بتبعات بعض الذنوب كبعض الأعمال الصالحة.

وأمّا ما يختصّ من الشفاعة في الحياة الآخرة فقد يتعلّق برفع العقاب عمّن استحقّه بالحساب وهم أهل المعاصي الكبيرة ممّن يدين بدين الحقّ وقد ارتضى الله دينه.

وقد يتعلّق بالثواب ورفع درجات المؤمنين في الجنّة.

البحث السادس

متى تنفع الشفاعة؟

للشفاعة آثار ومنافع يختلف زمن تحقّقها وحصولها من قسم إلى آخر، وعلى هذا:

فإنّ أثر الشفاعة التكوينية حاصل من خلال تحقّق المسبّبات عن أسبابها في أي وقت كان.

وأمّا الشفاعة التشريعية الدافعة للعقاب - فقد سبق أن قلنا - إنّ ظرف تحقّقها هو الحياة الدنيا.

وتبقى الشفاعة التشريعية الرافعة للعقاب، حيث لا دليل على تحقّق آثارها عند الاحتضار أو في البرزخ أو المحشر أو أي موقف قبل الموقف الأخير في يوم القيامة إن لم نقل بقيام الدليل على انحصارها في الخلاص من رهانة النار، كما في قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْس بِـمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إلاَّ أَصْحَابَ اليَمِينِ * فِي جَنَّات يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾[1].

---

(١) المدثّر: ٣٨ ـ ٤٢.

وأمّا ما ورد بشأن حضور النبي صلى الله عليه وآله والأئمّة عليهم السلام عند موت المؤمن وعند سؤاله في القبر وإعانتهم له آنذاك فهو من قبيل التصرّفات والحكومة الموهوبة لهم بإذن الله تعالى لا من قبيل الشفاعة.

وهكذا أيضاً يُفسّر ما ورد من أنّ بعض أعمال الإنسان الصالحة قد تخفّف عنه آثار الذنوب في البرزخ والمحشر، فهذا ليس من شفاعة الشافعين بشيء.

فالمؤكّد من أمر الشفاعة وقوعها في آخر موقف من مواقف يوم القيامة باستيهاب المغفرة للمنع عن دخول النار أو إخراج بعض من دخلها برحمة الله وكرامة الشافعين من بعد إذنه تبارك وتعالى.

الفصل الثاني

أهمّ الإشكالات

المثارة على الشفاعة وردّها

الأسباب التي أدّت إلى إثارة الإشكالات على الشفاعة

لا شكّ أنّ العقل لا يحكم بالشفاعة حكماً ضرورياً كحكمه بضرورة وجود المبدأ أو المعاد أو الوحي أو النبوّة.

غير أنّ للعقل أن يبحث في إمكان وقوع الشفاعة أو عدمه، حتّى إذا قام الدليل العقلي على إمكان وقوعها وعدم استحالتها كان الدليل النقلي دالاًّ على وقوعها؛ ذلك لأنّ الإمكان أعمّ من الوقوع. وأمّا إذا أثبت العقل امتناع الوقوع والتحقّق ودلّ ظاهر النقل على الوقوع والتحقّق صرفنا ظهور المنقول إلى معنى آخر مناسب.

ومن هنا حاول المنكرون للشفاعة أن يذكروا مجموعة من الأدلّة العقلية والنقلية لإثبات امتناع وقوعها من أجل أن يصرفوا الآيات الدالّة عليها عن ظهورها، مثلما نصرف ظهور قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[1] في أنّ لله تعالى يداً مبسوطة إلى أنّ له تعالى القدرة أو العلم وما شابه؛ لقيام الدليل العقلي على استحالة أن يكون لله تعالى يد أو جسم...

---

(١) المائدة: ٦٤.

وهكذا في قوله تعالى ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾[1] إذ يصرف الظهور في مجيء الله تعالى إلى مجيء أمر الله أي (وجاء أمر ربّك) وغير ذلك من الآيات العديدة المشابهة.

وقبل التعرّض إلى أهمّ الإشكالات التي تثار على الشفاعة لابدّ من الإشارة إلى أهمّ الأسباب والعوامل التي كانت وراء إثارة مثل هذه الإشكالات، ومنها:

١ - عدم التمييز بين المعنى العرفي والاصطلاحي للشفاعة حيث تصوّر البعض أنّ ما يلازم الشفاعة العرفية من ظلم أو تعسّف أو تغيّر علم أو إرادة وما شابه ذلك من الشروط والمواصفات التي تلازم الشفاعة العرفية لابدّ من وجودها في الشفاعة الاصطلاحية أيضاً، الأمر الذي لا يناسب الساحة الإلهية المقدّسة، فنفوا الشفاعة للتخلّص من ذلك.

٢ - توهّم الشفاعة المطلقة من غير شرط في كلّ الموارد، مع أنّ الشفاعة هي توسّط في السببية والتأثير ولا معنى للإطلاق فيهما، إذ لا يكون السبب الواحد مسبِّباً لكلّ مسبَّب ولا يكون مسبَّبٌ واحد مسبَّباً عن كلّ سبب وإلاّ لبطلت السببية.

٣ - عدم التمييز في أنّ سبب عدم وقوع بعض الأمور مردّه إلى نقص في قابلية القابل لا نقص ومحدودية في فاعلية الفاعل.

ومن هنا استُشكل على شمول الشفاعة لبعضٍ دون بعض، لأنّ في

---

(١) الفجر: ٢٢.

ذلك تحديداً لقدرة الله ورحمته.

٤ – جعل حياة الشفيع وموته مدار الشرك والتوحيد، في حين أنّ تحقيق التوحيد أو الشرك يخضع لأمور ليس منها حياة أو موت من يجعل شريكاً لله تعالى، فمن يعبد غير الله تعالى فهو مشرك، سواء كان معبوده حيّاً أو ميّتاً.

ومن هنا قد يتصوّر اشتباهاً أنّ الاستشفاع بالميّت شرك دون الحي، في حين أنّ المسألة هنا تتعلّق في إمكانية الانتفاع بمثل هذا الاستشفاع أو لا؟

وفي نهاية هذه الملاحظات لابدّ من الالتفات إلى:

أوّلاً: إنّ أغلب الإشكالات المثارة على الشفاعة منصبّة على الشفاعة التشريعية في الآخرة دون غيرها من أنواع وأقسام الشفاعة الأخرى.

ثانياً: إنّ بعض الإشكالات المثارة على الشفاعة مثارة حول تحقّقها ووجودها ذاتاً وبعضها الآخر مثارة حول وجودها ووقوعها خارجاً وإن أمكن وجودها ذاتاً؛ وذلك لأنّ الممتنعات في مثل هذه البحوث على قسمين: فهي إمّا ممتنعة ذاتاً بحيث لا يمكن تصوّر وقوعها أصلاً كاجتماع النقيضين واجتماع الضدّين وما شاكل ذلك.

أو ممتنعة وقوعاً بحيث يمكن تصوّر إمكان وجودها؛ إذ هي ليست ممتنعة ومستحيلة ذاتاً ولكنّها لا تقع، من قبيل الظلم بالنسبة إلى الله تعالى، فهو عزّ وجلّ قادر على الظلم ولكنّه لا يظلم.

الإشكالات المثارة

وعلى كلّ حال، فإنّ عمدة الإشكالات التي تثار على هذه الحقيقة القرآنية - الشفاعة - هي ما يلي:

الإشكال الأوّل: استلزام صدور الظلم من الله تعالى عن ذلك أو الجهل من أنبيائه عليهم السلام

وهو إشكال قويّ حسب ظاهره، وبيانه: أنّ القرآن يثبت بصورة قاطعة استحقاق العاصي للنار، والآيات صريحة بذلك، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَا﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً﴾[3]. وآيات أُخرى كثيرة، وهذه المقدّمة مقدّمة واضحة ومسلّمة عند جميع المسلمين.

فإن رُفع هذا العقاب المسلّم به بواسطة الشفاعة، فهل هذا الرفع عدل أو ظلم؟

---

(١) الحجر: ٤٢ ـ ٤٣.

(٢) طه: ٧٤.

(٣) مريم: ٨٦.

فإذا كان الرفع عدلاً فوضعه أوّلاً كان ظلماً، وهو خلاف قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ﴾(١).

وإن كان الرفع ظلماً فكيف يطلبه الملائكة والأنبياء والمقرّبون السابقون وهم كما وصفهم الله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾(٢)؟

وهل طلبهم هذا إلاّ جهل لا تجوز نسبته إلى الأنبياء عليهم السلام؟

إنّ تمامية هذا الإشكال تعني أنّ الشفاعة محالة، غير أنّها محالة وقوعاً لا ذاتاً، فهي لا تصدر عنه سبحانه وتعالى؛ لاستلزامها إمّا صدور الظلم منه تعالى، أو نسبة الجهل إلى الأنبياء عليهم السلام وكلاهما لا يمكن تعقّل وقوعه خارجاً.

جوابه

وللإجابة على هذا الإشكال نقول: إنّ النسبة بين الظلم والعدل لو كانت نسبة التناقض كالوجود والعدم أو التضادّ كما في الأبيض والأسود بحيث دار الأمر بين الظلم والعدل فحسب فإنّ الإشكال المطروح تامّ، ولكن الأمر ليس كذلك، فإنّ القضية هنا ليست هي إمّا هذا أو ذاك، بل هناك شقّ ثالث في البين، لأنّ وضع العقاب على

(١) فصّلت: ٤٦.

(٢) الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٧.

المجرم العاصي المذنب عدل، ورفع العقاب عنه ليس بعدل ولكنّه ليس بظلم أيضاً، بل هو فضل وإحسان ورأفة وعفو وغفران.

ومثال ما نحن فيه: السارق الذي يستحقّ عقاباً ما على فعله، والعقاب في حقّه عدل، ولكن لو أراد صاحب الحقّ أن يتنازل عن حقّه وأن لا يعاقبه فلن يكون فعله هذا ظلماً، بل هو في نظر العرف تفضّل ورأفة وعفو.

وهكذا بالنسبة إلى الله تعالى، فلو عاقب المذنب من خلال اسمه (العادل) فبعدله ولو عفا عنه من خلال اسمه (العفوّ) و(الغفور) و(الرحيم) فبفضله وإحسانه؛ قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾(١).

وأمّا السيّد الطباطبائي قدّس سره فقد أجاب على هذا الإشكال بنحو آخر، ضمّنه نقضاً وحلاً(٢):

أمّا النقض: فإنّ الإشكال منقوض بالأوامر الامتحانية الإلهية، من قبيل ما أمر الله به عبده إبراهيم عليه السلام بأن يذبح ابنه ثمّ رفع هذا الأمر.

فإن كان رفع هذا الأمر عدلاً فإنّ وضعه ظلم، وإن كان وضعه عدلاً فإنّ رفعه ظلم، ولا يلتزم أحد بكلا الفرضين ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ

---

(١) النحل: ١٢٦.

(٢) **الميزان**، للطباطبائي: ج١، ص١٦٢، ط إسماعيليان.

لِلْعَبِيدِ﴾[١].

ومن هنا يتبيّن لنا أنّه ليس كلّ رفع للحكم أو لنتيجته ظلماً، ففي الأوامر الامتحانية كلا الأمرين عدل بل الرفع فضل إلهي، والحكمة فيها - أي الأوامر الامتحانية - اختبار سريرة المكلّف أو إظهار باطن أمره أو إخراج ما في قوّته إلى الفعل.

وأمّا الحل: فإنّ خروج الإنسان في مثل هذه الموارد أساساً من دائرة أحكام ما ودخوله في دائرة أحكام أُخرى هو خروج موضوعيّ على نحو التخصّص لا على نحو التخصيص وحفظ الموضوع.

فالإنسان مع عدم الشفاعة يقتضي نحواً من المحاسبة والجزاء ومع الشفاعة يقتضي نحواً آخر من المحاسبة والجزاء. فموضوع الحكم الأوّل (الإنسان مع الشفاعة) غير موضوع الحكم الثاني (الإنسان بدون الشفاعة) فهما موضوعان وحكمان اثنان لا أنّهما حكم ونقيض لموضوع واحد.

وشبيه هذه الحالة حالة الإنسان مع التوبة، فهو مع التوبة له جزاء وحساب، وبدونها له حساب وجزاء آخر، وكلا الحسابين عدل كما هو مسلّم عند الجميع.

ومثل هذه الحالة أيضاً الصلاة والصيام للمكلّف في حال الحضر والسفر، فالحاضر يصلّي تماماً ويصوم، والمسافر يقصّر ويفطر ولكلّ منهما حكمه الخاصّ لأنّهما موضوعان اثنان (المكلّف المقيم والمكلّف

(١) فصّلت: ٤٦.

المسافر) لا أنّهما موضوع واحد (الإنسان المكلّف) وقد توارد عليه حكمان مختلفان.

والخلاصة أنّ الموضوع لو كان محفوظاً ومع ذلك تغيّر حكمه من العقوبة إلى اللاعقوبة لكان ذلك نقضاً للعدل، وليست الشفاعة كذلك لأنّ أثرها ليس بالمضادّة ونقضاً للحكم الأوّل بل أثرها بالحكومة - على ما سبق بيانه - .

الإشكال الثاني: استلزام تبديل أو تحويل السنن الإلهية أو الترجيح بلا مرجّح

وهو إشكال يذكره القدماء والمحدثون على السواء.

وملخّصه: أنّ الله سبحانه وتعالى قد بيّن في القرآن الكريم أنّ واحدة من أهمّ سننه هي سنّة عقوبة المجرمين ومن يتّبع الشيطان وحزبه؛ قال تعالى: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1] فقوله تعالى (عليَّ) معناه: كتبت على نفسي أنّه من فعل كذا أُدخله جهنّم.

ثمّ إنّ لهذه الصغرى - ونقصد بها سنّة عقوبة المجرمين- كبرى وهي: أنّ سنّة الله تعالى لا تبديل لها ولا تحويل؛ قال تعالى: ﴿فَلَنْ

(١) الحجر: ٤١ ـ ٤٣.

تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً﴾[١].

وفي ضوء هذه الحقيقة القرآنية يمتنع وقوع الشفاعة التي تمنع من دخول المذنبين النار مع إمكانها عقلاً، لأنّها تخالف السنّة الإلهية التي كتبها الله تعالى على نفسه من أنّ المذنب يدخل النار، ومن أنّ سنّته تبارك وتعالى لا تتبدّل ولا تتحوّل.

جوابه: ويمكن الإجابة على هذا الإشكال أيضاً بالنقض والحلّ:

أمّا نقضاً: فإنّ التوبة ترفع العقاب عن العصاة ومع ذلك لا يقول أحد بأنّ سنّة الله تعالى تنتقض وتتبدّل وتتحوّل في موارد التوبة، فما يجاب به في مورد التوبة نجيب به في مورد الشفاعة أيضاً.

وأمّا حلاً: فإنّ كبرى المستشكل وإن كانت تامّة من حيث إنّ سنن الله تعالى لا تتبدّل ولا تتحوّل، ولكن الصغرى لا تخلو من تأمّل، لأنّها تحدّثت عن سنّة واحدة لله تعالى في خصوص العصاة والمذنبين وهي سنّة العقاب، مع أنّ هناك سنناً أُخرى حاكمة عليهم أيضاً، فمن تاب من العصاة لا يعاقبه الله تعالى، ومن شفع له لا يعاقبه أيضاً وهكذا...

فالآية الآية المباركة - إذن - قالت إنّ سنّة الله لا تتبدّل ولا تتحوّل ولم تتعرّض لبيان السنن ومصاديقها، ولابدّ من الرجوع إلى القرآن لاستفادتها.

---

(١) فاطر: ٤٢.

وسنجد حينئذ أنّ بإمكان الشفاعة أن ترفع العقاب عن المذنب وفق السنّة الإلهية التي تحكمها ولن يكون في ذلك تبديل وتحويل للسنن الإلهية المختصّة بالمذنبين؛ لتعدّد هذه السنن وعدم اقتصارها على سنّة العقوبة وحدها.

وبتقريب آخر نقول: لو كان لله سبحانه وتعالى اسم «العادل» وصفة «العدالة» فقط لتمّ ما قيل في الإشكال، لأنّ صدور الآثار التي لا تنسجم مع ذلك الاسم وتلك الصفة نقض للسنّة الإلهية. غير أنّ الله تعالى عادل ورؤوف ورحيم وغفور وعفوّ وكريم ومحسن ومتفضّل.. .

ولكلّ اسم من هذه الأسماء أثر وسنّة، فله تعالى - مثلاً - سنّة من حيث هو محيي وله سنّة من حيث هو مميت، وهكذا.. ومع أنّ أثر المحيي غير أثر المميت إلاّ أنّ أحداً لا يدّعي بأنّ ذلك تبديل وتحويل لسنن الله تعالى.

وهكذا في مورد الإشكال فإنّ الله تعالى، وبمقتضى اسمه العادل له سنّة يعاقب بها، وبمقتضى اسمه الرؤوف والرحيم له سنّة يرفع بها العقاب، ولا يعني هذا تبديلاً وتحويلاً في سننه تبارك وتعالى.

الإشكال الثالث: استلزام تغيّر العلم، المستحيل في حقه تعالى

وقد ذكر هذا الإشكال صاحب المنار في ذيل الآية (٤٨) من سورة البقرة المباركة[١]، وحاصله: أنّ الشفاعة المعروفة عندنا عرفاً

---

(١) تفسير المنار، رشيد رضا: ج١، ص٣٠٧.

وعقلائياً إنّما تتمّ من خلال حمل المشفوع عنده من رئيس أو حاكم أو قاض إمّا على تغيير علمه أو على تغيير إرادته، وتختصّ حالة تغيير العلم بالمشفوع عنده العادل، لأنّ العادل لا يرفع يده عن العقوبة إلاّ إذا تغيّر عنده العلم بحيث أصبح يعتقد بعدم استحقاق هذا الفرد للعقوبة.

وتتصوّر الحالة الثانية - حالة تغيّر الإرادة - بالنسبة إلى المشفوع عنده غير العادل، الذي وإن علم باستحقاق المذنب للعقوبة إلاّ أنّه ولقرابة أو وساطة ما يغيّر إرادته من العقوبة إلى ضدّها.

وعلى كلّ حال، فإنّ هذه الشفاعة المتعارفة عندنا وعلى كلا التصوّرين ممتنعة عقلاً على الله تعالى؛ لاستحالة تغيّر علمه أو إرادته تبارك وتعالى، لأنّ إرادته على حسب علمه وعلمه أزلي لا يتغيّر.

وجواب هذا الإشكال بالنقض والحلّ أيضاً.

أمّا النقض: فواضح، إذ ينتقض هذا الإشكال بموارد التوبة وأثرها، والصدقة وأثرها، والدعاء وأثره، وما شابه ذلك، ففي كلّ مورد من هذه الموارد كانت هناك إرادة من قبل ثمّ تغيّرت إلى إرادة أُخرى من بعد، وتغيّر الإرادة مستلزم - على رأي صاحب الإشكال - لتغيّر العلم، وكلّ تغيّر للعلم تغيّر للذات، وتغيّر الذات ممتنع عقلاً على الله تعالى. فما يجاب به في مثل هذه الموارد نجيب به في مورد الشفاعة أيضاً.

غير أنّنا لابدّ أن نشير هنا إلى أنّ الجواب النقضي وفي كلّ الإشكالات لا يزيدها إلاّ تعقيداً، لأنّنا وبدل أن نجيب على مسألة واحدة وإشكال واحد لابدّ أن نجيب على عدّة إشكالات وعدّة

مسائل.

وأمّا الجواب الحلي: فيعتمد على أنّ المحقّقين من الفلاسفة ميّزوا في بحث العلم الإلهي بين أمرين مهمّين، الأوّل: هو العلم بالتغيّر والثاني هو تغيّر العلم.

بيان ذلك، أنّك قد تعلم أنّ الآن نهار وتعلم أنّ الليل سيحلّ بعد ذلك، وأنّك ستفعل في الليل شيئاً وفي النهار شيئاً آخر، وهذا معناه أنّ علمك في النهار هو غير علمك في الليل وكلّ علم قد استدعى منك إرادة تناسبه كأن تكون إرادة إضاءة المصباح ليلاً وإرادة إطفائه نهاراً.

فعندك - إذن - علم بالتغيّر لا أنّ علمك متغيّر، فإنّ العلم ثابت لم يتغيّر وإنّما الذي تغيّر هو المعلوم الخارجي، فتارة كان نهاراً وأُخرى كان ليلاً، ولكلّ معلوم إرادة تخصّه.

ومثل هذا أيضاً، الطبيب الذي يعلم أنّ علاج مريضه قد يستمرّ لمدّة أشهر عديدة، وأنّه في كلّ شهر يحتاج إلى نوع من الدواء يختلف عمّا يحتاجه في الشهر الآخر، ومن الواضح هنا، أنّ علم الطبيب لا يتغيّر وإنّما الذي يتغيّر هو المعلوم الذي يمثّله حال المريض، فهذا علم بالتغيّر لا تغيّر في العلم بلا إشكال.

وهذا بخلاف ما لو تغيّر العلم، كمن يرى من بعيد شيئاً ما فيتوهّمه إنساناً ولكن ما إن يقترب منه حتّى يتبيّن له بأنّه فرس مثلاً، فعلمٌ مثل هذا علم متغيّر مع ثبوت المعلوم الذي هو الفرس في الحالتين.

ومثله أيضاً الطبيب الذي يعطي دواءً ما لمريضه ثمّ لا يشفى فيضطرّ إلى تغيّر الدواء لعلمه بأنّه قد اشتبه فيه، فهذا التغيّر هو تغيّر في علم الطبيب لا علم في التغيير.

والخلاصة: فإنّ العلم بالتغيير يعني ثبوت العلم وتغيّر المعلوم في الخارج، وأمّا تغيّر العلم فيعني ثبوت المعلوم في الخارج وتغيّر العلم.

إذا اتّضح هذا نقول: إنّ الأمر المستحيل على الله تعالى هو تغيّر علمه، وأمّا علمه بالتغيير فهو أمر جائز في حقّه تعالى؛ قال تعالى: ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ ولكن هذا المحو والإثبات لا لتغيّر في علمه لأنّه تعالى يعلم كلّ شيء ولا تغيّر في علمه ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾(١).

من هنا فإنّ الله سبحانه وتعالى يعلم من زيد – مثلاً – أنّه إذا فعل المعصية فهو يستحقّ العقوبة فإذا ضُمّ إليها التوبة أو الشفاعة فهو لا يستحقّ تلك العقوبة، فهنا لم يتغيّر علم الله تعالى، بل بقي علمه للعاصي هو هو وعلمه للعاصي مع التوبة هو هو، وعلمه للعاصي مع الشفاعة هو هو، غير أنّ له في هذه الحالة أثراً، وفي تلك الحالة أثراً، وفي حالة ثالثة أثراً آخر.

بعبارة أُخرى نقول: إنّ الله سبحانه وتعالى وطبقاً للعلم الذي كان يعلمه من زيد بما هو عاص، كان يريد له العقوبة لأنّه «شديد العقاب» وفي العلم الذي كان يعلمه من زيد بما هو عاص تائب كان يريد

(١) الرعد: ٣٩.

العفو عنه لأنّه «غفور رحيم»، فالإرادة إرادة جديدة لحدوث معلوم جديد لا لتجدّد علمه سبحانه وتعالى.

ومن هنا قالت الآية المباركة: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾(١) فهناك سؤال دائم وجواب دائم، فمن يسأله يجيبه تبارك وتعالى على مقتضى سؤاله، فإن سأله التوبة أجابه بمقتضى «الغفور الرحيم»، وإن سأله العقاب بالعصيان أجابه بمقتضى «شديد العقاب».

الإشكال الرابع: إشكال التجرّي ونقض الغرض

يقول أصحاب هذا الإشكال إنّ وعد الشفاعة من الله سبحانه وتعالى وتبليغها من قبل الأنبياء عليهم السلام للناس يستدعي جرأة الناس على المعصية وعدم طاعتهم لأوامر الله سبحانه وتعالى ونواهيه لأنّهم سيرون أن نتيجة الشفاعة هي أن يتساوى العاصي والمطيع والمذنب والبريء في آخر المطاف، وبهذا ينتقض الغرض من تشريع الدين وبعثة الرسل عليهم السلام وإنزال الشرائع السماوية وهو أن يطيع الناس الله سبحانه وتعالى ويأتمرون بأوامره وينتهون عن نواهيه، ومن المعلوم أنّ كلّ أمر يجرّئ الناس على معصية الله تعالى وعلى نقض الغرض من نزول الأديان والشرائع السماوية مستحيل أن يصدر من الحكيم سبحانه وتعالى، لأنّ الحكيم لا ينقض بنفسه غرضه الذي

(١) الرحمن: ٢٩.

يريده.

وعلى هذا لابدّ من تأويل الآيات والروايات التي تدلّ على حصول الشفاعة بما لا يؤول ولا يؤدّي إلى تجرّي الناس على المعصية ولا إلى نقض غرض المولى تعالى.

جواب هذا الإشكال:

أمّا بالنقض: فإنّ الله سبحانه وتعالى قد وعد الناس بالعفو والمغفرة إن تابوا وهو التوّاب الرحيم الذي يغفر الذنوب؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِـهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾(١) وهذا في غير مورد التوبة ومعها يغفر الذنوب جميعاً؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾(٢).

وحينئذ يمكن أن يقال: إذا علم الإنسان أنّ الله تعالى يغفر كلّ ما دون الشرك من الذنوب بلا توبة فإنّه يوحّد الله تعالى ثمّ لا يلتزم بأي شريعة، فيلزم التجرّي، ولا يقول أحد بهذا، فما يجاب به هنا نجيب به هناك.

وأمّا بالحل: فهناك جوابان:

الجواب الأوّل: إنّ الشفاعة إنّما تستلزم التجرّي بشرطين هما:

الشرط الأوّل: إذا عُيّن المجرم الذي يعفى عنه بنفسه وصفته، أو عيّن الذنب الذي يعفى منه، من غير تعليق على شرط جائز.

(١) النساء: ٤٨.

(٢) الزمر: ٥٣.

الشرط الثاني: أن يكون تأثير الشفاعة في جميع أنواع العقاب وأوقاته.

وعلى هذا فلو كانت الشفاعة بالجملة ومطلقة من جميع الجهات بحيث يقال: إنّها لجميع المذنبين أو لتلك الطائفة بعينها، وإنّها من جميع الذنوب أو لذلك الذنب بعينه وفي كلّ الأحوال، فإنّ ذلك يستلزم التجرّي ونقض الغرض.

غير أنّنا لم نلتزم في الشفاعة على أنّها بالجملة وفي جميع الأحوال، بل على أنّها في الجملة وفي بعض الأحوال التي لم يعيَّن فيها شخص ولا ذنب ولا وقت محدّد. فلا يعلم الإنسان هل تناله الشفاعة الموعودة أو لا، فلا يتجرّى والحالة هذه على المعاصي وهتك محارم الله عزّ وجلّ ولا ينتقض حينئذ الغرض من بعثة الرسل عليهم السلام وإنزال الشرائع، لأنّ الله تعالى لم يعد بالمغفرة والشفاعة المطلقة من دون شرط بل شرطها بمشيئته؛ قال تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾(١).

وقال: ﴿.. لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿وَلاَ يَشْفَعُونَ إلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾(٣).

---

(١) النساء: ٤٨.

(٢) النجم: ٢٦.

(٣) الأنبياء: ٢٨.

قد يقال بأنّ بإمكان الإنسان أن يدّعي أنّ دينه مرضيّ عند الله ولا خوف عليه من ارتكاب المعاصي ما دامت الشفاعة تشمله.

ولكن الأمر ليس كذلك؛ لما ورد في القرآن الكريم من أنّ المعاصي قد تُخرج الإنسان من الدين المرضيّ عند الله وتجعله من الكافرين المكذّبين بآيات الله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لاَ يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلاَ مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلاَكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلاَ يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمْ الأمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾(٢).

فقد يبدأ الإنسان بذنب صغير ثمّ يصرّ عليه، ويولّد الإصرار عليه وطول الأمد قساوة القلب، فإذا قسا القلب كان الإنسان فاسقاً وكافراً ومكذّباً بآيات الله، وحينئذ لن يرضى الله عنه ويكون مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللهَ لاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾(٣).

ثمّ إنّ هناك الكثير من الروايات التي دلّت على أنّ بعض الذنوب والمعاصي تسلب الإنسان إيمانه فلا يعود مرضيّاً عند الله تعالى.

(١) الروم: ١٠.

(٢) الحديد: ١٥ ـ ١٦.

(٣) التوبة: ٩٦.

ففي أُصول الكافي، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**كان أبي عليه السلام يقول: ما من شيء أفسد للقلب من خطيئة إنّ القلب ليواقع الخطيئة فما تزال به حتّى تغلب عليه فيصير أعلاه أسفله**»(1).

فإذا صار القلب منكوساً كان كالإناء المنكوس ينزل عليه المطر ولا يجتمع فيه، وهكذا قلوب هؤلاء تنزل عليها الرحمة الإلهية والنور الإلهي فلا يؤثّر فيها بشيء ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(2).

وعنه عليه السلام أيضاً: «**إذا أذنب الرجل خرج في قلبه نكتة سوداء فإن تاب انمحت وإن زاد زادت حتّى تغلب على قلبه فلا يفلح بعدها أبداً**»(3).

والقلب هنا ليس هذا الجسم الصنوبري بل هو ذاك الأمر المعنوي ونعني به الروح أو النفس، والذنب نكتة سوداء مظلمة تُخرج الإنسان من النور إلى الظلمات، ولا يعلم الإنسان أيّ ذنب من الذنوب له هذا الأثر؛ فلابدّ أن يحذرها جميعاً.

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «**إنّ العبد يسأل الله الحاجة فيكون من شأنه قضاؤها إلى أجل قريب أو إلى وقت بطيء فيذنب العبد ذنباً فيقول الله تبارك وتعالى للملك: لا تقض حاجته واحرمه إيّاها، فإنّه تعرّض**

(1) **الكافي**: ج١، كتاب الإيمان والكفر، باب الذنوب، ح١، ص٢٠٦.
(2) المطفّفين: ١٤.
(3) **الكافي**: ج٢، كتاب الإيمان والكفر، باب الذنوب، ح١٣، ص٢٠٨.

لسخطي واستوجب الحرمان منّي»[1] ولعلّ حاجة العبد هي التوبة وقبولها وبالذنب يخرج عن استحقاقها فلا يتوفّق لها أبداً.

ومن هنا نخلص إلى أنّ حفظ الإيمان مع ارتكاب المعاصي أمر صعب مستصعب بعيد المنال كثير الخطوب. وعلى حدّ تعبير جملة من المحقّقين فإنّ الشفاعة والتوبة من قبيل الدواء، ولا يوجد عاقل يقدم على المرض بأمل الشفاء بالدواء، نعم، إذا مرض فعليه أن يسعى للحصول على الدواء للشفاء.

ثمّ إنّ العاقل لا يرتكب المعصية وأثرها السلبي عليه قطعي الثبوت معتمداً على الشفاعة وشمولها له احتمالي الثبوت فقد لا تشمله، ولو فعل ذلك لكان مجنوناً؛ فإنّ العقل «**ما عُبد به الرحمن واكتُسب به الجنان**»[2].

هذا مع أنّ تأثير الشفاعة لم يبيّن أيضاً على نحو الجزم من أنّه رافع لجميع أنواع العذاب وفي كلّ أوقاته فقد يرتبط بالبعض دون الآخر وقد يتدخّل في تخفيف أثر الذنب أو تقليل مدّته من غير أن يرفع أصله.

إنّ القرآن الكريم لم يدلّ على أنّ العاصي لن يدخل النار بل أشار إلى عدم خلوده فيها، وفرق بين الدخول والخلود.

---

(١) **الكافي**: ج٢، كتاب الإيمان والكفر، باب الذنوب، ح١٤، ص٢٠٨.

(٢) **الكافي**: ج١، كتاب العقل والجهل، ح٣، ص١١.

وعلى هذا يبقى المؤمن خائفاً مترقّباً مردّداً يرجو أن تشمله رحمة الله ومغفرته من دون أن يندفع إلى التجرّي.

وقد يخطر على بال الإنسان أحياناً بأنّ المؤمن غير مخلّد في النار، فليرتكب من الذنوب ما يشاء وليتحمّل بعض ليالي أو أيّام أو سني جهنّم حتّى يعفى عنه ويخرج من النار إلى الجنّة.

ولبيان أي اشتباه يقع فيه أصحاب هذا التصوّر نتعرّض إلى بعض الروايات التي تصف نار جهنّم وعذاباتها وحالات المعذَّبين فيها وكيف أنّ الآن الواحد في نار جهنّم - مهما صغر وتضاءل - لا يتحمّله الإنسان مهما بلغ من القوّة، وكيف يتحمّل الآن الواحد في نار «**سجّرها جبّارها لغضبه**»[1] كما وصفها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، بل كيف يتحمّل اللحظة الواحدة من عذاب قال عنه الله بأنّه تعالى ﴿لاَ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ﴾[2].

فمن الروايات التي تصف نار جهنّم وعذابها ما روي عن الإمام الباقر عليه السلام:

> **إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا أُسري به لم يمرّ بخلق من خلق الله إلاّ رأى ما يحبّ من البشر واللطف والسرور، حتّى مرّ بخلق من خلق الله فلم يلتفت إليه ولم يقل شيئاً فوجده قاطباً عابساً.**

---

(١) **بحار الأنوار**: ج ٤١ ص ١٦٣ ح ٥٧ باب ٧ - ١.

(٢) الفجر: ٢٥.

فقال: يا جبرئيل ما مررت بخلق من خلق الله إلاّ رأيت البشر واللطف والسرور منه إلاّ هذا، فمن هذا؟

قال: هذا مالك خازن النار. فقال له جبرئيل: إنّ هذا محمّد رسول الله، وقد سألني أن أطلب إليك أن تريه النار.

قال: فأخرج عنقاً منها فرآها، فما افترّ ضاحكاً حتّى قبضه الله عزّ وجلّ[1].

وعن زيد بن علي عن آبائه عن علي عليه السلام، قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ ناركم هذه لجزء من سبعين جزءاً من نار جهنّم، ولقد أُطفيت سبعين مرّة بالماء، ولولا ذلك لما استطاع آدمي أن يطفيها إذا التهبت، وإنّه لتؤتي بها يوم القيامة حتّى توضع على النار، ما يبقي ملك مقرّب ولا نبي مرسل إلاّ جثا بركبتيه فزعاً من صرختها[2].

وأمّا الجواب الحلّي الثاني:

فإنّنا نقول: إنّ الإنسان المذنب لو تُرك ونتيجة عمله فقط ومن دون أن تتدخّل الشفاعة في تغيير مصيره وفي نجاته من النار لكان ذلك على خلاف الحكمة الإلهية التي دلّت عليها الأدلّة العقلية والنقلية بنجاة الناس وخلاصهم من نار جهنّم وإدخالهم الجنّة.

---

(١) **علم اليقين**، للكاشاني: ج٢، باب١٥، في صفة النار، ص١٠٣٣.

(٢) **علم اليقين**، للكاشاني: ج٢، باب١٥، في صفة النار، ص١٠٣٢.

فلو أنّ العصاة - وهم الأعمّ الأغلب - علموا بمجرّد عصيانهم أنّه لا مجال لتراجعهم ونجاتهم بعد ذلك وأنّ مصيرهم إلى النار سواء أتركوا الكبائر الأخرى أو لم يتركوها، وهتكوا الحرم الأخرى أو لم يهتكوها، وفعلوا الواجبات أو لم يفعلوها فسوف يصيبهم اليأس من روح الله والقنوط من رحمته تبارك وتعالى وسوف يتجرّأون على كلّ المحرّمات ويتركون كلّ الواجبات، وهذا خلاف الحكمة الإلهية، ولن تكون الدنيا بعد ذلك إلاّ تجرّياً محضاً على محارم الله وسيكون لازم عدم تشريع الشفاعة هو التجرّي ونقض الغرض، لا أنّ تشريعها يستدعي ذلك.

شفاعة أهل البيت عليهم السلام لشيعتهم وشبهة التجرّي

وردت جملة من الروايات تشير إلى شفاعة أهل البيت عليهم السلام لشيعتهم، كقول الصادق عليه السلام: «**إذا كان يوم القيامة نشفع في المذنب من شيعتنا فأمّا المحسنون فقد نجّاهم الله**»[1].

وهذه الروايات وإن لم تطلق الشفاعة في حقّ الجميع ولكنّها عيّنت طائفة معيّنة من الناس وهم الشيعة ممّا يؤدّي إلى تجرّي هذه الطائفة لأنّها تعلم بأنّها ناجية مهما ارتكبت من ذنب، وحينئذ تكون الشفاعة سبباً لنقض الغرض بالنسبة إلى هذه الطائفة من الناس.

والجواب: إنّ هذه الرواية وأمثالها ليست بصدد بيان أنّ الشيعة

(١) **بحارالأنوار**: ج٨، كتاب العدل والمعاد، باب الشفاعة، ح٧٧، ص٥٩.

جميعاً تشملهم الشفاعة، وأنّ جميع ذنوبهم مشمولة بالشفاعة أيضاً وفي جميع الأوقات والأحوال وإنّما الحصر هذا حصر إضافي أي: أنّ شفاعتنا ليست لغير شيعتنا، ولكن هل هي لكلّ شيعتهم ولكلّ ذنوبهم؟ فإنّ هذا ممّا لم تصرّح به الروايات وسكتت عنه.

فالتشيّع - إذن - والموالاة والاتباع لأهل البيت عليهم السلام شرط من قبيل شرط التوحيد الذي بدونه لا يَشمل الإنسان العفو الإلهي، فبدون موالاة أهل البيت عليهم السلام لا تشمل الإنسان شفاعتهم. غير أنّ تحقّق هذا الشرط لا يعني تحقّق المقتضى في الخارج، فقد يتحقّق وقد لا يتحقّق.

ثمّ إنّ لسان هذه الروايات هو كلسان الروايات التي تدلّ على أنّ شفاعة الرسول محمّد صلى الله عليه وآله لأهل الكبائر من أُمّته؛ «**إنّما شفاعتي لأهل الكبائر من أمّتي**»[1].

فإسلام الإنسان يدخله في أُمّة محمّد صلى الله عليه وآله وقد تتحقّق الشفاعة في حقّه وقد لا تتحقّق.

هذا من ناحية، ومن ناحية أُخرى فقد قلنا بأنّ الشفاعة لا تعني دائماً رفع العقاب من الأصل بل قد تغيّر شدّته كمّاً أو كيفاً، بل ورد عنهم عليهم السلام ما يدلّ على أنّ شفاعتهم لا تشمل شيعتهم في «عالم البرزخ» وقد يعذّبون إلى يوم حصول الشفاعة، فكيف يتجرّأون على ارتكاب المعصية بعد ذلك بلا حساب؟

(١) **بحار الأنوار**: ج٨، كتاب العدل والمعاد، باب الشفاعة، ح٤، ص٣٤.

ففي الكافي عن جعفر المؤذّن عن أبي عبدالله عليه السلام في رسالته إلى أصحابه قال عليه السلام: «اعلموا أنّه ليس يغني عنكم من الله أحد من خلقه، لا ملك مقرّب ولا نبيّ مرسل ولا من دون ذلك، من سرّه أن تنفعه شفاعة الشافعين عند الله فليطلب إلى الله أن يرضى عنه»[1].

وفي الخصال عن أبي عبدالله عن أبيه عن علي عليهم السلام قال: «إنّ للجنّة ثمانية أبواب...» إلى أن قال عليه السلام: «... فلا أزال واقفاً على الصراط أدعو وأقول: ربّ سلّم شيعتي ومحبّي وأنصاري ومن تولاّني في دار الدنيا فإذا النداء من بطنان العرش: قد أُجيب دعوتك وشفّعت في شيعتك»[2].

وواضح من الرواية الأولى أنّ رضا الله سبحانه وتعالى شرط لكي تنفع الشفاعة، ومن الرواية الثانية أنّ وقت شفاعة الشافعين هو يوم القيامة ووقت المرور على الصراط، ولا دليل على أنّ العاصي والمذنب لا يناله عذاب البرزخ.

الشفاعة ونظرية الخوف والرجاء

يتّضح ممّا سبق أنّ للشفاعة أثراً في ضرورة الرجوع إلى الله تعالى، فالعاصي والمذنب من الناس الذي يعلم بأنّ الله يتوب عليه إذا تاب، وأنّ شفاعة الشافعين قد تشمله إن استوفى ما يلزم من الشروط،

---

(١) الكافي: ج٨، ص١١، ح٢٩٨.
(٢) الخصال: ص١٧٢.

فإنّ مثل هذا الإنسان يبقى بين الخوف والرجاء؛ بين الرجاء، ولكن لا جزماً بحيث يتجرّأ على محارم الله، وبين الخوف ولكن لا جزماً بحيث ييأس من رحمة الله تعالى.

وقد أشارت العديد من الآيات والروايات الشريفة إلى هذه النظرية. فمن الآيات قوله: ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحىً وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾(١).

فمن اطمأنّ بالنجاة وعدم شمول العذاب والمكر الإلهي له، إن هو إلاّ خاسر مجنون.

وفي قبال هذه الآية مباشرة يقع قوله تعالى حكايةً عن يعقوب عليه السلام، قال: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ إنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إلاَّ الْقَوْمُ الكَافِرُونَ﴾(٢) فكما لا ينبغي للإنسان أن يأمن المكر الإلهي فيتجرّأ، عليه أيضاً أن لا يقطع رجاءه من روح الله ورحمته فييأس.

ومن هنا عُدّ اليأس من رحمة الله تعالى من الكبائر لأنّه يؤدّي إلى القنوط ثمّ إلى انتهاك كلّ حرمة لا محالة.

وقد جمعت الآية المباركة: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً

---

(١) الأعراف: ٩٨ ـ ٩٩.

(٢) يوسف: ٨٧.

﴿وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾(١) بيّن كلا الأمرين، بين الحذر من الآخرة وبين رجاء الرحمة الإلهية.

ومن هنا ورد عن علي عليه السلام أنّه قال: «**إنّ الله تبارك وتعالى أخفى أربعة في أربعة: أخفى رضاه في طاعته فلا تستصغرنّ شيئاً من طاعته فربما وافق رضاه وأنت لا تعلم. وأخفى سخطه في معصيته فلا تستصغرنّ شيئاً من معصيته، فربما وافق سخطه معصيته وأنت لا تعلم. وأخفى إجابته في دعوته فلا تستصغرنّ شيئاً من دعائه، فربما وافق إجابته وأنت لا تعلم. وأخفى وليّه في عباده فلا تستصغرنّ عبداً من عبيد الله فربما يكون وليّه وأنت لا تعلم**»(٢).

والخلاصة، أنّ المراد من الإنسان أن يكون دائماً بين الرجاء والخوف فلا يطمئن إلى النجاة فيستهين بكلّ شيء، ولا يجزم بالعذاب فييأس من كلّ شيء.

الإشكال الخامس: لا نصّ قطعيّاً في القرآن على وقوع الشفاعة، والمتيقن من السنة الشريفة لا يزيد دلالة على ما في الكتاب

وملخّص هذا الإشكال هو: إنّ العقل لا يدلّ على أكثر من إمكان وقوع الشفاعة. وأمّا النقل، فإنّ الآيات القرآنية في الشفاعة على ثلاثة طوائف هي:

---

(١) الزمر: ٩.

(٢) **الخصال**، للصدوق: ج١، باب الأربعة، ح٣١، ص٢٠٩.

الطائفة الأولى: هي الطائفة النافية للشفاعة مطلقاً كقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً لاَ تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْس شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾[١] و(لا) نافية للجنس تفيد نفي مطلق الشفاعة.

والطائفة الثانية: هي الطائفة النافية لمنفعة الشفاعة، كقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً لاَ تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْس شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾[٢].

الطائفة الثالثة: هي الطائفة التي تثبت الشفاعة لغير الله تعالى بمثل قوله تعالى: ﴿إلاَّ بِإِذْنِهِ﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿إلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾[٤] وهذا الاستثناء معهود قرآنياً في مقام النفي القطعي؛ للإشعار بأنّ ذلك بإذنه تعالى وهو لم يأذن، كقوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾[٥] وقوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَى * إلاَّ مَا شَاءَ اللهُ﴾[٦].

وحينئذ، فليس في القرآن الكريم نصّ قطعي على وقوع الشفاعة كما أنّ المتيقّن من السنّة الشريفة لا يزيد دلالة على الآيات الشريفة.

---

(١) البقرة: ٤٨.

(٢) المدثّر: ٤٨.

(٣) البقرة: ٢٥٥.

(٤) الأنبياء: ٢٨.

(٥) هود: ١٠٧.

(٦) الأعلى: ٦ ـ ٧.

ولردّ هذا الإشكال نقول:

أمّا الآيات القرآنية فإنّ الطائفة الأولى فيها ثلاثة أجوبة هي:

الجواب الأوّل: إن الآيات النافية للشفاعة لا تتكلّم عن نفي الشفاعة مطلقاً حتّى في يوم القيامة، وإنّما تنفي الشفاعة المتعارفة في الحياة الدنيا؛ وذلك بقرينة الأمثلة الموجودة فيها.

ففي الآية (لا تجزي نفس...) تحدّثت الآية ابتداءً عن قانون في الآخرة هو قانون ﴿لا تجزي نفس عن نفس شيئاً﴾ فلا يتحمّل أحد مسؤولية عمل آخر هناك وإن تحمّل البعض مسؤولية ونتائج عمل الآخرين في الدنيا.

ثمّ نفت الآية كلّ طرق التخلّص من تبعات الأعمال المتعارفة في الدنيا من الاستشفاع بالباطل أو أخذ العدل من فدية أو مال أو بدل أو الانتصار بالرشوة أو الاسترحام بالحاكم أو الاستعانة بالقبيلة وما شابه.

وهكذا يكون الأمر في تلك النشأة - كما هو في هذه النشأة - لله تعالى ﴿وَالأمْرُ يَوْمَئِذ للهِ﴾[(١)] ولا سبب دافع للعذاب آنذاك ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأسْبَابُ﴾[(٢)] ولا نسب ﴿فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾[(٣)].

فالنشأة - إذن - وإن كانت نشأة أسباب إلاّ أنّها خالية عن الأسباب الدنيوية، وعلى هذا الأساس فإنّ الآية ليست ظاهرة في نفي

(١) الانفطار: ١٩.

(٢) البقرة: ١٦٦.

(٣) المؤمنون: ١٠١.

مطلق الشفاعة بل في نفي الشفاعة المتعارفة في الحياة الدنيا.

الجواب الثاني: ما أشار إليه العلاّمة الطباطبائي قدس سره بقوله: «إنّ الآيات النافية للشفاعة إن كانت ناظرة إلى يوم القيامة فإنّها تنفيها عن غيره تعالى بمعنى الاستقلال في الملك..»[1].

الجواب الثالث: إنّ هذه الآيات مطلقة ولابدّ أن تقيّد بآيات الطائفة الثانية والثالثة.

وأمّا الجواب على الطائفة الثانية: وهي الآيات النافية لمنفعة الشفاعة، فإنّها تثبت الشفاعة لا تنفيها.

فبالإضافة إلى أنّ آيات سورة المدثّر واردة في سياق نفي الشفاعة عن طائفة خاصّة من المجرمين لا جميعهم - بالإضافة إلى هذا - فإنّ لسان آيات هذه الطائفة على قسمين:

الأوّل: على نحو قوله تعالى: ﴿وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾[3].

والثاني: على نحو قوله تعالى: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾[4].

وهناك فرق بين القسمين، فإنّ الشفاعة الواردة في القسم الثاني مضافة لا مجرّدة مقطوعة عن الإضافة، والمصدر المضاف يدلّ على

---

(١) **الميزان:** ج١، ص١٥٧.

(٢) البقرة: ٤٨.

(٣) البقرة: ٢٣.

(٤) المدثّر: ٤٨.

الوقوع في الخارج دون المقطوع، فهناك إذن شفاعة ما - على نحو القضية المهملة - سوف تقع في يوم القيامة ولكنّها لن تنفع هذه الطبقة من المجرمين.

وأمّا الجواب على الطائفة الثالثة: فنقول: إنّ المنكرين للشفاعة استدلّوا بهذه الطائفة على مدّعاهم من خلال الاستثناء الذي اعتبروه - على حدّ قولهم - مؤكّداً للمضمون كما في قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَى * إلاَّ مَا شَاءَ اللهُ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأرْضُ إلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾[2] أو - لا أقلّ - هو مشترك بين الاستثناء الذي يُخرج فرداً من المستثنى منه كما في قولك: "جاءني القوم إلاّ رجلاً" حيث استثنيت رجلاً من المستثنى منه، وبين الاستثناء المؤكّد للمضمون، وحينئذ تكون الآيات مجملة لا يصحّ تقييد المطلق بها.

إلاّ أنّ الصحيح أنّ الاستثناء هنا ليس من هذا القبيل ولا يمكن التمسّك بهذه الطائفة لنفي وقوع الشفاعة أصلاً لمجرّد احتوائها على الاستثناء والارتضاء، بل بالإمكان الاستدلال بها على وقوع الشفاعة لتضمّنها على المصدر المضاف الدالّ على الوقوع كما سبقت الإشارة إلى ذلك في آيات الطائفة الثانية، ولورود الاستثناء فيها بصيغ متعدّدة كما في قوله تعالى: ﴿إلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ و ﴿إلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ و ﴿إلاَّ لِمَنِ

---

(١) الأعلى: ٦ ـ ٧.

(٢) هود: ١٠٧.

ارْتَضَى﴾ و ﴿إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾، فلو أمكن القول بأنّ الإذن والارتضاء هما بمعنى المشيئة لتشابه هذه الآيات قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَى * إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ﴾ وقوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ فلا يمكن القول بأنّ الاستثناء بقوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ هو استثناء مشيئة أيضاً.

هذا كلّه بالنسبة إلى الآيات القرآنية، وأمّا الروايات الشريفة فهي دالّة على وقوع الشفاعة كدلالة الآيات وهل أدلّ على وقوع الشفاعة من قوله صلى الله عليه وآله «**من لم يؤمن بشفاعتي فلا أناله الله شفاعتي**»(١) وقد تعرّضنا للعديد من الروايات المثبتة للشفاعة سابقاً.

الإشكال السادس: إشكال التشابه

سبق أن قلنا إنّ الدليل العقلي لا يفي بإثبات تحقّق ووقوع الشفاعة خارجاً ، وغاية ما يفيده هو إمكان وقوعها.

ومن هنا حاول البعض أن ينفي إمكانية الاستدلال بالمنقول على وقوع الشفاعة خارجاً بدعوى أنّ آيات الشفاعة هي من الآيات المتشابهة لا المحكمة التي أُمرنا بالإيمان بها فقط وإرجاع علمها إلى الله تعالى.

والجواب على هذا الإشكال يتمّ من خلال معرفة أنّ القرآن الكريم قد صرّح بأنّ آياته على قسمين محكم ومتشابه؛ قال تعالى:

(١) بحار الأنوار: ج٨، ح٧٤، ص٥٧.

﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِـهَاتٌ﴾(١) وأنّ المتشابه من الآيات يصير محكماً بإرجاعه إلى المحكم، على ما مبيّن في محلّه، حيث يجعل المحكم هو (الأمّ) والمتشابه هو (الفرع) من دون أن يسقط المتشابه عن الاعتبار ولا يبقى لنا منه إلاّ التلاوة وتحصيل الثواب على رأي المستشكل.

ثم إنّه لا اختصاص للشفاعة في كون بعض الآيات تنفيها لغير الله على نحو الاستقلال، كقوله تعالى: ﴿يَوْمٌ لاَ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ﴾(٢).

وأُخرى تثبتها لله تعالى أصالة وبنحو الاستقلال والإطلاق، كقوله تعالى: ﴿قُلْ للهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً﴾(٣).

وثالثة تثبتها لغيره مقيّدة برضاه وإذنه عزّ وجلّ، كقوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلاَّ بِـإِذْنِهِ﴾(٤).

بل القرآن صريح في اعتبار كلّ شيء وكلّ فعل وكلّ صفة في عالم الإمكان لله تعالى وحده ومنفيّاً عن غيره بنحو الاستقلال وقد يثبت بعضه لغيره بإذنه تعالى.

ومن ذلك على سبيل المثال آيات علم الغيب في قوله تعالى: ﴿قُلْ

(١) آل عمران: ٧.

(٢) البقرة: ٢٥٤.

(٣) الزمر: ٤٤.

(٤) البقرة: ٢٥٥.

لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إلاَّ اللهُ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إلاَّ هُوَ﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً * إلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُول﴾(٣).

وكذلك الآيات الناطقة في التوفّي والخلق والرزق والتأثير والحكم والملك وغيرها.

فلو تمّ الإشكال في الشفاعة لتمّ في كلّ هذه الموضوعات ولبقيت معانيَ يُتعبّد بها فقط وتقرأ آياتها للثواب. ولا يقول بذلك أحد.

الإشكال السابع: إنّ الشفاعة لدفع العقاب لا لرفعه

حيث ادّعى البعض أنّ الشفاعة الواردة في الآيات والروايات إنّما تدلّ على دفع العقاب قبل وجوده لا رفعه بعد أن يوجد.

فالأنبياء - مثلاً - شفعاء للناس بمعنى أنّ نزول الشريعة عليهم (عليهم السلام) وتعليمهم إيّاها للناس وهدايتهم إلى العمل الصالح وتعليمهم سبل التوبة، كلّ ذلك يكون سبباً لدفع العقوبة قبل أن تثبت في حقّ هذا العبد أو ذاك، لا أنّها - أي العقوبة - سوف تتحقّق وتثبت له ثمّ ترفع عنه يوم القيامة بواسطة شفاعة الأنبياء والملائكة ونحوهم،

(١) النمل: ٦٥.
(٢) الأنعام: ٥٩.
(٣) الجن: ٢٥ ـ ٢٦.

والأنبياء بذلك شفعاء في الدنيا والآخرة.

وهناك فرق واضح بين أن تكون الشفاعة دافعة للعقاب أو رافعة له، فمن يخرج من هذه الدنيا مؤمناً صالحاً فهو من أهل الجنّة، وأمّا من يخرج منها عاصياً فهو من أهل النار ولا يمكن أن يتبدّل حاله على فرض أنّ الشفاعة دافعة، وأمّا إذا كانت رافعة للعقاب فإنّ بالإمكان أن يُغفر لمثل هذا العبد ويصبح من أهل الجنّة.

الجواب: وعلى كلّ حال، فإنّ الجواب على هذا الإشكال يبتني على القبول بأنّ الشفاعة دافعة للعقاب كما قال المستشكل، ولكنّنا لا نقبل بحصرها في الدفع فقط بل هي رافعة للعقاب أيضاً.

فلا شكّ عندنا بأنّ من وظيفة الأنبياء عليهم السلام أن يبلّغوا الوحي الإلهي إلى الناس ويعلّموهم طرق النجاة والوصول إلى الجنّة ويحذّروهم طرق الهلاك وورود جهنّم ويكونون بذلك سبباً من أسباب دفع العقاب عن الناس ومصداقاً من مصاديق الشفاعة.

إلاّ أنّ الشفاعة غير محصورة ولا مقصورة على هذا الأمر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[1] فإنّ هذه الآية ليست في مورد الإيمان والتوبة قطعاً، إذ بهما يغفر حتّى الشرك أيضاً.

وعلى هذا تكون الآية صريحة في أنّ الشفاعة تشمل العاصي الذي لم يتب وتكون حينئذ رافعة للعقاب لا دافعة له.

---

(١) النساء: ٤٨.

الإشكال الثامن: إشكال تقييد الرحمة الإلهية

تختصّ الشفاعة على ما هو واضح ببعض الناس دون غيرهم، وحينئذ قد يقال: لماذا لا يشفع الله تعالى لكلّ الناس وهو أرحم الراحمين، وهل شفاعته لبعض الناس إلاّ تقييد لرحمته سبحانه وتعالى؟

وللجواب على هذا التساؤل نقول:

إنّ هذا الأمر مرتبط بقابلية القابل لا فاعلية الفاعل، فإنّ الرحمة الإلهية نازلة على كلّ العباد ولكن بعضاً لا تشمله؛ لفقدانه القابلية على أن تناله هذه الرحمة؛ قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِـقَدَرِهَا..﴾[1].

وهو في هذا كالعالم الذي يعلّم طفلاً فلا يتعلّم الطفل؛ لقصور قابليته لا لمحدودية فاعلية أُستاذه، وكالبطل يرمي قطعة من ورق فلا تذهب بعيداً لا لعجزه بل لقصور قابلية الورق على الابتعاد، كما سبقت الإشارة إلى ذلك أيضاً.

الإشكال التاسع: إشكال توسّط الشفعاء وتقييد القدرة الإلهية

جعل الله سبحانه وتعالى الشفعاء واسطة بينه وبين عباده لكي يغفر لهم ذنوبهم، ومن هنا قد يتساءل: لماذا لم يغفر الله سبحانه وتعالى هذه الذنوب مباشرةً ومن دون توسّط الشفعاء؟

---

(١) الرعد: ١٧.

والجواب على هذا: إنّ الله سبحانه وتعالى قادر على أن يغفر لمن يشاء من غير شفيع لأنّه القادر على كلّ شيء. ولكنّه أبى إلاّ أن تجري الأمور بأسبابها، فجعل لهذا العالم نظاماً وسنّة ولا تبديل ولا تحويل لسنّة الله تعالى. وجعل الشفاعة سنّة وباباً لغفران ذنوب العصاة وجعلها بتوسّط الشفعاء لأمر وحكمة هو يعلمها جلّ وعلا، وهو القائل: ﴿لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾(١).

الإشكال العاشر: اقتضاء الشفاعة للشرك

هناك من يدّعي أنّ الاعتقاد بوجود شافع غير الله تبارك وتعالى هو نحو من الشرك.

والجواب: إنّ الاعتقاد بتحقّق الشفاعة من قبل الشافع مستقلاً ومن دون إذن الله ورضاه هو شرك كما هو صريح القرآن.

أمّا الاعتقاد بوجود الشفعاء بإذن الله تبارك وتعالى، فهو حقيقة قرآنية وبصريح القرآن أيضاً وهو عين التوحيد، كما لا يخفى.

بعبارة أخرى نقول: إنّ القرآن الكريم، وإن أثبت أنّ كلّ أمر في الوجود هو لله تعالى على نحو الاستقلال، إلا أنه أثبت أن بعض هذه الأمور هي لغير الله تعالى بإذنه كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ للهِ جَمِيعاً﴾(٢) وقوله تعالى: ﴿وَللهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾(٣) وقوله

---

(١) الأنبياء: ٢٣.

(٢) النساء: ١٣٩.

(٣) المنافقون: ٨.

تعالى: ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ للهِ جَمِيعاً﴾[١] وقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[٤] وقوله تعالى: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[٥] وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ﴾[٦] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾[٧] وقوله تعالى: ﴿لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾[٨] وغير هذه من الآيات المباركة.

فمن يرزق أو يعلم الغيب أو يميت أو يحيي أو يملك، فإنّما ذلك بإذن الله ورضاه لا من دونه تبارك وتعالى، بل حتّى ملك الإنسان لنفسه وملكه لماله إنّما يكون بإذن الله تعالى ولذلك لا يسعه أن يتصرّف فيهما بما يشاء. فلا استقلالية في هذا الوجود لغير الله تعالى، وعلى الإنسان أن يقتلع من ضميره ومن وجدانه جذور الاستقلال، ولا يحقّ لأحد قول (أنا) إلاّ الله تعالى، وهذا هو معنى «التكبّر» و «المتكبّر» وعندما أراد إبليس أن يقول (أنا) صار رجيماً ولعيناً إلى أبد الآبدين.

---

(١) البقرة: ١٦٥.
(٢) الأنفال: ٦٠.
(٣) الرعد: ١٦.
(٤) المؤمنون: ١٤.
(٥) الزمر: ٤٢.
(٦) السجدة: ١١.
(٧) الذاريات: ٥٨.
(٨) الحج: ٥٨.

بل حتّى ما يحكم فيه الله تعالى ويقضي فيه بقضاء حتم، يُثبت له نوعاً من المشيئة، كي لا يتبادر إلى الأذهان بأنّ مثل هذه الأمور قد استقلّت عنه وخرجت من يده وبطل سلطانه وملكه لها، كقوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَى * إلاَّ مَا شَاءَ اللهُ﴾[(١)] وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ..﴾[(٢)] وغيرهما...

وهكذا لا تخرج مسألة الشفاعة عن هذا الأمر أيضاً فهي لله جميعاً أوّلاً وبالذات ﴿قُلْ للهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً﴾[(٣)]. ولغيره ثانياً وبالعرض ومن بعد إذنه ورضاه؛ قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلاَّ بِـإِذْنِهِ﴾[(٤)] ولا يمكن إثباتها لغيره تعالى بالتفويض والاستقلال أبداً.

ولعلّ مردّ هذا الإشكال والادعاء (بأن وجود شافع غير الله تعالى هو نحو من أنحاء الشرك) إلى ما يفهم من كلمات البعض من أنّ الله سبحانه وتعالى قد ملّك أمر الشفاعة إلى الشفعاء على نحو التفويض، الباطل عندنا.

ولعلّ مردّه أيضاً إلى تصوّر أن طلب الشفاعة في الآخرة وتحقّقها في إطار الإذن الإلهي أمر مسلّم به ولكن طلبها في الحياة الدنيا ممّن

(١) الأعلى:٦ ـ ٧.
(٢) هود: ١٠٨.
(٣) الزمر: ٤٤.
(٤) البقرة: ٢٥٥.

تصحّ شفاعته في الآخرة هو الشرك المنهيّ عنه.

غير أنّ الآيات القرآنية والأحاديث النبوية المعتبرة وسيرة المسلمين شاهدة على جواز ذلك، ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن أولاد يعقوب عليه السلام: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾(٢).

ومنها ما روى الترمذي عن أنس بن مالك، قال: سألت النبي صلى الله عليه وآله أن يشفع لي يوم القيامة، فقال: «**أنا فاعل**»(٣).

وقد حاول بعضٌ التخلّص من هذه الأجوبة، بقولهم: إنّ التوسّل والاستشفاع بالأنبياء والصالحين مشروع ومفيد وصالح ماداموا على قيد الحياة، وهذا هو المستفاد من الآيات والروايات، فإذا ماتوا انقطع هذا الأثر وأصبح التوسّل بهم شركاً.

وجواب هذا: أنّ التوسّل بمثل هؤلاء الشفعاء إن كان مشروط المنفعة بحياتهم فإنّ منفعة الشفاعة لن تتحقّق بعد موتهم، لا أنّ الاستشفاع بهم سوف يكون شركاً، لأنّ حياة الشفيع ومماته ليسا الملاك في التوحيد والشرك، ومن لم يكن الاستشفاع به في حياته

---

(١) يوسف: ٩٧ ـ ٩٨.

(٢) النساء: ٦٤.

(٣) **الترمذي**: ٤، ٤٢ باب ما جاء في شأن الصراط.

شركاً فلن يكون شركاً بعد موته.

هذا، مع أنّ ثبوت الحياة البرزخية من ناحية، وكون الشهداء فضلاً عن الأنبياء والأوصياء أحياءً عند ربّهم يُرزقون، وأنّ العلاقة بيننا وبين الأموات لا تنقطع بل يسمعون كلامنا ويردّون سلامنا على ما يستفاد من عشرات الآيات الشريفة، كلّ ذلك يدلّ على أنّ العلاقة بيننا وبين من نستشفع بهم غير مقطوعة، وأنّ الاستشفاع بهم ذو أثر أحياءً كانوا أو أمواتاً.

الإشكال الحادي عشر: إشكال المعتزلة

انطلق المعتزلة في رفضهم للشفاعة في حقّ مرتكبي الكبيرة بحيث ترفع العقاب عنهم، انطلقوا في ذلك على ما يعتقدونه من أنّ مرتكب الكبيرة كافر خارج عن حقيقة الإيمان وحينئذ فلا شفاعة له؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾(١) ولقوله تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾(٢).

ولأنّ الشفاعة لمن ارتضاه الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾(٣) والله لا يرتضي الكفر ولا الكفّار؛ لقوله تعالى: ﴿وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾(٤).

---

(١) آل عمران: ١١٦.

(٢) غافر: ١٨.

(٣) الأنبياء: ٢٨.

(٤) الزمر: ٧.

ثمّ انتهوا إلى أنّ الصغائر من الذنوب معفوّ عنها مطلقاً، والكبائر بالتوبة وأنّ الشفاعة هي لزيادة الثواب ورفع درجات المؤمنين[١].

والجواب: إنّ المؤمن لا يخرج عن حقيقة الإيمان بمجرّد ارتكابه للكبيرة - على ما حقّق في محلّه من كتب الإيمان - فلا تشمله حينئذ آية ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ ...﴾[٢] كما أن آية ﴿وما للظالمين من حميم ...﴾[٣] مختصّة بالكافرين جمعاً بين الأدلّة؛ إذ دلّت الآيات والروايات والإجماع على ثبوت الشفاعة في حقّ المذنبين والعصاة من غير الكافرين. كما يمكن الإجابة عنها أيضاً بأنّ الآية نفت الشفيع المطاع وليس في الآخرة شفيع يطاع لأنّ المطاع فوق المطيع، والله تعالى فوق كلّ موجود، ولا أحد فوقه، ولا يلزم من نفي الشفيع المطاع نفي الشفيع المجاب[٤].

وأمّا الصغائر من الذنوب مع عدم ارتكاب الكبيرة، وارتكاب الكبائر مع التوبة، فلا يستحقّان العقوبة والعذاب، فلا معنى للعفو في مورديهما.

وأمّا أنّ الشفاعة لزيادة الثواب فقط فإنّ الأدلّة القطعية من الكتاب

---

(١) راجع **أوائل المقالات** للشيخ المفيد، ص٥٤، و**شرح العقائد النسفية** للتفتازاني، ص١٩٦ وما بعدها.

(٢) النساء: ٤٨.

(٣) غافر: ١٨.

(٤) راجع **بحار الأنوار**: ج٨، كتاب العدل والمعاد، باب الشفاعة، ص٦٢، ط: طهران.

والسنّة والإجماع - التي أشرنا إليها سابقاً - واللغة أيضاً قائمة على أنّ الشفاعة لا تختصّ بهذا المورد فقط، بل تشمل موارد طلب العفو عن الجناية أيضاً.

وإلاّ فإنّنا سنكون بذلك شفعاء لسيّد الرسل والأنبياء صلى الله عليه وآله حين نطلب له من الله تعالى علوّ الدرجات، ولا يلتزم أحد بهذا؛ لوضوح بطلانه.

الفصل الثالث

بحث روائي في الشفاعة

لا يتعرّض القرآن الكريم عادةً إلاّ إلى الخطوط العامّة والكلّية للمواضيع والنظريات التي يطرحها، وأمّا الأمور الجزئية والخطوط التفصيلية فهي موكولة إلى بيانات الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله والأئمّة الأطهار عليهم السلام.

ومن هنا يتبيّن لنا مدى أهميّة الرجوع إلى عدل القرآن الكريم من أجل الوقوف على الأفكار والنظريات الإسلامية بصورة تامّة ومفصّلة.

وبحث الشفاعة، هو من بين البحوث التي تعرّض لها القرآن الكريم وفق هذا المنهج، حيث طرحها بصورة عامّة وأثبت أصل وجودها في الدنيا والآخرة، ثمّ جاءت الروايات الشريفة لتفصّل فيها ولتذكر الأمور الجزئية المرتبطة بها.

ونحن وإن كنّا قد ذكرنا عدداً من الروايات الشريفة في ثنايا البحوث السابقة بمناسبة مواضيعها إلاّ أنّنا هنا نحاول أن نتعرّض لموضوع الشفاعة من خلال الروايات بشكل أساسي وخصوصاً فيما يتعلّق بمصاديق الشفعاء وفي من تجري الشفاعة ووقتها.

شفاعة أشفع الشافعين

من الواضح أنّ الشفاعة بالذات والأصالة لله سبحانه، ولا شفاعة ولا شفيع إلاّ من بعد إذنه، فهو أشفع الشافعين، وهناك الكثير من الروايات التي تصف شفاعته وسعة رحمته تبارك وتعالى، منها:

• في الخصال، عن الإمام الرضا عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إذا كان يوم القيامة تجلّى الله عزّ وجلّ لعبده المؤمن فيوقفه على ذنوبه ذنباً ذنباً ثمّ يغفر الله له، لا يُطلع الله له ملكاً مقرّباً ولا نبيّاً مرسلاً ويستر عليه أن يقف عليه أحد ثمّ يقول لسيّئاته: كوني حسنات**»(١).

• وفي الأمالي عن الصادق عليه السلام: «**إذا كان يوم القيامة نشر الله تبارك وتعالى رحمته حتّى يطمع إبليس في رحمته**»(٢).

شفاعة القرآن الكريم

ذكر القرآن الكريم ما يدلّ على أنّه بذاته شفيع كما في قوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(٣).

---

(١) بحار الأنوار: ج٦٩، ص٢٦١.
(٢) الأمالي: ص١٢٣، بحار الأنوار: ج٧، ص٢٨٧.
(٣) المائدة: ١٦.

ثمّ جاءت الروايات الشريفة لتبيّن هذا الأمر بصورة مفصّلة، فعن الإمام علي عليه السلام أنّه قال: «**واعلموا أنّ هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغشّ، والهادي الذي لا يضلّ، والمحدّث الذي لا يكذب، وما جالس هذا القرآن أحد إلاّ قام عنه بزيادة أو نقصان: زيادة في هدى، أو نقصان من عمى**» إلى أن قال عليه السلام: «**فاسألوا الله به، وتوجّهوا إليه بحبّه، ولا تسألوا به خلقه، إنّه ما توجّه العباد إلى الله تعالى بمثله، واعلموا أنّه شافع مشفّع، وقائل مصدّق، وأنّه من شفع له القرآن يوم القيامة شُفِّع فيه، ومن محل به القرآن يوم القيامة صدق عليه**»[1].

ومحلّ الشاهد في هذه الخطبة، قوله عليه السلام: «**واعلموا أنّه شافع مشفّع وقائل مصدّق، وأنّه من شفع له القرآن يوم القيامة شُفِّع فيه**» فللقرآن الكريم شفاعة، كما أنّ شفاعته يوم القيامة لا تردّ.

هذا ومن الروايات الأخرى التي بيّنت درجة شفاعة القرآن ومقامه عند الله تعالى يوم القيامة، ما ورد في الكافي عن سعد الخفّاف، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «**ياسعد تعلّموا القرآن فإنّ القرآن يأتي يوم القيامة في أحسن صورة نظر إليها الخلق والناس صفوف عشرون ومائة ألف صفّ...**».

إلى أن قال عليه السلام: «**ثمّ يجاوز حتّى ينتهي إلى ربّ العزّة تبارك وتعالى فيخرّ تحت العرش فيناديه تبارك وتعالى يا حجّتي في الأرض وكلامي الصادق الناطق ارفع رأسك وسل تُعط واشفع تشفّع**

(١) **نهج البلاغة**، الخطبة ١٧٦، ضبط الدكتور صبحي صالح.

فيرفع رأسه فيقول الله تبارك وتعالى: كيف رأيت عبادي؟ فيقول: يا ربّ منهم من صانني وحافظ عليّ ولم يضيّع شيئاً ومنهم من ضيّعني واستخفّ بحقّي وكذّب بي وأنا حجّتك على جميع خلقك، فيقول الله تبارك وتعالى: وعزّتي وجلالي وارتفاع مكاني لأثيبنّ عليك اليوم أحسن الثواب ولأعاقبنّ عليك اليوم أليم العقاب»[١].

وقريب من هذه الرواية، ما رواه جابر عن أبي جعفر عليه السلام حيث ورد في آخر رواية جابر بيان لمنازل من يشفع لهم القرآن الكريم، قال عليه السلام: «فيقول تبارك وتعالى: أدخلهم الجنّة على منازلهم، فيقوم فيتّبعونه، فيقول للمؤمن: اقرأ وارقه، قال: فيقرأ ويرقى حتّى يبلغ كلّ رجل منهم منزلته التي هي له فينزلها»[٢].

شفاعة النبي صلى الله عليه وآله

ورد في القرآن الكريم ما يدلّ على ثبوت الشفاعة بصورة عامّة للرسول صلى الله عليه وآله كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾[٣].

وقبل استعراض الروايات التي تدلّ على شفاعة الرسول الأعظم

(١) **الكافي**، للكليني: ج٢، كتاب فضل القرآن، ح١، ص٤٣٦، ط طهران.
(٢) **الكافي**، للكليني: كتاب فضل القرآن، ح١١، ط: طهران.
(٣) النساء: ٦٤.

صلى الله عليه وآله بصورة مفصّلة لابدّ أن نشير إلى قاعدة كلّية بخصوص تعامل الله سبحانه وتعالى مع عباده، على مستوى الطاعة والشكر أو مستوى العصيان والكفر.

فعلى مستوى الجانب الإيجابي من هذه العلاقة، أي مستوى الطاعة والعبادة والشكر والرضا والتسليم نرى أنّ قاعدة التعامل بالمثل هي السارية، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾[٢] وقوله عليه السلام في الحديث المعروف: «**أنا جليس من جالسني**»[٣]. فإذا وجد الإنسان أنّ الله سبحانه وتعالى لا يذكره ولا يجالسه ولا يزيده من الخير فإنّ سبب ذلك هو تكبّر الإنسان ذاته وعدم مجالسته وذكره وشكره لله سبحانه وتعالى.

وعلى كلّ حال، فقد أخذ الله تعالى على نفسه أن يؤدّي للمحسن جزاء عمله ولا يتخلّف عن ذلك أبداً، بل جعل للمحسن مزيداً كما أشارت إلى ذلك الآيات المباركة كما في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا..﴾[٥].

---

(١) البقرة: ١٥٢.

(٢) إبراهيم: ٧.

(٣) **مستدرك الوسائل**: ج ٧ ص ٥٣٥ باب ٢٢ استحباب التسبيح والصدقة.

(٤) سورة ق: ٣٥.

(٥) الأنعام: ١٦٠.

وأمّا في البعد السلبي، فليس من الضرورة أن يقابل الله سبحانه وتعالى فعل العبد بالمثل، فقد يقابله بالمثل إذا كان مشركاً أو كافراً أو منافقاً، وذلك هو الجزاء الوفاق الذي أُشير إليه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً * لِلْطَّاغِينَ مَآباً * لاَبِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً * لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلاَشَرَاباً * إِلاَّ حَمِيماً وَغَسَّاقاً * جَزَاءً وِفَاقاً﴾[1] أي أنّ الجزاء يأتي وفق العمل ولا يوجد فيه زيادة.

ولكنّه سبحانه وتعالى في غير ذلك قد كتب على نفسه أنّه قد يعاقب وقد يعفو ويرفع يده عن الوعيد وعن الجزاء، كما في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ..﴾[2] وقوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأمْرِ اللهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾[3].

ومن أهمّ مصاديق هذه القاعدة التي بيّنها في جانبها الإيجابي هو ما وصل إليه الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله في عبوديته وطاعته، وما قابله الله تعالى على ذلك بالمثل .

بيان ذلك: أنّ الإنسان إذا صار عبداً لله ووصل إلى مقام التسليم المحض لله في كلّ شيء، وإلى مقام الرضا بقضائه وقدره تبارك

(١) النبأ: ٢١ ـ ٢٦.
(٢) آل عمران: ١٢٨.
(٣) التوبة: ١٠٦.

وتعالى ﴿وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾(١) فإنّ الله سبحانه وتعالى سوف يقابله بالمثل لأنّ من جالس الله جالسه ومن ذكر الله ذكره ومن شكر الله شكره وزاده، ومن أرضى الله أرضاه وأعطاه، وهكذا كان حال الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، حيث أرضى الله فأرضاه وأعطاه لا كيف كان، بل بشرط أن يرضى ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾(٢).

فما الذي أعطاه الله تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وآله حتّى أرضاه؟ بل ما معنى أن يرضى مثل هذا العبد عن ربّه؟

إنّ إعطاء الجنّة والخلاص من النار، أُمور تعطى لأواسط الناس، فكيف بخاتم الأنبياء والمرسلين، ومن له مقام الرسالة ومقام البرزخية العظمى بين الوجوب والإمكان، وعلى هذا لابدّ أن يكون العطاء أمراً غير هذه الأمور، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً * وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾(٣) حيث أشارت الآية الأولى إلى الصلوات الأربع ثمّ وصفت صلاة الصبح بأنّها صلاة مشهودة ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾ لأنّ هذه الصلاة تشهد لها الملائكة بكلا قسميها، ملائكة الليل وملائكة النهار، فعن زرارة وحمران ومحمّد بن مسلم عن أبي

(١) البقرة: ١٢٨.

(٢) الضحى: ٥.

(٣) الإسراء: ٧٨ ـ ٧٩.

جعفر وأبي عبد الله عليه السلام عن قوله: ﴿أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ قال: «**جمعت الصلوات كلّهنّ، ودلوك الشمس زوالها، وغسق الليل انتصافه**» وقال: «**إنّه ينادي مناد من السماء كلّ ليلة إذا انتصف الليل، من رقد عن صلاة العشاء إلى هذه الساعة فلا نامت عيناه، وقرآن الفجر**» قال: «**صلاة الصبح**» وأمّا قوله «**كان مشهوداً**» قال: «**تحضره ملائكة الليل وملائكة النهار**»[1].

ثمّ بيّنت الآية الثانية أنّ الله سبحانه وتعالى سوف يكافئ رسوله صلى الله عليه وآله على ذلك وسيبعثه مقاماً محموداً.

ولعلّ البحث التفسيري - ولقلّة القرائن المساعدة - لا يفي بإثبات أنّ هذا المقام المحمود هو الأمر الذي سيعطى للرسول صلى الله عليه وآله فيرضى به.

ولكن البحث الروائي، وبمساعدة الروايات العديدة الواردة من طرق الفريقين، يثبت لنا أنّ هذا المقام المحمود هو الذي أُعطي للرسول صلى الله عليه وآله فرضي به، وأنّ هذا المقام المحمود ما هو إلاّ الشفاعة لأمّته، بل الشفاعة للجميع.

---

(١) **تفسير العياشي**: ج٢، في قوله: أقم الصلاة لدلوك الشمس، ح١٤١، ص٣٠٩ ط: طهران.

روايات المقام المحمود

فمن الروايات التي دلّت على أنّ هذا المقام المحمود هو الشفاعة ما ورد في تفسير العياشي، عن أحدهما (الإمام الباقر أو الصادق) عليهما السلام، في قوله تعالى: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾، قال: هي الشفاعة[1].

وفي البحار، عن أبي الحسن العسكري عن آبائه عليهم السلام، قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: سمعت النبي صلى الله عليه وآله يقول: «**إذا حشر الناس يوم القيامة، ناداني مناد: يا رسول الله إنّ الله جلّ اسمه قد أمكنك من مجازاة محبّيك ومحبّي أهل بيتك الموالين لهم فيك والمعادين لهم فيك فكافهم بما شئت، فأقول: يا ربّ الجنّة، فأُبوئهم منها حيث شئت، فذلك المقام المحمود الذي وعدت به**»[2].

دلّت الروايات الشريفة السابقة على أنّ المقام المحمود الذي أُعطي للخاتم صلى الله عليه وآله هو الشفاعة، وبالإمكان أن نتبيّن ومن خلال الآية الشريفة ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾[3] أنّ هذا المقام سوف يعطى للرسول صلى الله عليه وآله يوم القيامة وذلك بقرينة لفظة (البعث) الذي لا يطلق في القرآن الكريم إلاّ على يوم القيامة.

---

(١) **تفسير العياشي**: ج٢، في قوله تعالى: ﴿عسى أن يبعثك ربّك..﴾ ج١٤٨ ص٣١٤.

(٢) **بحار الأنوار**: ج٨، كتاب العدل والمعاد، باب الشفاعة، ح٢٠، ص٣٩، ط: طهران.

(٣) الإسراء: ٧٩.

وعلى أقلّ التقادير فإنّ آثار هذا المقام تظهر يوم القيامة وإن كان أساسه في الحياة الدنيا من خلال التهجّد والقيام ليلاً و....

ثمّ إنّ الآية المباركة أشارت إلى أنّ الرسول صلى الله عليه وآله سوف يحمد في هذا المقام لأنّه مقام محمود، فما هو الحمد وهل هو مطلق أم مقيّد؟

أمّا الحمد فهو كما ورد في تفسير «الميزان»: الثناء على الجميل الاختياري والمدح أعمّ منه، يقال: حمدت فلاناً أو مدحته لكرمه ويقال مدحت اللؤلؤ على صفائه ولا يقال حمدته على صفائه.

ومن هنا يتبيّن أنّ النبي صلى الله عليه وآله سوف يصل إلى مقام يحمده الآخرون فيه على ما يصدر منه صلى الله عليه وآله من فعل باختياره بحقّهم وهو (الشفاعة).

ثمّ إنّ الآية بيّنت أنّ هذا المقام هو مقام محمود على نحو الإطلاق، إذ الحمد يصدر من الجميع وبلا استثناء، وما من أحد إلاّ وينتفع بفعله صلى الله عليه وآله وشفاعته ويحتاج إليها يومئذ، على ما سوف نتبيّنه من الروايات اللاحقة - إن شاء الله تعالى .

وهذا معنى قول أهل المعرفة: إنّ الله سبحانه وتعالى هو المحمود المطلق، ولكنّه المحمود المطلق بالذات.

كما أنّ له تعالى مظهراً، وهو محمود مطلق أيضاً، ولكنّه بالغير وبإذن الله تعالى أصبح مظهراً لقوله تعالى (الحمد لله) وما هو إلاّ الرسول الخاتم صلى الله عليه وآله.

روايات الإعطاء والرضا

أمّا الروايات التي دلّت على أنّ ما أُعطي للرسول صلى الله عليه وآله فرضي به هو الشفاعة، فمنها، ما روي عن ابن عباس أنّه قال في قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ يعني: ولسوف يشفّعك يا محمّد يوم القيامة في جميع أهل بيتك فتُدخلهم كلّهم الجنّة فترضى بذلك عن ربّك[1].

وفي البحار، عن بشر بن شريح البصري، قال: قلت لمحمّد بن علي عليهما السلام: أيّة آية في كتاب الله أرجى؟ قال: ما يقول فيها قومك؟ قال: قلت: يقولون ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ﴾[2]، قال: «**لكنّا أهل البيت لا نقول ذلك**، قال: قلت: فأي شيء تقولون فيها؟ قال: نقول: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾[3] **الشفاعة، والله الشفاعة والله الشفاعة**»[4].

والخلاصة، فإنّ الجمع بين روايات «المقام المحمود» وروايات «الإعطاء والرضا» يثبت لنا أنّ المقام المحمود الذي سيبعث به الرسول صلى الله عليه وآله هو الشفاعة، وهو الأمر الذي سيعطيه الله تعالى له صلى الله عليه وآله فيرضى به.

(١) **بحار الأنوار**: ج٨، كتاب العدل والمعاد، باب الشفاعة، ح٤٠، ص٤٣، ط: طهران.
(٢) الزمر: ٥٣.
(٣) الضحى: ٥.
(٤) **بحار الأنوار**: ج٨، كتاب العدل والمعاد، باب الشفاعة، ح٧٢، ص٥٧ ط: طهران.

أرجى آية في القرآن الكريم

تعرّضت رواية البحار عن الباقر عليه السلام إلى بيان أمرين مهمّين:

الأمر الأوّل: أنّ ما أُعطي للرسول صلى الله عليه وآله حتّى رضي هو الشفاعة.

الأمر الثاني: أنّ آية ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ...﴾ هي الآية الأرجى في القرآن الكريم.

أمّا الأمر الأوّل فواضح، وأمّا الأمر الثاني وهو كون آية ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ ...﴾ هي أرجى آية في القرآن الكريم حتّى من آية ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا ...﴾ فإنّ مردّ ذلك إلى أنّ الرحمة التي اشتملت عليها آية ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ..﴾ هي رحمة عامّة مطلقة، بينما قُيّدت الرحمة في آية ﴿قُلْ يَا عِبَادِي..﴾ مع شمولها لكلّ الذنوب، بالتوبة والإسلام والعمل بالاتّباع؛ قال تعالى ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لاَ تُنْصَرُونَ * وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ﴾(١).

ووضّح العلاّمة قدس سره هذا الأمر ببيان آخر من خلال تعرّضه إلى

---

(١) الزمر: ٥٣ ـ ٥٥.

(الإعطاء) الذي وعد الله تعالى رسوله صلى الله عليه وآله به وإلى (رضا) رسول الله صلى الله عليه وآله بذلك، فقال قدس سره:

«إنّ الآية ﴿ولسوف يعطيك ربّك﴾ في مقام الامتنان وفيها وعد يختصّ به رسول الله صلى الله عليه وآله لم يعد الله سبحانه بمثله أحداً من خلقه قطّ، ولم يقيّد الإعطاء بشيء فهو إعطاء مطلق وقد وعد الله ما يشابه ذلك فريقاً من عباده في الجنّة فقال تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾(٢)، فأفاد أنّ لهم هناك ما هو فوق مشيّتهم، والمشيئة تتعلّق بكلّ ما يخطر ببال الإنسان من السعادة والخير، فهناك ما لا يخطر على قلب بشر كما قال تعالى: ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾(٣) فإذا كان هذا قدر ما أعطاه الله لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات وهو أمر فوق القدر كما عرفت ذلك، فما يعطيه لرسوله صلى الله عليه وآله في مقام الامتنان أوسع من ذلك وأعظم، فافهم.

فهذا شأن إعطائه تعالى، وأمّا شأن رضا رسول الله صلى الله عليه وآله فمن المعلوم أنّ هذا الرضا ليس هو الرضا بما قسم الله، الذي هو زميل لأمر الله؛ فإنّ الله هو المالك الغني على الإطلاق وليس للعبد إلاّ الفقر والحاجة فينبغي أن يرضى بقليل ما يعطيه ربّه وكثيره وينبغي أن

---

(١) الشورى: ٢٢.

(٢) ق: ٣٥.

(٣) السجدة: ١٧.

يرضى بما قضاه الله في حقّه، سرّه ذلك أو ساءه، فإذا كان هذا هكذا فرسول الله صلى الله عليه وآله أعلم وأعمل، لا يريد إلاّ ما يريده الله في حقّه، لكن هذا الرضا حيث وضع في مقابل الإعطاء يفيد معنى آخر نظير إغناء الفقير بما يشكو فقده، وإرضاء الجائع بإشباعه فهو الإرضاء بالإعطاء من غير تحديد، وهذا أيضاً ممّا وعد الله ما يشابهه لفريق من عباده؛ قال عزّ من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾[(١)]، وهذا أيضاً لموقع الامتنان والاختصاص يجب أن يكون أمراً فوق ما للمؤمنين وأوسع من ذلك، وقد قال تعالى في حقّ رسوله: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[(٢)]، فصدّق رأفته. وكيف يرضى رسول الله صلى الله عليه وآله ويطيب نفسه أن يتنعّم بنعيم الجنّة ويرتاض في رياضها وفريق من المؤمنين متغلغلون في دركات السعير، مسجونون تحت أطباق النار وهم معترفون لله بالربوبية، ولرسوله بالرسالة، ولما جاء به بالصدق، وإنّما غلبت عليهم الجهالة، ولعب بهم الشيطان، فاقترفوا معاصي من غير عناد واستكبار»[(٣)].

وهذا نوع من البيان للآية ولكن من خلال الاسترحام لمقام الرسالة

---

(١) البيّنة: ٧، ٨.

(٢) التوبة: ١٢٨.

(٣) **الميزان**، للطباطبائي: ج١، ص١٧٧ ـ ١٧٨، ط: ايران.

ومقام الخاتمية، فكأنّه يقول: يارسول الله إنّ الله أعطاك وعداً بأن يعطيك حتّى ترضى، ولا يخلف الله وعده، وأخبر عنك بأنّك ﴿بِـالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ فكيف تنعم بالجنّة وبعض المؤمنين في النار لا لعنادهم بل لجهالتهم ولعب الشيطان بهم.

وعلى كلّ حال، فإنّ الجمع بين الآيات الدالّة على رحمة النبي صلى الله عليه وآله كقوله تعالى ﴿بِـالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾(١) وبين آية ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾(٢) يبيّن مدى سعة الرحمة التي تشتمل عليها آية ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ الأمر الذي جعلها أرجى آية في القرآن الكريم، وأنّ شفاعة الرسول صلى الله عليه وآله المستفادة منها شاملة لأصحاب الكبائر من أُمّته صلى الله عليه وآله ممّن خلطوا عملاً صالحاً وسيّئاً مع كونهم من المرضيين ديناً.

روايات أخرى في شفاعة الرسول صلى الله عليه وآله

وهناك روايات كثيرة أُخرى أشارت إلى ثبوت الشفاعة للرسول صلى الله عليه وآله منها:

١ - عن الحسين بن خالد، عن الرضا، عن آبائه، عن أمير المؤمنين عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**من لم يؤمن بحوضي فلا أورده الله حوضي ومن لم يؤمن بشفاعتي فلا أناله**

---

(١) التوبة: ١٢٨.

(٢) الضحى: ٥.

الله شفاعتي»[١].

٢ – عن جابر بن عبد الله الأنصاري، عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: «قالت فاطمة عليها السلام لرسول الله صلى الله عليه وآله: ياأبتاه أين ألقاك يوم الموقف الأعظم يوم الأهوال ويوم الفزع الأكبر؟ قال: يا فاطمة عند باب الجنّة ومعي لواء الحمد وأنا الشفيع لأمّتي إلى ربّي؛ قالت: يا أبتاه فإن لم ألقك هناك؟ قال: القيني على الحوض وأنا أسقي أُمّتي ؛ قالت: يا أبتاه إن لم ألقك هناك؟ قال: القيني على الصراط وأنا قائم أقول: ربّ سلّم أُمّتي ؛ قالت: فإن لم ألقك هناك؟ قال: القيني وأنا عند الميزان أقول: ربّ سلّم أمّتي؛ قالت: فإن لم ألقك هناك؟ قال: القيني على شفير جهنّم أمنع شررها ولهبها عن أمّتي، فاستبشرت فاطمة بذلك، صلّى الله عليها وعلى أبيها وبعلها وبنيها»[٢].

٣ – وعن علي بن أبي حمزة، قال: قال رجل لأبي عبد الله عليه السلام: إنّ لنا جاراً من الخوارج يقول: إنّ محمّداً يوم القيامة همّه نفسه فكيف يشفع؟ فقال أبو عبد الله عليه السلام: «ما أحد من الأوّلين والآخرين إلاّ وهو يحتاج إلى شفاعة محمّد صلى الله عليه وآله يوم القيامة»[٣].

---

(١) **بحار الأنوار**: ج٨، كتاب العدل والمعاد، باب الشفاعة، ح ٤، ص٣٤، ط: طهران.
(٢) المصدر نفسه: ح٦، ص٣٥.
(٣) المصدر نفسه: ح٣١، ص٤٢.

بحث في احتياج الكلّ إلى شفاعة الرسول الخاتم

ورد في العديد من الروايات أنّه ما من أحد من الأوّلين والآخرين إلاّ وهو محتاج إلى شفاعة محمّد صلى الله عليه وآله، فكيف نفهم حاجة الجميع إلى شفاعته صلى الله عليه وآله وفيهم الأنبياء والأولياء والأئمّة عليهم السلام؟

ولعلّ بإمكاننا الإجابة على هذا التساؤل بالرجوع إلى الرواية السابقة التي رواها أبو العبّاس المكبّر فقد بيّنت أنّ أقسام الشفاعة ودرجاتها مختلفة، فإنّ الشفاعة التي ذكرها الإمام عليه السلام بقوله: «**ويلك فهل يشفع إلاّ لمن وجبت له النار؟**» هي غير الشفاعة العامّة التي ذكرها عليه السلام بقوله «**ما من أحد من الأوّلين والآخرين إلاّ وهو محتاج إلى شفاعة محمّد صلى الله عليه وآله**» إذ في هؤلاء الأوّلين والآخرين من لم تجب له النار كالأنبياء والأئمّة عليهم السلام فهؤلاء لا يحتاجون لشفاعة محمّد صلى الله عليه وآله من جهة وجوب النار لهم – والعياذ بالله – بل إنّهم شفعاء بأنفسهم لقوله تعالى: ﴿وَلاَ يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(١) فالشهداء هم الشفعاء، والأنبياء والرسل من الشهداء بلا شكّ. وعلى هذا الأساس فإنّ حاجة الأنبياء والأئمّة عليهم السلام لشفاعة محمّد صلى الله عليه وآله من جهة أُخرى كزيادة درجات الثواب في الجنّة. وهكذا تشمل شفاعته صلى الله عليه وآله كلّ أحد وجبت له النار بأن

(١) الزخرف: ٨٦.

يرفع العذاب عنه أو وجبت له الجنّة بزيادة درجته أو بأمر آخر.

شفاعة علي عليه السلام

ورد في العديد من الروايات الشريفة ذكر الإمام علي عليه السلام كشفيع بعد النبي صلى الله عليه وآله كما في قوله صلى الله عليه وآله: «إنّي لأشفع يوم القيامة فأشفّع، ويشفع عليّ فيشفّع..»[١].

وعن الباقر عليه السلام: في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ قال: «ذاك النبي صلى الله عليه وآله وعلي، يقوم على كوم قد علا الخلائق فيشفع ثمّ يقول: يا علي اشفع..»[٢].

شفاعة الزهراء عليها السلام

ومن الروايات الواردة في شفاعة الزهراء عليها السلام ما رواه محمّد بن مسلم قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «لفاطمة وقفة على باب جهنّم، فإذا كان يوم القيامة كُتب بين عيني كلّ رجل مؤمن أو كافر، فيؤمر بمحبّ قد كثرت ذنوبه إلى النار، فتقرأ بين عينيه محبّاً فتقول: إلهي وسيّدي سمّيتني فاطمة وفطمت بي من تولاّني وتولّى ذرّيتي من النار ووعدك الحقّ وأنت لا تخلف الميعاد، فيقول الله عزّوجلّ: صدقت يافاطمة إنّي سمّيتك فاطمة وفطمت بك من أحبّك وتولاّك وأحبّ ذرّيتك

(١) بحار الأنوار: ج٨، كتاب العدل والمعاد، باب الشفاعة، ح٤٢، ص٤٣، ط: طهران.
(٢) المصدر نفسه: ح٤١، ص٤٣.

وتولاّهم من النار، ووعدي الحقّ وأنا لا أخلف الميعاد، وإنّما أمرت بعبدي هذا إلى النار لتشفعي فيه فأُشفّعك ليتبيّن لملائكتي وأنبيائي ورسلي وأهل الموقف موقفك منّي ومكانتك عندي، فمن قرأت بين عينيه مؤمناً فجذبت بيده وأدخلته الجنّة»[(١)].

شفاعة أهل البيت عليهم السلام

ورد ذكر الرسول صلى الله عليه وآله كشفيع في الروايات السابقة وهكذا بالنسبة للإمام علي عليه السلام والزهراء عليها السلام وأمّا باقي الأئمّة عليهم السلام فقد ورد ذكرهم جميعاً دون تفصيل في الأسماء، فعن أبي بصير، عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «إذا كان يوم القيامة جمع الله الأوّلين والآخرين في صعيد واحد فتغشاهم ظلمة شديدة فيضجّون إلى ربّهم ويقولون: يا ربّ اكشف عنّا هذه الظلمة، قال: فيقبل قوم يمشي النور بين أيديهم قد أضاء أرض القيامة فيقول أهل الجمع: هؤلاء أنبياء الله، فيجيئهم النداء من عند الله: ما هؤلاء بأنبياء، فيقول أهل الجمع: فهؤلاء ملائكة. فيجيئهم النداء: ما هؤلاء بملائكة. فيقول أهل الجمع: هؤلاء شهداء، فيجيئهم النداء: ما هؤلاء بشهداء، فيقولون: من هم؟ فيجيئهم النداء: يا أهل الجمع سلوهم: من أنتم؟ فيقولون: نحن العلويون، نحن ذرّية محمّد صلى الله عليه وآله نحن أولاد علي ولي الله، نحن المخصوصون بكرامة الله، نحن الآمنون المطمئنون. فيجيئهم النداء من

(١) بحار الأنوار: كتاب العدل والمعاد، باب الشفاعة، ح٥٨، ص٥١، ط: طهران.

عند الله عزّ وجلّ: اشفعوا في محبّيكم وأهل مودّتكم وشيعتكم، فيشفعون فيشفّعون»[١].

وعن أبي هريرة قال: قال النبي صلى الله عليه وآله: «الشفعاء خمسة، وعدّ منهم: وأهل بيت نبيّكم»[٢].

وعن معاوية بن وهب، قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿لاَ يَتَكَلَّمُونَ إلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً﴾ قال: «نحن والله المأذون لهم في ذلك اليوم والقائلون صواباً». قلت: جعلت فداك، وما تقولون؟ قال: «نمجّد ربّنا ونصلّي على نبيّنا ونشفع لشيعتنا فلا يردّنا ربّنا»[٣].

شفاعة المؤمنين

ومن الروايات ما يدلّ على أنّ للمؤمنين من الشيعة الذين اتّقوا الله وأطاعوه شفاعة يوم القيامة على حسب أعمالهم ودرجاتهم عليهم السلام

فعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «الله رحيم بعباده، ومن رحمته أنّه خلق مائة رحمة جعل منها رحمة واحدة في الخلق كلّهم فيها يتراحم الناس، وترحم الوالدة ولدها، وتحنّن الأمّهات من الحيوانات على أولادها،

---

(١) **بحار الأنوار**: ج٨، كتاب العدل والمعاد، باب الشفاعة، ح١٠، ص٣٦، ط: طهران.
(٢) المصدر نفسه: ح٣٩، ص٤٣.
(٣) المصدر نفسه: ح٢٨، ص٤١.

فإذا كان يوم القيامة أضاف هذه الرحمة الواحدة إلى تسع وتسعين رحمة فيرحم بها أمّة محمّد صلى الله عليه وآله، ثمّ يشفعهم فيمن يحبّون له الشفاعة من أهل الملّة حتّى أنّ الواحد ليجيء إلى مؤمن من الشيعة فيقول: اشفع لي، فيقول: وأيّ حقّ لك عليّ؟ فيقول: سقيتك يوماً ماءً، فيذكر ذلك فيشفع له فيشفّع فيه ويجيئه آخر فيقول: إنّ لي عليك حقّاً فاشفع لي، فيقول: وما حقّك عليّ؟ فيقول: استظللت بظلّ جداري ساعة في يوم حار. فيشفع له فيشفّع فيه. ولا يزال يشفع حتّى يشفع في جيرانه وخلطائه ومعارفه، فإنّ المؤمن أكرم على الله ممّا تظنّون»[١].

وذكر العدد في هذه الرواية الشريفة لأجل بيان سعة وعظمة دائرة الشفاعة يوم القيامة، وإلاّ فإنّ الرحمة الإلهية ليست أمراً مادّياً معدوداً حتّى يمكن تقسيمه إلى مثل هذه الأعداد.

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله أيضاً قال: «... وفي المؤمنين من يشفع مثل ربيعة ومضر، وأقلّ المؤمنين شفاعة من يشفع لثلاثين إنساناً...»[٢].

وعن أبي الحسن الأوّل عليه السلام، قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: لا تستخفّوا بفقراء شيعة علي وعترته من بعده فإنّ الرجل منهم ليشفع لمثل ربيعة ومضر»[٣].

---

(١) **بحار الأنوار**: ج٨، كتاب العدل والمعاد، باب الشفاعة، ح٤٤، ص٤٤، ط: طهران.
(٢) المصدر نفسه: ح٧٥، ص٥٨.
(٣) المصدر نفسه: ح٧٥، ص٥٩.

شفعاء آخرون: التوبة، العلماء، الشهداء، الملائكة

بالإضافة إلى القرآن الكريم والنبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام والمتّقين من الشيعة فإنّ هناك شفعاء آخرين ورد ذكرهم في الروايات المختلفة، منها:

• عن جعفر بن محمّد عن آبائه عن علي عليهم السلام، قال: «**قال رسول الله** صلى الله عليه وآله: **ثلاثة يشفعون إلى الله عزّ وجلّ فيشفعون: الأنبياء، ثمّ العلماء، ثمّ الشهداء**»[1].

والعلماء الشفعاء هنا لا مطلق العلماء، بل العلماء العاملون بعلمهم المنفقون له.

وأمّا الشهداء، فهم شهداء معركة القتال كما هو مصطلح الروايات الشريفة، لا شهداء الأعمال كما في مصطلح القرآن الكريم.

• وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**إنّ الجار يشفع لجاره والحميم لحميمه ولو أنّ الملائكة المقرّبين والأنبياء المرسلين شفعوا في ناصب ما شفّعوا**»[2]. فنفي الشفاعة في الناصبي دليل على ثبوتها لهم في غير الناصبي.

• وعن النبي صلى الله عليه وآله قال: «**لا شفيع أنجح من التوبة، والشفاعة للأنبياء والأوصياء والمؤمنين والملائكة...**»[3].

---

(١) **بحار الأنوار**: ج٨، كتاب العدل والمعاد، باب الشفاعة، ح٢، ص٣٤.

(٢) المصدر نفسه: ح٣٥، ص٤٢.

(٣) المصدر السابق: ص٥٨، ح٧٥.

الروايات الواردة في ردّ بعض الإشكالات

ويظهر من بعض الروايات، إنكار البعض للشفاعة، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**من لم يؤمن بشفاعتي فلا أناله الله شفاعتي**»[١].

وأنّ البعض كان يتصوّر أنّ الاعتقاد بالشفاعة باعث على التجرّي؛ فعن أبي العباس المكبّر قال: دخل مولى لامرأة علي بن الحسين عليهما السلام على أبي جعفر عليه السلام يقال له: أبو أيمن، فقال: يا أبا جعفر تغرّون الناس وتقولون: شفاعة محمّد شفاعة محمّد، فغضب أبو جعفر عليه السلام حتّى تربّد وجهه ثمّ قال: «**ويحك يا أبا أيمن أغرّك أن عفّ بطنك وفرجك، أما لو قد رأيت أفزاع القيامة لقد احتجت إلى شفاعة محمّد صلى الله عليه وآله، ويلك فهل يشفع إلاّ لمن وجبت له النار، ثمّ قال: ما أحد من الأوّلين والآخرين إلاّ هو محتاج إلى شفاعة محمّد صلى الله عليه وآله..**»[٢].

ومع تأكيد الإمام عليه السلام إلى حاجة كلّ أحد للشفاعة، إلاّ أنّ الشفاعة لا تنفع إلاّ من كسب رضا الله تعالى عنه، كما في الرواية التي نقلناها سابقاً عن جعفر المؤذّن عن أبي عبدالله عليه السلام، حيث قال: «**من سرّه أن تنفعه شفاعة الشافعين عند الله فليطلب إلى الله أن يرضى عنه**»[٣].

---

(١) بحار الأنوار: ج٨، ح٧٤، ص٥٧.
(٢) بحار الأنوار: ج٨، ح١٦، ص٣٨.
(٣) الكافي: ج٨، ص١١، ح٢٩٨.

الروايات في من تجري فيهم الشفاعة

• ورد العديد من الروايات التي تبيّن أنّ من تجري فيهم الشفاعة هم المرضيّون عند الله ديناً؛ فعن الحسين بن خالد، قال، قلت للرضا عليه السلام: «**يابن رسول الله فما معنى قول الله عزّ وجلّ**: ﴿وَلاَ يَشْفَعُونَ إلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾؟ **قال: لا يشفعون إلاّ لمن ارتضى الله دينه**»[1].

• وإنّ ممّن يشفع لهم من اتّخذ عند الرحمن عهداً، أي الولاية؛ فعن أبي عبد الله عليه السلام في قوله: ﴿لاَ يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إلاَّ مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً﴾ **قال: لا يشفع ولا يشفع لهم ولا يشفّعون** ﴿إلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً﴾ **إلاّ من أذن له بولاية أمير المؤمنين والأئمّة من بعده فهو العهد عند الله**[2].

• ومن الروايات ما بيّنت بصورة واضحة أنّ مدار الشفاعة هو الاعتقاد الصحيح؛ فعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**والشفاعة لا تكون لأهل الشرك والشكّ، ولا لأهل الكفر والجحود بل تكون للمؤمنين من أهل التوحيد**»[3].

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «**أما إنّه ليس من عبد يذكر عنده أهل البيت فيرقّ لذكرنا إلاّ مسحت الملائكة ظهره وغُفر له ذنوبه كلّها إلاّ**

(١) بحار الأنوار: ج٨، ح٤، ص٣٣.
(٢) بحار الأنوار: ج٨، ح٩، ص٣٦.
(٣) بحار الأنوار: ج٨، ح٧٥، ص٥٨.

أن يجيء بذنب يخرجه من الإيمان..»[1].

• ومن الروايات ما يدلّ على أنّ الشفاعة للموحّدين من أُمّة محمّد صلى الله عليه وآله الذين أذنبوا وفعلوا الكبيرة ووجبت لهم النار. فعن الصادق عليه السلام عن آبائه، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله إذا قمت المقام المحمود تشفّعت في أصحاب الكبائر من أمّتي فيشفّعني الله فيهم..»[2].

وعن أبي عبد الله عليه السلام: «إذا كان يوم القيامة نشفع في المذنب من شيعتنا فأمّا المحسنون فقد نجّاهم الله»[3].

• ومن الروايات ما دلّ على أنّ الناصبي وأعداء آل محمّد صلى الله عليه وآله لا تشملهم الشفاعة؛ فعن أبي عبد الله عليه السلام: «إنّ المؤمن ليشفع لحميمه إلاّ أن يكون ناصباً، ولو أنّ ناصباً شفع له كلّ نبي مرسل وملك مقرّب ما شفّعوا»[4].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «.. والله لا تشفّعت فيمن آذى ذرّيتي»[5].

---

(١) بحار الأنوار: ج٨، ح٧٠، ص٥٦.
(٢) بحار الأنوار: ج٨، ح١٢، ص٣٧.
(٣) بحار الأنوار: ج٨، ح٧٧، ص٥٩.
(٤) بحار الأنوار: ج٨، ح٢٧، ص٤١.
(٥) بحار الأنوار: ج٨، ح١٢، ص٣٧.

الروايات في وقت الشفاعة

تحدّثت بعض الروايات عن وقت حصول الشفاعة، ففي بعضها أنّه وقت المرور على الصراط، فعن علي عليه السلام في رواية يصف فيها الجنّة إلى أن قال عليه السلام: «**فلا أزال واقفاً على الصراط أدعو وأقول: ربّ سلّم شيعتي ومحبّي وأنصاري ومن تولاّني في دار الدنيا، فإذا النداء من بطنان العرش: قد أُجيبت دعوتك وشفّعت في شيعتك..**»[(١)].

وفي رواية أنّها وقت الأمر بالعبد المذنب إلى النار، كما في رواية محمّد بن مسلم عن الإمام أبي جعفر عليه السلام[(٢)] الذي ذكرناها سابقاً حيث ذكرت الرواية أنّ شفاعة فاطمة عليها السلام تنال المذنب حينما يؤمر به إلى النار.

وفي بعضها، أنّ الشفاعة تتحقّق حتّى فيمن أُحرق بالنار ودخل جهنّم، فعن أبي إبراهيم عليه السلام، في حديث طويل إلى أن يقول عليه السلام: «**فيقول محمّد أنا لها، فينطلق حتّى يأتي باب الجنّة فيدقّ، فيقال له: من هذا - والله أعلم- فيقول: محمّد، فيقال: افتحوا له، فإذا فتح الباب استقبل ربّه فيخرّ ساجداً فلا يرفع رأسه حتّى يقال له: تكلّم وسل تعط واشفع تشفع، فيرفع رأسه فيستقبل ربّه فيخرّ ساجداً، فيقال له مثلها، فيرفع رأسه حتّى أنّه ليشفع من قد أُحرق بالنار..**»[(٣)].

---

(١) بحار الأنوار: ج٨، ح١٩، ص٣٩.
(٢) بحار الأنوار: ج٨، ح٥٨، ص٥٠.
(٣) بحار الأنوار: ج٨، ح٥٢، ص٤٨.

محتويات الكتاب

(١)
مقدّمة في علم الأخلاق

تمهيد

أهمية العنصر الأخلاقي في القرآن ٧
وإنَّك لعَلى خُلق عَظيم ١٠
قَد أفلحَ مَن زَكَّاهَا ١٤
الروايات الحاثّة على الأخلاق الحسنة ٢٣

البحث الأوّل: تعريف علم الأخلاق

الأخلاق لغةً ٣١
الأخلاق اصطلاحاً ٣٣
موقع علم الأخلاق في منظومة المعارف ٣٧
تعريف علم الأخلاق ٤٠
قوى النفس الظاهرة والباطنة ٤١
١. الحسّ المشترك ٤٣
٢. الخيال ٤٤
٣. الوهم ٤٩
٤. الحافظة ٥١
٥. المتصرّفة
٦. المتخيّلة والمتفكّرة ٥٢

أبواب الجنّة والجحيم ٥٤
قوى النفس الإنسانية ٥٦
النفس وقواها الأربع ٥٩
اعتدال القوى النفسانية ٦٢
الفضائل التي تحت الحكمة والعفّة ٦٦
الفضائل التي تحت الشجاعة ٦٨
الفضائل التي تحت السخاء ٦٩

البحث الثاني: إمكانية تغيير الأخلاق

المقام الأوّل: إمكانية تغيير الأخلاق ٧٢
المقام الثاني: اختلاف درجات الناس في قبول التغيّر ٧٤
أخبار الطينة ٧٧
إشكالية الجبر في الفعل الإنساني ٧٩
إشكال وجواب ٨٩
جمع بين رأيين ٩١

البحث الثالث: في طرق إصلاح أخلاق الإنسان

مقدمة ٩٥
مسالك التهذيب ٩٩
المسلك الأوّل: تهذيب الأخلاق بالغايات الصالحة الدنيوية ٩٩
المسلك الثاني: تهذيب الأخلاق من خلال الغايات الأخروية ١٠٥
المسلك الثالث: الحبّ الإلهي ١١٣

(٢)
مناهج الإمامة بين النظرية والتطبيق

المقدّمة

الحاجة إلى بحوث الإمامة حاجة مهمّة ومستمرّة.. ١٢٧
أثر منهجية بحث الإمامة في اختلاف الأمّة... ١٢٨
فهرسة البحث.. ١٢٩

القسم الأوّل
مناهج بحث الإمامة

مناهج بحث الإمامة.. ١٣٣

الفصل الأوّل
المنهج الكلامي في بحث الإمامة

أوّلاً: المنهج الكلامي لدى مدرسة الخلفاء... ١٣٦

أ: مسؤوليات ومهام الإمام ١٣٦
ب: شرائط الإمامة ١٣٧
ثانياً: المنهج الكلامي لدى مدرسة أهل البيت عليهم السلام ١٣٩
أ : مسؤوليات الإمام ١٣٩
ب: شروط ومواصفات الإمامة ١٤٠
نتائج وآثار المنهج الكلامي الإمامي ١٤٠
بيان مصاديق الإمامة من خلال المنهج الكلامي ١٤٣

الفصل الثاني

المنهج القرآني في بحث الإمامة

أوّلاً: شرائط الإمامة ١٤٦
ثانياً: أدوار ومهام الإمام ١٥٠
نتائج وآثار المنهج القرآني ١٥١

القسم الثاني

دراسة تطبيقية في الآية المباركة ١٥٧

الفصل الأوّل: بحوث مختصرة عامّة تتعلّق بالآية المباركة ١٥٩
أوّلاً: في معنى التقوى ودورها ١٦١
التقوى والكون مع الصادقين ١٦٣
معنى التقوى ١٦٣
أهميّة التقوى ١٦٣

ثانياً: معنى (الصدق والصادقين) ١٦٩
١ ـ المعنى اللغوي والعرفي لهما ١٦٩
٢ ـ المعنى القرآني للصدق والصادقين ١٧١
ثالثاً: (المتّقون ومعيّة الصادقين) ١٨١
١. الفرق بين «مع» و «من» ١٨١
٢. معنى المعيّة في قوله تعالى وكونوا مع الصادقين ١٨٣
الفصل الثاني: في الاستدلال بالآية المباركة على الإمامة ١٨٥
البحث الأوّل: في الإمامة العامّة ١٨٧
١. في كيفية الاستدلال على عصمة الصادق ووجود المعصوم ١٨٧
استدلال ابن شهر آشوب والفخر الرازي ١٩٠
٢. الاستدلال على استمرار وجود المعصوم في كلّ زمان ١٩١
خلاصة الاستدلال ١٩٢
البحث الثاني: في (الإمامة الخاصّة) ١٩٣
أوّلاً: من هم الصادقون؟ وكيف نثبت ذلك؟ ١٩٣
الخلاصة ٢٠٦
ثانياً: عدد الأئمّة اثنا عشر إماماً ٢٠٧
خصائص هذه الروايات ٢٠٩
ثالثاً: تعيين أسماء الأئمّة عليهم السلام ٢١٠
إشكال وجواب ٢١٣
رابعاً: الإمام الثاني عشر هو الحجّة بن الحسن المنتظر ٢١٨

طرق إثبات أنّ الإمام المهدي عليه السلام حيّ..٢٢٢
إشكال وجواب...٢٢٦
طرق أخرى لإثبات حياة الإمام المهدي ٢٢٧
العقيدة بالمنقذ آخر الزمان عقيدة إسلامية، بل إنسانية عامّة ٢٢٨
الفصل الثالث: في ردّ الإشكالات المثارة على الاستدلال
بالآية المباركة...٢٢٩

(٣)

التوبة.. دراسة في شروطها وآثارها

المقدمة: فضيلة التوبة في القرآن والحديث ٢٤١
ما هي التوبة ٢٤٥
اختصاص التوبة بنشأة الدنيا ٢٤٨
توبة العبد محفوفة بتوبتين من الله تعالى ٢٥٣
قبول التوبة من الله لعبده فضل منه تعالى ٢٥٥
الحكمة من تشريع التوبة ٢٥٧
تشريع التوبة والإغراء بالمعصية ٢٥٩
لا شفيع أنجح من التوبة ٢٦١
الآثار المترتّبة على الذنوب ٢٦١
عود على بدء ٢٦٥
تعارض متوهّم ٢٦٨
أركان التوبة وشروطها ٢٧١
أركان التوبة ٢٧٢
حقّ الله وحقّ الناس ٢٧٤

شروط كمال التوبة ٢٧٥
التوبة النصوح ٢٧٨
وجوب التوبة فوري ٢٧٩
شرائط قبول التوبة ٢٨٢
الذنوب التي تجب عنها التوبة ٢٨٨
التمييز بين الكبائر والصغائر ٢٩١
الكبائر في الروايات ٢٩٣
الإصرار على الكبائر ٢٩٨
الصغائر قد تكون كبائر ٣٠١
علاج الإصرار على الذنوب ٣٠٣
الاستدراج في الذنوب ٣٠٥
أقسام التائبين ٣٠٩
مراتب التوبة والتائبين ٣١٣
توبة الأنبياء واستغفارهم ٣١٧
تلخيص ٣٢٠

(٤)
مفهوم الشفاعة في القرآن

المقدّمة ٣٢٥

الفصل الأوّل
معنى الشفاعة وبعض البحوث المتعلّقة بها

البحث الأوّل: معنى الشفاعة وأقسامها ٣٣١
١ - الشفاعة لغة ٣٣١
٢ - الشفاعة اصطلاحاً ٣٣٢
أوّلاً: الشفاعة العرفية ٣٣٢
ثانياً: الشفاعة في القرآن الكريم وروايات المعصومين ٣٣٥
١ - الشفاعة التكوينية ٣٣٦
الآيات الدالّة على وجود الشفاعة التكوينية ٣٣٧
كلام في الآيات النافية للشفاعة في ضوء الشفاعة التكوينية ٣٤٠
الوثنيون على قسمين ٣٤١
٢ - الشفاعة التشريعية ٣٤٥
إثبات الشفاعة التشريعية ٣٤٩
ثالثاً: الشفاعة الحسنة والشفاعة السيّئة ٣٥٠
البحث الثاني: في حقيقة فعل الشفيع ٣٥٣
مقدّمات مهمّة ٣٥٣
أهمّ النظريات في تفسير فعل الشفيع ٣٥٨

النظرية الأولى: للعلاّمة الطباطبائي ٣٥٨
النظرية الثانية: للشيخ جوادي آملي ٣٦٤
النظرية الثالثة: منشأ الشفاعة العبد نفسه ٣٦٤
أثر الشفاعة بالحكومة لا بالمضادّة ٣٦٦
البحث الثالث: الشفعاء ٣٧٣
أوّلاً: شفعاء الشفاعة التكوينية ٣٧٣
ثانياً: شفعاء الشفاعة التشريعية ٣٧٣
أ: الشفاعة التشريعية في الدنيا ٣٧٤
ب: الشفاعة التشريعية في الآخرة ٣٧٨
١ – شفعاء الشفاعة التشريعية في الدنيا ٣٧٨
أ: الملائكة ٣٧٨
ب: الأنبياء ٣٨٣
شفاعة الرسول الخاتم صلى الله عليه وآله ٣٨٤
ج: التوبة ٣٨٥
د: العمل الصالح ٣٨٨
هـ: القرآن الكريم ٣٨٨
و: المؤمنون، ز: شفعاء آخرون ٣٨٩
٢ – شفعاء الشفاعة التشريعية في الآخرة ٣٨٩
أ: الأنبياء عليهم السلام ٣٨٩
ب: الملائكة ٣٩١
ج: الشهداء ٣٩١

البحث الرابع: في المشفوع لهم ٣٩٣
الضابطة الكلّية في تحديد المشفوع لهم ٣٩٣
شروط من تشملهم الشفاعة ٣٩٥
المرضيّ عند الله تعالى ٣٩٥
الرضا عن العلم أو عن العلم والعمل؟ ٣٩٦
الشفاعة لأهل الكبائر من أصحاب اليمين ٣٩٨
البحث الخامس: بماذا تتعلّق الشفاعة؟ ٤٠٥
البحث السادس: متى تنفع الشفاعة؟ ٤٠٧

الفصل الثاني
أهمّ الإشكالات المثارة على الشفاعة وردّها

الأسباب التي أدّت إلى إثارة الإشكالات على الشفاعة ٤١١
الإشكال الأوّل: استلزام صدور الظلم من الله أو الجهل من أنبيائه ٤١٤
الإشكال الثاني: استلزام تبديل السنن الإلهية أو الترجيح بلا مرجّح ٤١٨
الإشكال الثالث: استلزام تغيّر العلم، المستحيل في حقه تعالى ٤٢٠
الإشكال الرابع: إشكال التجرّي ونقض الغرض ٤٢٤
شفاعة أهل البيت عليهم السلام لشيعتهم وشبهة التجرّي ٤٣٢
الشفاعة ونظرية الخوف والرجاء ٤٣٤
الإشكال الخامس: لا نصّ قطعيّاً في القرآن على وقوع الشفاعة ٤٣٦
الإشكال السادس: إشكال التشابه ٤٤١
الإشكال السابع: إنّ الشفاعة لدفع العقاب لا لرفعه ٤٤٣
الإشكال الثامن: إشكال تقييد الرحمة الإلهية ٤٤٥

الإشكال التاسع: توسّط الشفعاء وتقييد القدرة الإلهية ٤٤٥
الإشكال العاشر: اقتضاء الشفاعة للشرك ٤٤٦
الإشكال الحادي عشر: إشكال المعتزلة ٤٥٠

الفصل الثالث
بحث روائي في الشفاعة

شفاعة أشفع الشافعين ٤٥٦
شفاعة القرآن الكريم ٤٥٦
شفاعة النبي صلى الله عليه وآله ٤٥٨
روايات المقام المحمود ٤٦٣
روايات الإعطاء والرضا ٤٦٥
أرجى آية في القرآن الكريم ٤٦٦
روايات أخرى في شفاعة الرسول صلى الله عليه وآله ٤٦٩
بحث في احتياج الكلّ إلى شفاعة الرسول الخاتم ٤٧١
شفاعة علي وشفاعة الزهراء عليهما السلام ٤٧٢
شفاعة أهل البيت عليهم السلام ٤٧٣
شفاعة المؤمنين ٤٧٤
شفعاء آخرون: التوبة، العلماء، الشهداء، الملائكة ٤٧٦
الروايات الواردة في ردّ بعض الإشكالات ٤٧٧
الروايات في من تجري فيهم الشفاعة ٤٧٨
الروايات في وقت الشفاعة ٤٨٠

من آثار المؤلّف

١- العصمة: بحث تحليلي في ضوء المنهج القرآني. تقرير: محمد القاضي
(الطبعة الحادية عشرة)

٢- التقوى في القرآن: دراسة في الآثار الاجتماعية (الطبعة السابعة)

٣- التربية الروحية: بحوث في جهاد النفس (الطبعة السابعة)

٤- بحث حول الإمامة؛ حوار بقلم: جواد علي كسار (الطبعة السابعة)

٥- مدخل إلى الإمامة (الطبعة الخامسة)

٦- التوحيد: بحوث تحليلية في مراتبه ومعطياته (جزءان)
تقرير: جواد علي كسار (الطبعة الخامسة)

٧- عصمة الأنبياء في القرآن. تقرير: محمود نعمة الجياشي (الطبعة الخامسة)

٨- دروس في الحكمة المتعالية (صدر منه جزءان) (الطبعة الثالثة)

٩- بحوث في علم النفس الفلسفي. تقرير: الشيخ عبد الله الأسعد
(الطبعة الثالثة)

١٠- مناهج المعرفة (الطبعة الثالثة)

١١- لا ضرر ولا ضرار؛ بحث فقهي (الطبعة الثانية)

١٢- المنهج العقائدي في تفسير «الميزان» (الطبعة الثانية)

١٣- الشفاعة.. بحوث في حقيقتها وأقسامها ومعطياتها (الطبعة الثانية)

١٤- المذهب الذاتي في نظرية المعرفة (الطبعة الأولى)

١٥- شرح بداية الحكمة - جزءان. تقرير: الشيخ خليل رزق (الطبعة الأولى)

١٦- مقدمة في علم الأخلاق (الطبعة الأولى)

١٧- التوبة: دراسة في شروطها وآثارها (الطبعة الأولى)

١٨- مفهوم الشفاعة في القرآن. تقرير: الشيخ محمد جواد الزبيدي
(الطبعة الأولى)

١٩- مناهج بحث الإمامة بين النظرية والتطبيق.
تقرير: الشيخ محمد جواد الزبيدي (الطبعة الأولى)

٢٠- التفقّه في الدين. بقلم: طلال الحسن (تحت الطبع)

٢١- الإعجاز بين النظرية والتطبيق. بقلم: محمود نعمة الجياشي
(تحت الطبع)